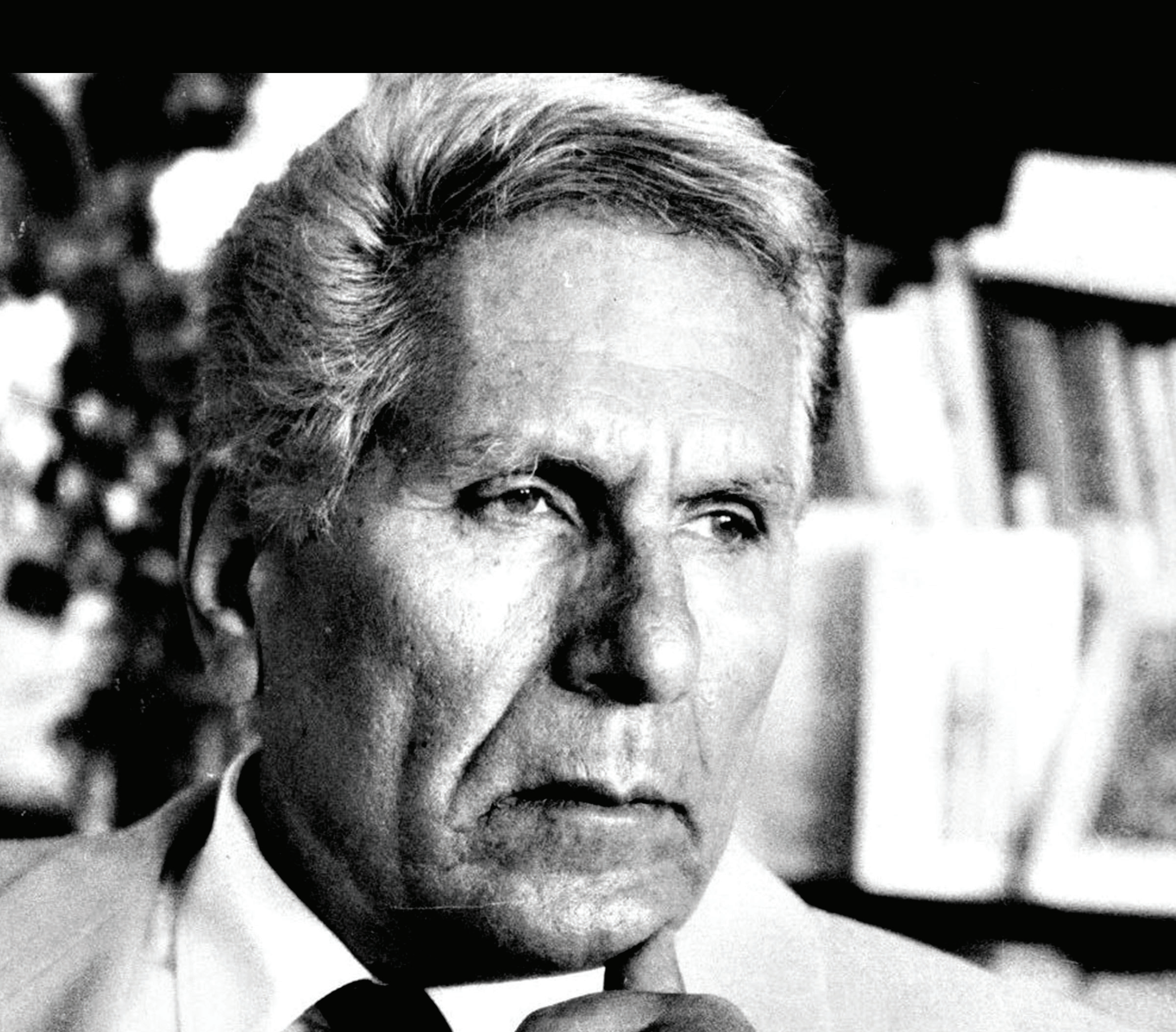
انطباعات مستفزة

يوسف إدريس



انطباعات مستفزة

تأليف
يوسف إدريس



انطباعات مستفزة

يوسف إدريس

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٩٦٥ ٣

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٦
صدر عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠

المحتويات

عن هذا الكتاب	٧
التخليص في التلخيص	٩
غداء في الحادية عشرة مساءً	١٧
سؤال (١)	٢٣
أمر بالستر وليس بالتستر	٢٩
وتبخَّرت المتعة	٣٥
ما هذا يا سادتنا في الخارج؟	٤١
تعليق	٤٥
ساعتان من الإسكواش السياسي	٤٧
م. د. م	٥٣
إلى الأستاذ «جلال الدين الحمامصي»	٥٧
الكلام لطوبة والفعل لأمشير	٦١
الغرق القادم في الطريق	٦٧
الحكاية مش حكاية الغارة ولا الطيارة	٧٣
العطش الفكري	٨١
كنا عربًا ولن نبقى عربًا!	٨٧
هل الإسلام ضد القومية؟!	٩٣
عكس الكتابة	٩٩
أنا في الانتظار	١٠٥
ورغم هذا نحن معك ضد أمريكا	١١١

إلى الأستاذ خالد محمد خالد	١١٩
رسالتان	١٢٥
خطأ الإعلام	١٣٥
رد هادئ على أستاذ جليل	١٣٩
انطباعات قطرية	١٤٣
عن السقوط قالوا لي	١٤٧
نميمة عربية	١٥٣
الذين يأكلون أمهم	١٦١
مَن يخشى الله؟	١٦٥
إعجاز الخالق الأول ... الله سبحانه	١٦٧

عن هذا الكتاب

أعتقد أن القارئ سيستغرب وربما يسخط، أو على الأقل يلومني على الاسم الذي اخترته لهذا الكتاب «انطباعات مستفزة»! وهل القارئ في حاجة إلى استفزازٍ أكثر؟

إنه مُستفَز طوال يومه، ويريد إذا عاد لبيته وهجع وبدأ يقرأً، أن يقرأ شيئًا يُرخي أعصابه المشدودة، ويُذهب عنه كل استفزازات اليوم الطويل ...

ولكن ...

لقد اخترتُ هذا العنوان عن عمد، لا لأنها انطباعات مستفزة، ولكن لأنني حين كتبتها، كنت أريد أن أفرغ نفسي من استفزازاتها، لا أفرغها في عقل القارئ ووجدانه، وإنما لأفرغها على الورق.

والاستفزاز إذا كتبه كاتبٌ مستفز، يتحول بسحرٍ غريب، هو سحر الكتابة، إلى بلسم يضمد المناطق الملتهبة من النفس البشرية، إنه يحدث نتيجة عكس التي أوجدته وخلقته، فالكاتب الحقيقي لا يكتب إلا مستفزًّا، وليس ضروريًّا أن يكون الاستفزاز استفزاز غضب، إنما الاستفزاز الحقيقي هو هبة من النفس البشرية تتفجر كالبركان الخلَّاق؛ لتطهر مكنونتها وتعيدها إلى توازنها، وتظهر وجهها الإنساني الجميل.

خذوا هذه الانطباعات إذن على هذا المحمل.

فكل انطباع منها قد كُتب في حينه، ليُطهر في حينه، وكل انطباع منها كان ينبع من أعماق أعماق نفسي، وعشمي أن يصل إلى أعماق أعماق القارئ، يطهرها ويُجدِّدها كما فعل بي حين كتبتُه.

أما إنها قصة أو مقال، أو شكلٌ جديدٌ آخر للكتابة، حتى لو كانت القصة في شكلها العصري الجديد المباشر الذي نحيا به وفيه، فليس هذا هو المهم، تلك قضيةٌ أكاديمية أترك للنقاد حلها، قضيتي أنا هي أن أكتب، أو أن تكتب لتؤثر، لتغير، لتطبع أحرفك على قلب

قارئ يريد الخلاص، وأملي أن يحدث له الخلاص؛ فبكل ما أملك من أدواتي وأحاسيسي وقدراتي كتبتها.

وكل عشمي أن يحياها القارئ كما عشتُها، وأن تزيح عنه استفزازه المدمر؛ لتولد فيه الاستفزاز الإنساني الموحي الصافي الخلاق.

إن الإنسان نفسه ليس سوى ظاهرة خلقت لتستفز كل ما في الكون من مادة وجماد وحيوان وحتى الإنسان، وبقدرات الخلق الاستفزازية يُحوِّلها إلى ما يشبه الحياة أو الحياة الأسمى.

د. يوسف إدريس

التخليص في التلخيص

حاولتُ فتح باب غرفة الفندق الذي نزلتُ فيه، والذي كان اسمه «رويال بالاس هوتيل»، وهو اسم كان «يخضُّ» كل من يسمعه؛ إذ ليس فيه من سمات الملكية إلا الاسم، ومن صفات القَصْر إلا القِصَر (بكسر القاف) فقد كان مكوَّنًا من دورَين فقط، ورغم هذا فإيجار الغرفة فيه لا يزيد عن الألفَي دولار في الشهر؛ إذ هو يقع في حي «وست وود» القريب جدًّا من الجامعة، المزدحم، باهظ التكاليف لمغتربٍ مثلي لا يملك سيارة، وسوف يقطع في اليوم الواحد ما لا يقل عن الكيلومترات الأربعة ذهابًا وإيابًا، «وتلك أقصر مسافات السير مشيًا على الأقدام في لوس أنجلوس» المهم، حاولت فتح باب الغرفة في الصباح، فوجدت خلف الباب شيئًا كان يمنعني عن فتحه، وكررت المحاولات حتى فتح الباب وعرفت السبب. خلف الباب كانت جريدة الأحد (العدد الأسبوعي) من «لوس أنجلوس تايمز» عددٌ هائل الحجم، وزنه لا يقل عن الكيلوجرامات الخمسة، ومربوط كالطرد بدوبارة من النايلون حتى لا تتبعثر أجزاؤه؛ إذ هو عدة ملاحق، ومجلتان مصوَّرتان على ورقٍ مصقول، ملحق للبيت وأدواته، للحدائق، للسفر، لرجال الأعمال، للرياضة، للسينما والمسرح والتليفزيون، للمعسكرات «الكامبنج»، للمقالات والرأي وخطابات القراء، في الحقيقة كمٌّ هائلٌ أكبر بكثير من حجم أي دليل تليفون لمدينة كبيرة.

حملت العدد بيديَّ الاثنتَين؛ إذ لم تصلح اليد الواحدة في حمله، ورحتُ أتفحَّصه، ولا أقول أتصفَّحه؛ فتلك عمليةٌ مستحيلة. رحت فقط أفصل الملاحق، وأضعها جانبًا وأنا مذهول، ذهولًا يكاد يشابه ذهول رفاعة رافع الطهطاوي حين رأى الجرائد والمجلات لأول مرة في فرنسا؛ إذ كانت شيئًا لم يُعرف بعدُ باللغة العربية في مصر، يقول رفاعة الطهطاوي في وصفها (وأنا أنقله هنا عن الكتاب الرابع الذي أصدره الدكتور أنور لوقا عنه): وأما المادة الثانية «من الدستور الفرنسي»، فإنها تُقوِّي كل إنسان على أن يُظهِر رأيه وعمله وسائر

ما يخطر بباله، مما لا يضر غيره؛ فيعلم الإنسان سائر ما في نفس صاحبه، خصوصًا الورقات المسماة بالجرنالات والكازيطات (جمع جازيت على ما أعتقد) فإن الإنسان يعرف منها سائر الأخبار المتجددة، سواء كانت داخلية أم خارجية، وإن كان قد يوجد فيها من الكذب ما لا يُحصى، إلا أنها تتضمن أخبارًا تتشوق نفس الإنسان إلى العلم بها، على أنها ربما تضمَّنت مسائلَ علميةً جديدة التحقيق، أو تنبيهاتٍ مفيدة أو نصائحَ نافعة.

وقطعًا في ذلك الوقت لم تكن الصحافة قد عرفت الإعلانات الصحفية بعدُ، ولو كان الشيخ رفاعة قد رأى الإعلانات وحدها في الصحف الأمريكية لكان قد كتب فصلًا عن تلك الأعجوبة، بل لقد كانت بالنسبة لي أنا القادم من القاهرة — وقد عرفت الإعلان الصحفي والتليفزيوني والإذاعي — أعجوبة. صفحة من جريدة مثلًا تُعتبر في عرف الإعلان الصحفي هنا حدثًا فريدًا، بينما في أمريكا مسألةٌ عادية تمامًا، ومفروض أن حجم الإعلانات في الصحف المصرية لا يزيد على ٣٠ أو ٤٠ في المئة من حجم الصحيفة، هذه الإعلانات تكاد تتجاوز الـ ٧٠٪ من حجم الصحيفة، وتصل إلى ٥٠٪ من وقت الإرسال التليفزيوني، وقطعًا لو أن لوس أنجلوس تايمز تصدر في القاهرة لما عرف عددٌ واحد منها طريقة إلى قارئ؛ إذ لا بد أن تذهب جميع أعداها إلى باعة الورق؛ فثمن ورقها يزيد كثيرًا جدًّا على ثمن العدد منها.

سألتُ أحد أصدقائي من أساتذة الجامعة: ألا يزعجكم أبدًا هذا الكمُّ المغرِق المقلِق من الإعلانات، «وما أكذبها في معظم الأحيان»، فالإعلان يقول لك تستطيع أن تكسب ٢٥٠٠ دولار إذا اشتريت سيارة كذا مثلًا، والمكسب أو بالأصح «المكذب» … إعلاناتٌ مطارِدةٌ آمرة، محرِّضة تكاد تصيب قادمًا غبيًّا مثلي بالدوار.

ردَّ صديقي قائلًا: إن الإعلانات هنا مادةٌ مقروءة ومسموعة جدًّا، فالأمريكي العادي يبحث عن الأرخص دائمًا والأقل تكلفة والأكثر جودة، فهي مباراة إذن بين المحالِّ والشركات لإثبات أنها الأرخص والأجود، ولم تكن تلك أول أعجوبةٍ أمريكية أصادفها.

وأيضًا لم تكن أول مرة يرد فيها على ذاكرتي اسم رفاعة الطهطاوي، وأنا في لوس أنجلوس. كنت قد قرأت كتاب «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» في صدر شبابي، وكان ما يبهرني فيه هو هذا التقبل الواعي الناقد لفرنسا ما بعد الثورة، وتفتح عصر النهضة، مع أنه كان الوحيد الذي لم يرسله محمد علي ليتعلم شيئًا، إنما أرسله ليكون إمامًا للبعثة فقط، حتى يحفظ على طلبته الذين كان معظمهم من الأتراك والشركس دينهم وإسلامهم. ولكن، بينما

انصرف عدد من طلبته إلى العربدة في شوارع باريس، تفرَّغ هو للدراسة، وتعلَّم اللغة الفرنسية وأجادها، وترجم الكثير من أمهات كتب ذلك العصر، وبالذات كتب مونتسكيو وفولتير ومفكري ما قبل الثورة. بحسه الإسلامي الفطري أدرك أن ما يشهده من رقي ونظافة وتحضُّر ونظام؛ ليس بعيدًا كثيرًا عن روح الإسلام، وإنما هي تكاد تكون «بضاعتنا رُدت إلينا»، فأنا شخصيًّا أعتقد أن النهضة الأوروبية لم تحدث إلا بتأثيرٍ إسلاميٍّ عربيٍّ كبير تسرب إلى أوروبا عن طريق الأندلس، وأن النهضة الأوروبية بعد قرونها المظلمة الوسطى لم تكن إلا الامتداد الحقيقي للحضارة الإسلامية التي وُجدت في إسبانيا وأوجدت أعلى مستوًى للتحضر البشري في ذلك الوقت.

ولكن الفارق بين أستاذنا الشيخ رفاعة الطهطاوي وبيني أنه ذهب إلى بلد، كان تتجسد فيه روح أوروبا الناهضة، قبل أن تتحوَّل إلى أوروبا المستعمِرة الطاغية، ولم يكن ذلك البلد في حالة عداء أو تربُّص ببلده، العكس هو الصحيح. كانت مصر في ذلك الحين بعين «محمد علي» ذات الفراسة تتطلع إلى فرنسا؛ لتتعلَّم وتُتقن العلم الحديث والتفكير العقلاني المستنير، تتعلم الطبيعة والكيمياء والطب، وقد طوَّرها العرب من العصور البدائية، وأوقفوها على عتبات التفكير العلمي مثلما فعل ابن رشد وابن سينا وجابر بن حيان والغزالي، ثم أخذت أوروبا الزمام وتعلَّمت من هؤلاء، إنما في نفس الاتجاه إلى مرحلةٍ أعلى حتى أصبح علينا، وقد نُكبنا بالعصر المملوكي الأول والثاني والتركي «ألف عام ربما من الركود وانعدام أعمال الفكر، والطاعة العمياء»، أصبح علينا أن نأخذ نحن عنهم هذه المرة ونتعلم الأرقى والأنفع ...

كان هذا شأن الشيخ رفاعة في زمانه.

ولكني إنسان يذهب إلى أمريكا وهو يعرف أمريكا، وثورة المواصلات والاتصالات في العالم قد جعلت كل ركن من أركان المعمورة معروفًا بكل ما يدور فيه لديَّ، وفي جميع المجالات، ثم إني قادم من قاهرة تحيا شريحة منها في مثل مستوى الشرائح الأمريكية العليا نفسها، وتستعمل كل أدواتها وتكنولوجياتها، كل ما في الأمر أن الشريحة العليا الأمريكية هنا بالغة الاتساع «١٠ ملايين مليونيرٍّ أمريكي مقابل مائتي ألف مصري»، وقفتُ ذات مرة على ساحل الخليج «مارينا دل راي»، أحاول أن أتصوَّر عدد اليخوت القابعة في الميناء؛ إذ هو بالتقريب يمثل عدد المليونيرات في مرسًى واحدٍ من مدينةٍ أمريكيةٍ واحدة، وإن كانت غنيةً جدًّا، فوجدت أن اليخوت لا تقلُّ عن عشرة آلاف في حين أن كل اليخوت في مصر راسية قريبًا من شيراتون، ولا يزيد عددها على عشرة أو ربما أقل.

بمعنًى آخر ليس نمط الحياة في أمريكا بغريب علينا، فلست ذاهبًا لقارةٍ مجهولة إذن، بل إن هذا النمط أصبح ظاهرةً عالمية تكاد تجدها في كل مكان من العالم غير الاشتراكي من بانجوك إلى جبل طارق. إن الأمركة أصبحت هي النظام الغربي الرأسمالي السائد، وبرغم كل كفاح الإيطاليين والفرنسيين والألمان للصمود في وجه تلك الأمركة، فإنها تستشري بألباب الأجيال الجديدة في كل مكان …

ماذا كان يفعل الشيخ رفاعة الطهطاوي في مكاني هذا؟

يصف المدينة.

ولكن المدينة موصوفة ومعروفة في التليفزيون المصري تمامًا.

والشوارع الواسعة وناطحات السحاب والبساطة التامة في تخطيط المدينة: شوارعُ طولية مع شوارعَ عرضيةٍ، ونظام للمرور الدقيق، ونعيق عربات الإسعاف أو الحريق أو البوليس لا ينقطع ليلًا أو نهارًا. ونفس حلقات دالاس وديناستي وسفينة الحب، كل ما في الأمر أنك تشاهدها تحت وابلٍ مستفز من الإعلانات التجارية، ومعظمها عن موادَ غذائيةٍ تعتقد معها أن الأمريكان يعشقون الطعام عشقًا وأن قوامهم لا بد كالأفيال، ولكنك تُفاجأ بالنساء، في الشوارع وفي كل مكان، في سُمك عصا الخيزران، والرجال حريصون على قوامهم بالأوقية والجرام، والناس حريصون على صحتهم تمامًا حتى لكأنهم يريدون أن يعيشوا إلى الأبد. تمطرك وسائل الإعلان على الدوام بوابل من التحذيرات، وكأنها وابل من البلاغات العسكرية تُحذِّرك من العدو المبين؛ المرض، أو التدخين، أو القيادة تحت تأثير الخمر أو المخدرات. غسيل مخ صحيٌّ مستمر حتى إنني أول مرة في حياتي أفكر في الإقلاع عن التدخين، وظللت أكافح نفسي حتى يصعد هذا القرار من مستوى النية الحسنة إلى مستوى التنفيذ، حتى تمكنت من تنفيذه في آخر أسبوع لي في لوس أنجلوس، ولكن للأسف داهمني الفيروس اللعين من الإنفلونزا الكاليفورنية؛ اضطرني لتأجيل السفر، ودخولي غرفة الإنعاش، والمرور في سردابٍ مرضيٍّ رهيب، من أعراض في القلب وأعراض في الكبد والأمعاء والعظام، ولما أفقتُ وأبديتُ دهشتي للطبيب أو بالأصح للطبيبة رئيسة قسم الإنعاش، وهي أستاذةٌ طويلة القامة تمامًا مهيبة، أثارت دهشتي من أن يحدث لي كل هذا من مجرد إنفلونزا، قالت: إنها تقتل في العادة ما بين ٢٥٠٠ إلى ٣٠٠٠ شخص في كاليفورنيا وحدها، وهي ليست كالأنفلونزا عندكم؛ إن ميكروبها يجيء طازجًا من أقصى الشرق، اليابان

والصين وكوريا والساحل الشرقي لآسيا؛ إذ إننا في لوس أنجلوس نُعتبر نهاية العالم الغربي، وليس بعدنا سوى الشرق عبر المحيط الهادي، والقادم الجديد مثلك ليست لديه مناعة ضد هذا الفيروس؛ لا بد أن تحمد الله أن أفقت منها في أربعة أيام كادت تكلفني تسعة آلاف دولار، لولا نظام التأمين الصحي، الذي تؤمن به الجامعة وكل مؤسسة، على العاملين فيها.

أجل، ماذا كان يمكن أن يقول الشيخ رفاعة، القادم من قاهرة اليوم، عن لوس أنجلوس وأمريكا؟ لا بد أنه كان بفراسته وذكائه سيُزيح جانبًا كل ما يلمحه على سطح المجتمع الأمريكي، ولا بد أنه كان سيضحك كثيرًا حين يعود إلى القاهرة، ويسمع عن ظاهرة «اغتصاب» البنات؛ لأن حوادثَ ثلاثةً قد حدثت في أماكنَ متفرقةٍ من قاهرتنا العتيدة، يضحك لأن الصحف الأمريكية خلال السنوات الأربع الماضية، والتي تم فيها إبلاغ البوليس، كانت مليونًا ونصف مليون أنثى اغتُصبت، من الأطفال إلى سن الشيخوخة، وهذه هي الحالات التي وصل علمها إلى السلطات فقط، وأبدًا لم تطلق الصحف الأمريكية لفظ «الظاهرة» على هذا العدد المهول، وإنما بقيت في عداد الحوادث اليومية العابرة التي لا بد أن يحفل بها أي مجتمعٍ صناعي أو في طريقه إلى العصر الصناعي، كما هي حالتنا الآن.

لا بد أن الشيخ رفاعة كان سيقف موقف المتأمل من مجتمعنا نحن وليس من أمريكا؛ فالحقيقة أننا ليس كثيرًا وإنما دائمًا ما نحيا عصرًا بتفكير عصرٍ سابق، فتصوَّر أننا ممكن أن نحدث إصلاحًا زراعيًّا، ونهضةً صناعية، وتغييرًا لعلاقات الإنتاج، ثم نغير هذا التغيير من مجتمعٍ شبه اشتراكي إلى مجتمعٍ رأسماليٍّ صناعي، ومن مجتمع لم يكن أحد يجرؤ على الهجرة منه، وإنما كانت الهجرة إليه، إلى مجتمع هاجر منه مئات الآلاف، ويُصدِّر العمالة البشرية للدول المحيطة بطريقة لم تحدث في تاريخه، ويغيب منه أربعة ملايين شاب ورجل وزوج على الأقل، تاركين عائلات تتلقى النقود، ولكنها تفتقد الأب والمربي الحامي. نتصور أن يحدث هذا كله ونظل نحيا «بأخلاق القرية» أو بتقاليد عصر كان عدد المصريين فيه ربع العدد الحالي وحياتهم مستتبة، ما أقل ما كان يحدث فيها من تغيير، كانت الوزارة تستمر أحيانًا ثلاثة عشر عامًا برئيسٍ واحد ومجلسٍ واحد دون أن يثير هذا شيئًا من دهشة أحد. في العام الذي أخذتُ فيه الابتدائية كان عدد المتقدمين للامتحان خمسة آلاف تلميذ، اليوم عددهم يربو على المليون! نتضاعف عشرين مرة، ونبقى على نفس النمط من التفكير وعلى شاكلة التصرف؟

هذا هو المستحيل بعينه.

إن بلادنا تمرُّ بفترة مخاضٍ عسير، نعاني آلامه النفسية والبدنية الهائلة، ميلاد سينشأ عنه مجتمعٌ آخر غيرنا الآن، وغير ما كناه في الماضي؛ فالماضي لا يعود أبدًا، والزمن لا يتوقف، والحياة هي التغير المستمر، وهو تغيرٌ دائمًا إلى الأرفع والأفضل، حتى وإن بدا — خاصة وهو يحدث أمام أعيننا — تغيرًا إلى الأسوأ. وما نشاهده اليوم في حياتنا من تغير في القيم والأخلاق والتصرفات والعلاقات، ونذهل له في أحيان، لو وضعناه في منظوره الصحيح، لا أقول لتقبلناه، معاذ الله! وإنما أقول لقلَّت دهشتنا له، ولأخذناه مأخذًا علميًّا جادًّا، ودرسنا أسبابه الحقيقية وأبعاده العلمية والنفسية والحضارية، ولما فكرنا لثانيةٍ واحدة أن يكون منع جرائم الاغتصاب بإجراءٍ عامٍّ نُعيد فيه المرأة إلى البيت بالقوة، ونضعها خلف ستائر الحريم والحرملك. لقد انتهى عصر الحريم والحرملك إلى الأبد، وخرجت امرأة المدينة، مثلما خرجت زميلتها امرأة الريف من آلاف السنين، إلى الحقل، وإلى العمل، وإلى مسئوليتها كإنسانٍ كامل لا يقلُّ حصانة وحصافة وتعقُّلًا وتأدُّبًا عن الرجل.

أعتقد إذن، أن شيخنا رفاعة كان، مثله مثل أي مصريٍّ صادقٍ مخلص، سينظر إلى مجتمع كالمجتمع الأمريكي نظرةً علميةً موضوعية، لا يتعالى عليها، ويقول: ما دام ذكر أمثال هذا المجتمع لم يرد في كتب الأقدمين، فلا مناص أمامنا إلا أن نرفضه تمامًا ونتحصَّن ضده، ونحارب علمه وفنَّه وثقافته.

إن ما يستحق محاربته في المجتمع الأمريكي ليس هو ذلك المجتمع، وإنما إدارة هذا المجتمع بطريقةٍ عدوانية، بحيث تحوَّل هذا التقدم الهائل إلى قوًى تكبت الشعوب في أمريكا اللاتينية والشرق الأوسط، وتقف بجوار الديكتاتوريين، وضد التطور والتقدم، وتساعد على انتشار التعصب والجهل والخرافات، وتحاول أمركة العالم الثالث؛ لضمان ولائه وموارده ومحصولاته ونفطه.

أهذا الموقف وتلك السياسة شيءٌ حتمي من خصائص الرأسمالية، حدثت في أوروبا وتلقفتها أمريكا، وطورتها حتى وصلت بها إلى ما يحدث اليوم؟

أم إنها خاصيةٌ أمريكية بحتة؟

وإذا سلمنا بهذا، فهل من الممكن أن نتعلم — نحن الشعوب المغلوبة على أمرها في العالم الثالث — من هذا المجتمع الذي يصرُّ على قهرنا؟ أم نرفض ذلك المجتمع جملة وتفصيلًا، ونرتد محاولين دراسة مجتمعاتنا في جملة حياتها النقية الإسلامية الأولى؟

من حسن الحظ أني عدت إلى القاهرة فوجدت النقاش حول هذا الموضوع مشتعلًا، ووجدت أزهريًّا عبقريًّا آخر قد تصدى بشجاعة للإجابة عنه. ذلك السؤال الذي دوَّى صوت

رفاعة رافع الطهطاوي به، وظل يدوِّي، وجد «خالد محمد خالد» يردُّ عليه بعد مائة وخمسين عامًا من الصدى.

ولكن ذلك حديثٌ آخر.

عشتَ يا أزهر.

غداء في الحادية عشرة مساءً

كان موعدي على الغداء مع الدكتور جورج صباغ، رئيس مركز دراسات الشرق الأدنى وحضارته، في الثانية عشرة ظهرًا تمامًا، وقد عرض الرجل بكرمه المعهود أن يمرَّ عليَّ بسيارته ليصحبني إلى مركز هيئة التدريس (وهو ما يقابل نادي هيئة التدريس هنا، ولكنه موجود في قلب الجامعة)، غير أني شكرته، وذكرت له أني أريد أن أكتشف الطريق إلى الجامعة بنفسي، وكأنني بمجرد وصولي إلى باب الجامعة، سأستطيع الوصول إلى النادي بلا مشقة، ولكني كنت واهمًا؛ فلقد ظللت أسير في شارع «ولشير» المؤدي إلى شارع «هيلجارد» حيث يوجد أقرب مداخل الجامعة؛ أقربها إليَّ حيث كنت. الجامعة لها عشرات المداخل، بلا حراسة أو حرس أو عربات أمن مركزي قريبة. ظللت أسير وأسير، والشارع يبدو وكأن لا نهاية له. ناطحات السحاب مدكوكة على الجانبين دكًّا دكًّا، عماراتٌ مهيبةٌ شامخة بُنيت بإسرافٍ شديد في المتانة والضخامة، ورغم ازدحامها فإنك تحسُّ أنها بدأت تتنفس، حولها فراغات غالبًا مزروعة، تقطعها الشوارع العريضة وإشارات المرور الكثيرة، فتحسُّ رغم ازدحام كل شيء بسيارات ومبانٍ وبشر، إلا أنه ازدحامٌ مكدَّس، ازدحامٌ منظَّم؛ تحسُّ أن هناك «بلدية» ومجلسًا وعقولًا خططت المدينة، ونفَّذت، وبكل صرامة ودقة. وعلى العموم فإن من حسن حظ أمريكا أن مدنها كأنها تقريبًا بُنيت في أوائل القرن العشرين، ولم تمرَّ بالعصر القبلي أو الإقطاعي أو حتى الصناعي الأول للمدن، بل وُجدت مباشرة في عصر السيارة فصُنعت لتلائمها؛ ولهذا فالسيارة جزء لا يتجزَّأ، ليس من الحياة الأمريكية، ولكن من الطبيعة نفسها، ظللتُ أسير وأسير، وأسأل عن شارع هليجارد، فيقولون لي: إنه على بُعد بضعة «بلوكات» أمامك. «والبلوك هو الوحدة الأساسية لتكوين الشارع هنا»؛ إذ بين كل بلوك وبلوك يوجد شارعٌ فرعي. يقولون بضعة بلوكات وأسير وأسير، وألهث. وقد سرت ما لا يقل عن عدة كيلومترات، والتفتُّ بحثًا عن سيارة تاكسي تنقذني من هذا العذاب؛

فاكتشفت أن مدينة لوس أنجلوس لا يوجد بها تاكسيات أبدًا، ولا حتى أمام الفنادق، وكل التاكسيات مركزية ولا سلكية! وما حاجة هؤلاء الناس إلى تاكسيات، وكلٌّ منهم يمتلك أو يؤجِّر سيارة، بل في معظم الأحيان كل فرد من أفراد العائلة يمتلك سيارة؛ فالسيارة هنا أهم من البيت؛ إذ تستطيع أن توقفها في شارعٍ جانبي وتبيت فيها إذا أعجزك البيات. «وقد اكتشفتُ أن الطلبة الفقراء في الجامعة يفعلون هذا»، ولكن بدون سيارة، أنت متصبِّب عرقًا مثلي، زائغ النظرات، تبحث عن تاكسي متطلعًا إلى السماء، وكأنما أصبحت الناطحات تطبق على أنفاسك فيضيق منك الصدر. حتى البنوك، أجل البنوك؛ مئات البنوك يحفل بها الشارع، يضع أصحاب البنك همهم في واجهته؛ ليجعلوها أفخم ما تكون، وأرصن ما تكون، وأكثر قدرة على اكتساب ثقة المودعين. وحين سألت ذات مرة صديقًا لي عن حكاية البنوك الفاخرة تلك وضخامة مبانيها؛ ذُكر لي أن البنك في العادة لا يحتل إلا طابقًا واحدًا من طبقات البناية، ولكنه هو الذي يقيم المبنى، ويؤجِّر معظمه بعد هذا؛ مكاتب ومساكن بلافتات توهمك أن مكاتبه هو هي التي تحتل كل المبنى، «لماذا لا نفعل هذا في مصر؟ ونطلب من كل بنكٍ عام أو استثماري أن يقيم مبناه الخاص بدلًا من أن يزاحم المواطنين في تأجير المباني والشقق، على الأقل يستثمر شيئًا من حصيلة إيداعاته على هيئة مبنى، يعود بالنفع على بلادنا المسكينة.»

بعد عناءٍ كثير وصلتُ إلى أول مدخل للجامعة، ولأن هناك كشك استعلامات يديره ويعمل فيه طلبة الجامعة أنفسهم، سألت فقالوا لي: إن هذا المدخل يفضي إلى كلية الطب والمستشفى الجامعي، وعليَّ لكي أصل إلى مركز هيئة التدريس، إما أن أخترق الكلية والمستشفى فأصبح داخل الحرم الجامعي، وإما أن آخذ الشارع الموازي لأصلَ إلى مدخلٍ قادم، وحين سألت عن المسافة إلى المدخل القادم، قالت لي الطالبة الصينية الملامح: بضعة أميال. بضعة أميال! لي أنا القادم «محطم الخطوات» من شارع «ولشير»! لا يا فتاتي، سأخترق كلية الطب والمستشفى، وأصل إلى الحرم الجامعي من أقرب الطرق، قلتُ هذا لنفسي، ولم أقله لها لسوء الحظ؛ حظي! فما حدث أني فقدت طريقي تمامًا داخل أكبر مستشفًى جامعي رأيته في حياتي «واتضح فعلًا أنه كذلك»، إلى درجة أنهم يُعلِّمون طرقاته بخطوطٍ ملوَّنة، فإذا أردت الذهاب إلى الاستقبال عليك باتباع الخط الأصفر، والحوادث الخط الأحمر، والصيدلية الخط الأبيض، وهكذا … والخط يُفضي من باب ممرٍّ طويل إلى باب، وتحسب أن مشوارك سينتهي عند الباب، وتفتح الباب فتجد أن الخط يواصل سيره إلى ممرٍّ آخر … وهكذا.

وأخيرًا وجدت نفسي خارج الخطوط والممرات كلها، وبالأصح خارج المبنى الرئيسي العلاجي للمستشفى، وأصبحت في كلية الطب، أدركت هذا من أسماء الأقسام غير الإكلينيكية.

وحين كنا طلبة في كلية طب قصر العيني (أي من ألف سنة) كانت الأقسام غير الإكلينيكية لا تتعدى أقسام التشريح، وعلم وظائف الأعضاء، والأقرباذين، والكيمياء الحيوية، ستة أو سبعة أقسام. هنا وجدت شجرةً طبيةً أخرى، ذات أفرع وأغصان وثمار لا علم لنا بها بالمرة؛ قسم الطب النووي، أبحاث السرطان، أبحاث ضغط الدم، زرع الأعضاء، الميكروبيولوجي (أي علم الحياة الميكروسكوبي) وعشراتٌ أخرى من الأقسام. وصحيح أن هذه الأسماء ليست جديدة على أي طبيب، ولو كان مخضرمًا مثلي، بل على أي مثقف، ولكن الجديد أن هذه الأقسام موجودة عندنا كفروعٍ صغيرة للتخصص داخل أقسام أمراض باطنة أو جراحة أو كيمياء حيوية، وليست أقسامًا مستقلة هذا الاستقلال الراسخ الكامل.

سرتُ حتى لم أعد أستطيع السير، ليس من قبيل المبالغة ولكن من قبيل الحقيقة والواقع، وبصعوبةٍ شديدة أمكنني أن أقف، ولو تركتُ العِنان لنفسي لارتميتُ فوق الحشائش المنسَّقة التي تحيط بكل مبنًى. وخُيِّل لي أني لو تحركت خطوةً واحدة لمتُّ من فرط التعب، وقلت لنفسي لماذا لا تحاول «الهتيش هايك» داخل هذا الحرم الجامعي المهيب؟ وأشرت إلى أول سيارةٍ قادمة ولم تقف، وكان هذا حظي مع الثانية والثالثة، واكتشفت السبب؛ فأنا واقف في مكان تسرع فيه السيارات في العادة، ولكي أنجح لا بد أن أصل إلى خطوط «الحمار الوحشي» المحدَّدة لعبور المشاة، حيث قانون المرور يلزم كل سائق عربة بالوقوف تمامًا عندها، حتى لو لم يكن هناك مشاة يعبرون بالمرة. وفعلًا توقفت عربة وأزاحت صاحبتها أكوامًا من الكتب كانت على المقعد المجاور، وجلست، وفوجئت أنها تُقدِّم لي نفسها، فقدمتُ لها نفسي، وطرحتُ عليها مشكلتي، فأنا تائه في الحرم الجامعي، وعندي موعد في النادي في الساعة الثانية عشرة، والساعة الآن جاوزتها بكثير، وسعدتُ تمامًا أنها ذاهبة إلى قريب من المكان، وأنها ستأخذني إليه. كانت أستاذة «هندسة وراثية». ولو كنت في حالة أطيب لاستفسرت منها عن كثير من الأسئلة التي تشغل بالي عن هذا العلم الحديث المخيف؛ ذلك الذي يستطيعون بواسطته أن يضيفوا بعض «جينات» الوراثة إلى «الجينات» الأصلية للنبات أو الحيوان؛ لتكسبه صفاتٍ لم تكن فيه؛ طولًا أو عرضًا، أو ضخامة، أو حتى قدرةً إخصابية، أو عضلية. ذلك العلم الذي يقف العالم الآن على مجرد عتباته والذي لا حدود لما يمكن للبشرية أن تبلغه إذا تمكن علماؤها منه، واكتشفوا أسرارًا

أخرى عنه تجعلهم يستطيعون أن يطبقوا اكتشافاتهم على الإنسان نفسه، بعد النجاح الفائق لتطبيقه على النبات والحيوان.

ولستُ أدري لماذا قفز إلى ذهني فجأة الدكتور زكي نجيب محمود، الذي أخطأ خطأً جسيمًا مرة حين نادى بإعمال العقل والعلم في حياتنا؛ فكادوا يحرقونه حيًّا، ولو طالوا العقاد الذي نادى بأن الإسلام دين العقل، لأخرجوه من ضريحه وأعادوا محاكمته.

والحقيقة أن الخاطر لم يقفز إلى عقلي صدفة أبدًا؛ ذلك أني أثناء ذلك الطريق الطويل الذي قطعتُه سواء خارج الجامعة أو داخلها، وأنا أشاهد العلم والعمل دائبَين جنبًا إلى جنب، كنت رغمًا عني أفكر في مصرنا الغالية ماذا حدث لها وفيها؟ وما المخرج من عنق الزجاجة التي تمر بها؛ ليس عنق الزجاجة الاقتصادي أو الثقافي أو الإنتاجي أو حتى البشري، ولكن عنق الزجاجة الحضاري. فكل ما أراه أمامي في أمريكا دليل تقدمٍ تكنولوجيٍّ هائل، تقدم وراءه قارةٌ ضخمةٌ بالغة الثراء الطبيعي، ولكنه ثراء لم يذهب هباءً وإنما تسلَّمته عقول تديره وتدبره وتوجهه وتوائم نظامها لكي ينطلق هذا التقدم رغم العوائق. إن تمسك أمريكا مثلًا بالحريات الفردية ليس نوعًا من الوجاهة، وليس حتى تقليعةً أمريكيةً أخرى، وإنما هو اقتباسٌ مباشر لصيحة الرأسمالية الأوروبية الناشئة على لسان الثورة الفرنسية «الحرية والإخاء والمساواة»؛ إذ اكتشف المهاجرون الأمريكيون الأُوَل، الثائرون على الإقطاع الأوروبي أن قيام مجتمعٍ غنيٍّ جديد لا يحدث إلا بأن تتحول شعارات الثورة الفرنسية إلى قوانين، تحكم المهاجرين الجدد، وتصبح مقدسة ذلك التقديس الذي لا يجرؤ أحد على خدشه؛ لأن الرأسمالية لا يمكن أن تنمو في ظل الديكتاتورية أبدًا، أو في ظل انعدام العدالة. فالرأسمالية يؤمن بها الفرد العادي؛ لأنه يتصوَّر أنه في ظلها من الممكن أن يصبح غنيًّا، وصاحب رأسمال، وعضوَ مجلس شيوخ، بل وحتى رئيسًا للجمهورية، فإذا وجد الطريق أمامه مسدودًا بتحكُّم فرد أو أفراد، أو أحسَّ أن فرصته غير متساوية؛ كفر بالنظام وانعدم ولاؤه. وحرية التفكير والاجتهاد والبحث العلمي والابتكار والاختراع، وحتى حرية التقاليع هي قطعة السكر التي يعطيها النظام لكل من يأتي بجديد؛ إذ ينعكس هذا الجديد على المجتمع كله؛ فالذي اخترع التليفون والسيارة واكتشف أنصاف الموصِّلات الترانزستور، لم يكن ليفعل هذا وهو مكتوف الأيدي بقوانين وآراء الأقدمين مثل نيوتن ولافوازييه وأرشميدس، لقد فعل هذا فقط لأنه أحسَّ بعمقٍ أنه حرٌّ في أن يأتي بما لم يستطعه الأوائل، حُر ليس فقط في تطوير ما قاله الأوَّلون، ولكن في الثورة التامة على آرائهم أنفسهم. ليس هناك إذن معجزةٌ أمريكيةٌ رأسماليةٌ خاصة، مثلما لا معجزة روسيةً اشتراكية أو شيوعيةً

خاصة، باعتبار أن الدولتين تعتبران اليوم أقوى دولتَين ظهرتا في التاريخ البشري؛ فهما في رأيي وجهان لعملةٍ واحدة من الحضارة الأوروبية المسيحية الحديثة، المبنية على أسس من الإبداع العربي والإسلامي والإغريقي، بل إنني لأجرُؤ وأقول: إن الماركسية نفسها ثورة داخل الحضارة المسيحية، وإن أخذتْ شكل الثورة عليها؛ فالبروستانت حين ثاروا على الكاثوليك كان البابا يعتبرهم ملحدين وكفرة، مثلما نعتبر اليوم أن الشيوعيين كفرة.

والمعجزة الحقيقية هي إعمال العقل البشري لحل مشاكل الوجود الإنساني وإتاحة الفرصة كاملة للتطور والتقدم، وإذا كان البعض منا — بافتراض الإخلاص وحسن النية — يريد أن يلغي عندنا العلم والعقل باعتبار أنهما عدوَّان لدودان للإيمان اليقيني الشامل، فإن إسلامنا الحنيف قرن العلم والعقل بالإيمان، ولم يضعهما أبدًا على طرفَي نقيض. إن أول كلمة نزلت في قرآننا الكريم كانت «اقرأ»، والحديث الشريف: «اطلبوا العلم ولو في الصين.» حديث لا يأتيه الباطل أو التشكيك من بين يديه ولا من خلفه، إنها دعوات لا تفيد إلا أعداءنا، فأعداؤنا وحدهم هم الذين يريدون أن يتعلَّموا هم ويحتكروا العلم والتكنولوجيا، ونجهل نحن به وبها، ويريدون أن يكون لهم وحدهم حرية التفكير والاختراع، ويتركون لنا مهمة أن نغلق نحن تفكيرنا بأيدينا، «نحلق» نحن عقولنا ونطلق شعورنا ليتقدموا هم ونتأخر نحن، وفي النهاية ينتصرون هم، وتحيق بنا — معاذ الله — الهزيمة، وبأيدينا نحن وليس بأيديهم.

ولكن هذا حديثٌ آخر …

فالآن، وقبيل الواحدة بدقائق كنتُ قد وصلت إلى مبنى أعضاء التدريس والغداء قد انتهى والجميع في طريقهم إلى قاعات البث والمحاضرات، ولم يعد باقيًا إلا الدكتور جورج صباغ مضيفي وبعض من أساتذة القسم، وما كدت أصل حتى سلَّمتْ عليَّ الدكتورة عفاف لطفي السيد مستأذنة؛ إذ إن ميعادها مع طلبتها قد حلَّ، رائعة تلك المصرية الشامخة الرابضة في آخر معاقل الدنيا الغربية منذ ما يقرب من الأعوام العشرين، بينما قلبها وعقلها وأحلامها مع مصرنا العربية الحبيبة.

استقبلني الدكتور جورج بضحكةٍ عربيةٍ عراقيةٍ صافية؛ إذ هو من أصل عراقي، فالتأخير ساعة عن موعد غداء ليس جريمةً كبرى في عالمنا العربي، وإن كان التأخير خمس دقائق هنا كارثة، وحين أخذت أحكي مغامراتي للوصول، ظل الرجل يستمع لي بأدبٍ شديد، ثم فجأة أدركتُ أنهم لم يتناولوا جميعهم الطعام، وأن نظام خدمة النفس هو السائد، وأن على كلٍّ منا أن يخدم نفسه، وبسرعة؛ فساعة الغداء قد انتهت، وكل شيء محسوب هنا بدقَّة، ومحاضرات ما بعد الظهر قد بدأت من زمن.

وتكاسلتُ تمامًا في خدمة نفسي؛ فأنا لم أكن جوعان بالمرة، فمعدتي كانت لا تزال تعمل بالتوقيت المحلي للقاهرة، وكانت ساعتها بالضبط الحادية عشرة مساءً، وأبواب المعدة جميعًا مغلَقة استعدادًا لنوم القاهرة ...

نوم القاهرة!

سؤال (١)

ليعذرني الأصدقاء القراء إذا أنا أحسستُ بشيء من تأنيب الضمير؛ لاضطراري إلى إنهاء موضوع بدأته، في الوقت الذي تستفحل فيه في ساحتنا المصرية والعربية؛ قضايا هامة وخطيرة؛ تشتد عن أن يقول الكاتب، كل كاتب، رأيه فيها. ولكن ما يُعزِّيني عن هذا التأنيب المرضي للضمير، أنني في حقيقة الأمر وواقعه أخرج عن الموضوع لأدخل في الموضوع وأتحدث عن أمريكا؛ لأرى أمتنا نحن ومشاكلنا نحن. إن المشكلة في قضايانا المحلية أو العربية أنها قضايا امتدت عبر زمنٍ طويلٍ جدًّا، بالقياس إلى عمر الإنسان منا منذ صباه، وأنا واحد من جيل، من عام ١٩٤٨م إلى الآن أكثر من سبعة وثلاثين عامًا، ونحن في همها — تلك القضايا — الانشغال الدائب، نتظاهر حين كنا طلابًا، ونُعتقَل، ونُسجَن، ويُنكَّل بنا بلا سجن أو فصل، ونحن دائمًا «داخل» القضية والقضايا، إلى درجة أننا في حين نكفُّ عن رؤيتها، تصاب أنظارنا بما يسمُّونه «تعب الرؤيا» الذي قد يصل إلى حد انعدام الرؤيا.

والوسيلة لهذا دائمًا هي الخروج من الخندق، وتفقُّد العالم من حولنا، واحتدام الحوار بيننا وبين الدنيا؛ لنعود إلى الداخل وقد اكتسبنا أبعادًا ما كانت لنا، وعمقًا وقدرة على مواصلة السير. فالقضية، بل حتى معظم القضايا لا يبدو حلُّها قريبًا بالمرة، ولو كنتم معي في أمريكا ورأيتم غسيل المخ الدائم الذي حدث ويحدث، وسيظل يحدث للرأي العام الأمريكي والأوروبي من «اللوبي اليهودي» لتأكدتم أن الدور الأمريكي لمناصرة القضية العربية، بل حتى المصرية، جد محدود؛ فأمريكا بلد الدعاية والترشيحات والانتخابات، والانتخابات مجالها الإعلان والإعلام التليفزيوني والإذاعي والصحفي، وهذه كلها تقريبًا يسيطر عليها اللوبي سيطرةً شبه تامة، إلى درجة أني في لوس أنجلوس لم أكن أسمع

خبرًا في محطات الإذاعة أو التليفزيون إلا ومصدره القدس أو إسرائيل. أسطورة أرض الميعاد وشعب الله المختار أصبحت حقيقةً واقعة، يحياها الشعب الأمريكي، ويُسلِّم بها، إلى درجة أني أرقتُ ذات ليلة، وكان الوقت حوالي منتصف الليل، وفتحت الراديو فإذا بالمحطة هي المحطة اليهودية في لوس أنجلوس، وإذا بالمذيعة السيدة تقول: «لقد أذلَّنا المصريون وأسرونا وكبَّلونا بالأغلال، وهتكوا أعراض نسائنا ويتَّموا أطفالنا، ولكنا ثُرنا عليهم، وحررنا أنفسنا، وأصبحنا بهذا طليعة الأحرار في العالم.»

وحسبت أن المذيعة تتحدث عما حدث في حرب ٧٣ مثلًا، ولكن المذهل والمضحك أنها كانت تتحدث عن «الخروج» أي عن خروج سيدنا موسى وقومه من مصر، وهو الأمر الذي حدث، حسب تاريخهم هم، منذ أكثر من أربعة آلاف عام. أقول المضحك لأنها كانت تتحدث وكأن الخروج حدث بالأمس فقط، أو بالكثير في العام الماضي، وأن المصريين الذين أخرجوا قوم موسى منذ أربعة آلاف عام وفرعونهم، هم مصريو اليوم، وكأن التاريخ توقف، ونفس اليهود هم نفس اليهود، ونفس المصريين هم نفس المصريين، يحكمهم نفس الفرعون.

لا تزال هذه الصورة التي قد يضحك لها أيُّ محايد، ولا أقول صاحب القضية، هي بعينها الصورة التي يريدون تثبيتها تمامًا في عقل ووجدان، بل وعقيدة الشعب الأمريكي المسيحية؛ فكل تناقض بين المسيحية واليهودية قد زال وبُرِّئ اليهود من دم المسيح، وأصبح العهد القديم والعهد الجديد كتابًا واحدًا يُدرَّس للأطفال المسيحيين واليهود على حدٍّ سواء.

ولا أُنكر أن قطاعاتٍ كبيرة من الرأي العام الأمريكي، برغم غسيل المخ هذا أصبحت تؤمن بحق الشعب الفلسطيني في وطنه القديم وكيانه، ولكن الآلة الدعائية المخيفة لا تزال سادرة، لا يمكن لأي «لوبي» عربي مقاومتها أو النيل منها.

ولقد دخلتُ كثيرًا في المناقشات أثناء الندوات والمحاضرات التي ألقيتُها في أكثر من ست جامعات أمريكية حول علاقة مصر بإسرائيل، وحول حق إسرائيل في البقاء، وحول القضية الفلسطينية، ولم تخلُ تلك المناقشات من حدة وتطرف إلى درجة أن بعضهم كان يغادر القاعة احتجاجًا على آرائي، ولكني ما زلت أذكر ذلك السؤال الذي توجهت به إلى أستاذٍ إسرائيليٍّ أمريكي، «فهكذا أصبحوا علنا يصفون أنفسهم». كان السؤال يدور حول «أسطورة إلقاء إسرائيل في البحر»، وكان جوابي أن الذين أُلقي بهم في البحر فعلًا هم الفلسطينيون وعلى أيدي جيش «الدفاع الإسرائيلي».

وقطعت سلسلة الأسئلة التي بدأت تنهال عليَّ من بعض الإسرائيليين الأمريكيين بسؤال توجهتُ به إلى الأستاذ السائل: وماذا عن رأيك أنت في حل القضية الفلسطينية؟

وكانت إجابته غريبة حقًّا؛ فقد قال لي بالإنجليزية:

There are cases to be solved and cases that will be dissolved.

أي بالعربية: هناك قضايا «تُحل» وقضايا «تتحلَّل» أو تذوب، وكان يعني بالذوبان طبعًا القضية الفلسطينية.

وكان ردِّي عليه بسيطًا جدًّا؛ فقد قلتُ له: اسمح لي أن أقول لك إنك جدُّ مخطئ؛ فقضية فلسطين قضية شعب، ولو كانت قضايا الشعوب «تتحلَّل أو تذوب» لكانت قضية الشعب اليهودي أولى بالتحلل والذوبان خلال أربعة آلاف عام مضت عليها كما يقولون، فما بالك والقضية الفلسطينية لم يمضِ على وجودها إلا أقل بكثير من نصف قرن؟!

وتذوب أو لا تذوب، إن المواطن الأمريكي العادي في عالمٍ بعيد تمامًا، ومشاكلَ مختلفةٍ تمامًا عن مشاكلنا وعن قضايانا، وقضية مثل نيكاراجوا أو غيرها من قضايا أمريكا اللاتينية تحتل من تفكيره أضعافًا مضاعفة لما تحتله القضية الفلسطينية، رغم تعاطف كثيرين من المثقفين والكتاب الأمريكيين مع القضية، بل تعاطف كثير من أساتذة الجامعة اليهود تعاطفًا تامًّا مع حق الشعب الفلسطيني في الوجود.

ولكن السؤال يبقى: هل يستطيع هذا التعاطف المحدود أن يخلق رأيًا عامًّا في أمريكا أو في الغرب عامة، يستطيع إجبار الحكومات الغربية أو الإدارة الأمريكية على تغيير انحيازها الكامل لإسرائيل؟

الجواب بالنفي قطعًا، والتجاوب الوحيد الذي يمكن أن يحدث، لن يحدث إلا إذا تكاتف أصحاب القضية أنفسهم وصنعوا «قوة» تجد لها في العالم أنصارًا ومؤيدين، بل ومقاتلين.

إن الفلسفة التي قام عليها أكبر مجتمعٍ رأسمالي في العالم، الولايات المتحدة، فلسفةٌ واضحة كل الوضوح؛ أن لا مكان للضعيف في ذلك المجتمع، من يضعف يهلك، البقاء للأقوى، بل يبررونها علميًّا بقولهم إن هذا يعني البقاء للأصلح. وأنا شخصيًّا ممن يؤمنون أن ليس ضروريًّا أن يكون الأقوى هو الأصلح، ولكن ماذا يكون رأيي ورأي الكثيرين غيري إذا كان الأقوى هو الذي يصنع الأمر الواقع ويفرضه. إن وسليتنا إذن لفرض الأصلح هو أن نعتنق نفس المبدأ؛ إذ لو بقينا على حالنا من الضعف والتشتُّت، رغم فرض صحة رأينا وإنسانية دوافعنا، فسيسري قانونهم هم حتمًا، وبالقوة، يصير الأمر واقع حياة ووجودًا لا يزيلهما شيء.

إن الحديث عن أمريكا أمرٌ يطول وفي حاجة إلى كتب وليس إلى بضعة مقالات، بل في الحقيقة نحن في حاجة إلى مراكز للدراسات الغربية والأمريكية مثلما أقام الأمريكيون والأوروبيون مراكز لدراساتنا نحن، ودراسة الشرق الأوسط، شريطة أن تكون هذه المراكز مراكزَ وطنيةً فعلًا؛ فعلاقتنا بأمريكا وأوروبا علاقةٌ مفروضة علينا فرضًا، ونحن لا نعرف عنهم الكثير، بينما يعرفون هم عنا تقريبًا كل شيء، ابتداء من النكت إلى الأسرار الخاصة بالحكام والفنانين، وحتى كبار الضباط في الجيوش العربية.

مراكزُ هامةٌ لنا تمامًا، فنحن تجاه العالم الغربي في حالة مواجهة في أقل قليلها مواجهة حضارية، لن نصمد لها، ولا أقول ننتصر عليها، إلا بأن نفعل كما فعل الوالي الأمي العظيم محمد علي، وكما فعلت اليابان بعده؛ أن نأخذ من أمريكا وأوروبا كل تكنولوجياتهما، ونتعلَّمها ونهضمها، وأن نُبقي ونقوِّي ثراءنا نحن الروحي والوطني والحضاري، ومن هذا المنطق وحده نستطيع أن نوجد في العصر الحديث. بل قد نستطيع إذا فعلنا مثل اليابان أن ننتصر، ففي أسبوعي الأخير في أمريكا كان الحديث الدائر في الصحف حول اختلال ميزان المدفوعات بين أمريكا واليابان لصالح اليابان بعدة مئات من مليارات الدولارات، وكانت الإدارة الأمريكية هي التي «تسعى» لعقد اجتماع مع رئيس الوزراء الياباني، لتلتمس منه الشفقة على الاقتصاد الأمريكي بقبول استيراد البضائع الأمريكية، مقابل سيل البضائع اليابانية الذي يغرق السوق الأمريكية؛ من السيارات إلى الإلكترونيات إلى كل شيء قابل للاستعمال البشري. إن اليابان قد هُزمت عسكريًّا أمام أمريكا في الحرب العالمية الماضية، ولكن «روحها لم تنهزم»، بقي التحدي الحضاري والبشري عندها سليمًا لم يمسَّ، حتى في ظل الاحتلال الأمريكي وقوانينه التي كانت تهدف إلى سحق الرأسمالية اليابانية، فقد فرضت سلطات الاحتلال الأمريكية على اليابان ألا يزيد رأسمال أي شركة تقوم بعد الحرب على ألف دولارٍ أمريكي، ولكن الدأب وروح التحدي، جعلت هذه الشركات الصغيرة تستطيع أن تُصنِّع طائرات تتكلَّف ملايين الجنيهات، دون أن تخرق معاهدة الاستسلام؛ إذ كان كل مصنع تكفَّل بصنع قطعةٍ صغيرة من المحرك أو جسد الطائرة، ثم تجمع كل هذه على هيئة طائرة. وصناعة الترانزستور في اليابان التي كانت شركة «سوني» البادئة بها، قامت كلها برأسمال قدره عشرة آلاف دولار، اشترى بها صاحب الشركة حق استغلال الترانزستور من صاحبه الإنجليزي أو الأمريكي لا أذكر، وبالترانزستور وبأيدي فتياتٍ يابانيات رفيعة الأصابع تطورت هذه الصناعة إلى هذا الحجم الهائل، الذي حسبته مرة فوجدت أن قريتنا

في الشرقية وحدها اشترت بضائع يابانية ثمنها لا يقل عن مائة ألف دولار. قريةٌ واحدة في دولةٍ واحدة من دول العالم التي تزيد على المائة وثلاثين دولة. الانتصار ممكن إذن إذا كانت الشخصية الوطنية لم تقهر أو تنهزم داخليًّا. فاليابان انتصرت هذا الانتصار الساحق بشعب كان يعيش على الجفاف وخارجًا من حربٍ ذريةٍ مدمرة، ولكنه حافظ تمامًا على ملامحه القومية كاملة، بما فيها عبادة الإمبراطور التي كانت جزءًا من هذه الملامح. ونحن المصريين العرب لا نحيا على كفاف، وإن كنا قد دخلنا حروبًا فإنها بكل ما فيها من شهداء وضحايا لم تؤثر في مجمعنا الكلي، ونعبد الله سبحانه ولا نعبد سواه، ولكن الشخصية القومية، هي التي كانت في حاجة إلى قوةٍ داخلية تصمد للتحدي، وما يحدث على الساحة العربية الآن خير شاهد، وأعداؤنا واعون بهذه النقطة تمامًا؛ فهم يريدون للفكرة الوطنية القومية أن تنمحي حتى ولو بمساعدة التطرف والتعصب، مهما كان دين حامله أو عقيدته.

ثلاثة أشهر مضت كاللمحة لكثرة ما رأيتُه وسمعته وقلته؛ فآلة الحياة في أمريكا رهيبة، وأنا أنتقل من سرعة أتوبيسات الأرياف في بلادنا إلى سرعة الانفلات من الجاذبية الأرضية التي يحيا بها الناس هناك، أحتاج إلى أن أستعمل كل ما أمتلكه من قدرة على الإدراك والذكاء والمسئولية عن النفس، استيقظت فيَّ حواسُّ صدئت من قلة الاستعمال في قاهرتنا الطيبة، وجربت الاعتماد الكامل على الذات في مجتمع يحيا تسعةُ أعشاره معتمدين على عُشره، وكان مفروضًا أن أفتح للقارئ الحياة هناك؛ الأسرة، الشباب، المرأة، الإحساس الكامل بالذات، والرغبة العارمة في التفرد والاستقلال، تلك التي تؤدي إلى الفردية المطلقة، المختلفة تمامًا عن العائلية، والشللية والقبائلية التي نحيا بها هنا.

كنت أودُّ هذا، لولا أنني أحسُّ بواجباتٍ أخطر، بعد تلك الغيبة الحافلة والحديث الطويل عن الآخرين.

كل ما في الأمر أني قبل أن أُنهي هذه السلسلة، أود أن أُوجِّه رسالة إلى الأمريكيين أو بالأصح إلى الحكام الأمريكيين، أولئك الذين تركتهم يرصدون آلاف المليارات من الدولارات لما يسمى «حرب الكواكب» أو القدرة على ضرب الصواريخ السوفييتية في مواقعها، قبل أن تنطلق لتصيب الأهداف في أمريكا، إن الإدارة الأمريكية تسمي هذه العملية عملية السلام، أي سلام هذا؟! إن أمريكا إذا وصلت إلى هذه القدرة، فحتى لو كان يحكمها ملائكة لاستعملوها فورًا في هزيمة المعسكر الآخر، إذا كان قد تخلَّف عن إيجاد السلاح المضاد.

أريد أن أقول للشعب الأمريكي إن أمريكا ليست في حاجة إلى احتلال الكون أو ردعه والتدخل في الشئون الداخلية للدول الأخرى، فهي تملك ثلاثة أشياء، تنفرد بها، ويحتاجها العالم إلى درجة أنه مستعد أن يجثو أمامها ليحصل عليها:

أولها: القمح، أي الخبز.

ثانيها: الطاقة أي البترول.

ثالثها: الأسرار التكنولوجية العليا.

هذه الأسلحة الثلاثة تنفرد بها أمريكا وتملكها، ويحتاجها العالم أجمع بما في ذلك الاتحاد السوفييتي والعالم الثاني والثالث، تستطيع أمريكا أن تتحكم في علاقتها بالعالم من خلالها بغير حاجة إلى جيوش وقوات انتشارٍ سريع وبطيء وبغير حرب نجوم أو كواكب أو مجرات. وإذا انصرفت أمريكا الغنية القوية إلى تطوير هذه الأسلحة العلمية السلمية؛ لأصبحت بها أقوى وأكثر إنسانية وحضارة، فلقد شاهدنا طويلًا عصر «القوة» الأمريكية التي أحيانًا تكون مصيرها الهزيمة الساحقة كما حدث في فيتنام ولبنان، أفلا يمكن أن نحيا لنرى عصر «الحضارة» الأمريكية الحقيقية؟ أم أن القوة هي شيطان الدول والإمبراطوريات، التي توسوس لها دائمًا بالرغبة في القوة الأكثر والأبشع والمؤدية بها حتمًا للتحلل والهلاك؟

أكبر الظن أن سؤالي سيقف معلقًا لفترةٍ طويلة جدًّا قادمة، إنما المهم، علينا نحن ألا ننتظر إجابة لهذا السؤال.

أمر بالستر وليس بالتستر

في الحقيقة أُصبت بما يُشبه الذعر وأنا أستمع — ضمن نشرة الأخبار — إلى آخر أنباء الفضيحة الأخلاقية أو بالأصح الجريمة الجنسية، التي كان يذيعها التليفزيون الأمريكي بالصوت والصورة والتعليق، وحسبت أنها أول مرة تُذاع، ولكنني حين ناقشت الأمر مع كثيرين اتضح أن ما أُذيع كان أحدث جريمة اكتشفت أو بالأصح الجريمة الخامسة؛ إذ منذ بضعة شهور اكتشفت السلطات في ولاية كاليفورنيا أن عددًا من مدارس الأطفال العامة والخاصة تُرتكب فيها جرائمُ جنسية تقشعر لها الأبدان؛ إذ يقوم المدرسون والمدرسات، وأحيانًا مديرات المدارس والنظار، بالاعتداء الجنسي على الأطفال من الثامنة إلى الثانية عشرة، بنين وبنات، ويقومون بتصوير أفلام لهذا الاعتداء يهددون بها الأطفال إذا هم أخبروا أحدًا من أهلهم بما يحدث، بل الأدهى كانوا يجعلون الأطفال يعتدون بعضهم على البعض، ويصوِّرون هذا في أفلام فيديو، بعضها كان يُباع في السوق بأسعارٍ خيالية.

الخبر الذي سمعته — أول ما سمعت — كانوا يقولون إن الأطفال المعتدَى عليهم قد ذكروا أن المدرسات والمدرسين كانوا يقومون بذبح حيوانات وطيور أمامهم، وتهديدهم بأنهم إذا أبلغوا عنهم سيذبحونهم هم أيضًا كما تُذبح الحيوانات ... ودارت كاميرات التليفزيون تبحث في أرض ملاعب وحدائق المدارس، عن عظام الطيور والحيوانات المدفونة في أرضها لتُقدَّم كأدلة اتهام.

أما المؤلم حقًّا فهو مشهد بعض الأطفال الذين يؤخذون للشهادة في المحكمة، وكيف يوضعون في مقاعد تحملهم إلى قاعات العدالة، أطفال في عمر الزهور يحاولون عبثًا إخفاء وجوههم عن كاميرات التليفزيون، وينتقل الخبر التليفزيوني بعد هذا إلى محامي المعتدين (٢٩ مدرسًا ومدرسة ومديرًا ومديرة في خمس مدارس على مدى ستة أشهر) الذين يُشكِّكون فيما يذكره الأطفال ويقولون إن الخيال عند الأطفال يختلط في كثير من الأحيان

بالحقيقة، ويستشهدون بالاستجواب المثبوت في أشرطة الفيديو، والتي تخبط الأطفال في أقوالهم، ثم ينتقل الخبر إلى مواطنين عاديين يسألهم عن رأيهم في تعريض الأطفال «لهول» المحاكمة وأثرها على شخصياتهم بعد هذا ومستقبلهم، ويأخذون آراء أطباء نفسيين وعلماء تربية ... إلى آخره.

أقول أُصبت بما يُشبه الذعر؛ لأن خيالي قد انتقل بسرعة إلى بلادنا وتصوَّرت ماذا قد يكون رد الفعل لو عرض تليفزيوننا المصري أو العربي شيئًا كهذا، بفرض إمكان حدوثه على مستوى الواقع، أو إمكان حدوثه على مستوى العرض الإخباري في التليفزيون والإذاعة والصحف.

وقادني هذا التفكير إلى مسألةٍ خاصة من خواص المجتمع الرأسمالي، لا بد أن نضعها في الحسبان. ذلك أن حرية الصحافة وحرية الرأي، وحرية نشر الأخبار — كافة أنواع الأخبار مهما كان شخص بطلها أو مرتكبها، حتى ولو كان مثل نيكسون رئيسًا للجمهورية — هي القاعدة والأساس. فالرأسمالية باعتبارها قائمة على المنافسة الحرة التي لا رحمة فيها ولا هوادة، خاصة في مجتمعٍ أمريكي غير متجانس العناصر تكوَّن من مهاجرين من مختلف أنحاء العالم وإن كان معظمهم أوربيو الأصل؛ هذه المنافسة المسعورة التي لا يحكمها إلا قانون «أنا الأغنى؛ فأنا الأقوى» ممكن أن تفكك المجتمع تمامًا حتى يصبح مجرد أفراد حتى داخل العائلة الواحدة، مجرد أفراد متطاحنين لو استطاع الآخر أن يذبح منافسه لذبحه، ولو استطاع أن يدبر له جريمةً لدبرها، مجتمع كهذا كان ممكنًا أن يصبح غابة من المتوحشين لو لم يعامل التوحش الإجرامي، الذي تطلقه المنافسة، بقواعدَ حاسمةٍ باترة، وقانونٍ جنائي لا يرحم، وحرية لا حدود لها في كشف كل مستور أو مخبوء، ومعارضة كل ما قد يسود، وآراءَ حرةٍ من كل قيد أو مصلحة تُعيد للمجتمع اتزانه وضميره، وتُعادل التنافس الوحشي بتذكير المتنافس أنه يحيا في مجتمعٍ بشري، وأنه أبدًا ليس في غابة يستطيع أن يفترس فيها من يشاء وما يشاء.

ولهذا بعد الذعر الأول أخذتُ أفكر في الموضوع من زاويةٍ أخرى، فلو كان شيء كهذا قد حدث في مجتمعنا — لا قدر الله — لاستنكر الكثيرون إثارة هذا الموضوع بتلك الطريقة العلنية البشعة، باعتبار أن «ربنا أمر بالستر» و«إذا بُليتم فاستتروا» ومع أن المقصود من المعنى هنا أن الإنسان إذا أراد أن يخطئ أو يفسق فعليه ألَّا يفعل هذا علنًا حتى لا يُقلِّده الآخرون، فإننا — شعبيًّا نستعمله لكي «نكفي على الخبر ماجور» حتى لا تفوح رائحته. وتلك الأمثلة والأعراف والتقاليد هي من خصائص المجتمع الزراعي أو الإقطاعي، باعتبار

ما كنا، وباعتبار ما نحن لا نزال عليه. وتلك الخواص نفسها التي ارتكزت عليها السلطات في الماضي «لكَفْي الماجور» على كل فضيحة، سواء في الحكم أو في استغلال النفوذ، أو في السرقات والثراء الفاحش، أو في الأخطاء والجرائم الاقتصادية والسياسية والعسكرية التي حاقت بنا. أما وقد بدأنا العصر الانفتاحي الذي لا أوافق أبدًا على تسميته بهذا الاسم، وإنما أفضِّل أن أسميه باسمه الحقيقي الذي نتدارى خجلًا منه، وهو العصر الرأسمالي، الذي لا تحلُّه قوانين الرأسمالية نفسها؛ فغلاة الدول الرأسمالية لا تسمح بتحويل ودائع ومدخرات مواطنيها، ولو كانت بالعملة الصعبة إلى البنوك الأجنبية، دون قيد أو شرط، وبأي كميات؛ فهذا ليس فقط استنزافًا للثروة القومية، ولكنه سرقةٌ واضحة لجهود وعرق المصريين؛ إذ المصري الثري لم يأتِ ثراؤه من فراغ، وإنما من كد وكدح جموع المصريين والعاملين معه وعنده، وهو مجرد مثلٍ واحد للرأسمالية، التي نهلل لها، ونفرح الآن برفع أي قيود أو قوانين تربط حلقة الاقتصاد المصري المفكوكة.

إذ نحن في مجتمع رأسمالي قد فُتح على آخره، ولكنها «ضلفةٌ» واحدة هي التي فتحت فيه، ضلفة الحرية الكاملة للرأسمالية، أو بالأصح الحرية الكاملة لتهريب رأس المال أو استيراد ما نشاء من كماليات ومخدرات، أما «الضلفة» الأخرى فنحن حريصون على إبقائها مغلقة تمامًا؛ لأنها «ضلفة» تفتح إلى الداخل، وتقيد الداخل؛ تلك التي تكمل اللعنة الرأسمالية، فما دمتم تريدون أن تلعبوا رأسمالية فلنلعبها وبقواعدها الكاملة المستوردة تمامًا من أمريكا؛ النموذج الأمثل للرأسمالية في نظركم.

ما علاقة هذا كله بالفضيحة الأخلاقية أو الجنسية التي بدأتُ بها هذا الحديث؟ العلاقة جِدُّ وثيقة؛ فلا يمكن إقامة مجتمعٍ رأسمالي إلا بقوانينَ صارمة، أولها قانون معرفة الحقائق، كافة الحقائق أو المعلومات عن الثروات. فاللص في المجتمع الرأسمالي لا يفعل كل هذا — في رأيي — بضميرٍ كامل الراحة، ثمة شيء في نفسه يجعله دائمًا يحسُّ أنه خارج عن الناموس الطبيعي للحياة وكسب العيش، بعضهم يموت لديهم هذا الشعور، وبعضهم يقول لنفسه: حين تصل ثروتي إلى كذا سأذهب وأحج وأتوب إلى الله. وبعضهم تتولَّاه العناية الإلهية ويرتد من تلقاء نفسه ويقظة ضميره، ويبدأ ينفق كثيرًا مما جمعه، في أوجه الخير.

لكن المجتمع الذي يترك المجرم لضميره فقط ولتوبته أو عدم توبته، مجتمعٌ مقصر لا يقوم بواجبه، مجتمع لا بد من محاكمته هو على أخطاء أو جرائم أفراده، وثمة آيةٌ كريمة في قرآننا تقول: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ … بمعنى أننا حين نقتصُّ من

قاتل إنما نمنع أن يَقتل آخرون ومن ثم يُقتَلون، ولكن القصاص يقوم به المجتمع نفسه — وليس الفرد أو العائلة، كما في صعيدنا الساخن — يقوم به بقوانينه الرادعة وبأجهزة أمنه وقضائه وعلنية محاكماته، وحق المجتمع في معرفتها والاطلاع على أدقِّ تفاصيلها، بل إن بعض المجتمعات الأوروبية والأمريكية تدخل المواطنين العاديين «محلِّفين» أي قضاة يمثلون ويصدرون هم الحكم بالإدانة أو البراءة، وعلى القاضي أن يكيِّف تنفيذ الحكم الذي أصدره المجتمع؛ فالمجتمع هو القاضي الأول.

كم تألمتُ للأطفال وهم يساقون أمام عدسات التليفزيون للشهادة، وسماع أقوالهم كمعتدًى عليهم! وكم اعتصرتُ عقلي لأتصور ما سوف تؤدي إليه تلك المحاكمات (التي من المنتظر أن تستمر عدة سنوات لضخامة عدد المتهمين والشهود)! والجانب الشرقي فيَّ يستنكر بشدة هذا الذي يتعرض له هؤلاء الأبرياء في مجتمع لا يعاني — مثل مجتمعاتنا — من مشاكلَ جنسيةٍ حادة أو من كبت — وإنما الزواج والطلاق والصداقة والعلاقات بين الرجال والنساء وبين الشبان والفتيات لا تحدها قيود إلا حرية الاختيار والانتقاء؛ حرية كان المفروض فيها أن تقضي على كل أنواع الشذوذ والانحرافات، ولكن يبدو أن المسألة أعقد من هذا بكثير، وأن لكل مجتمع — كما لكل فرد — أمراضه. فالمجتمعات الفقيرة المتخلِّفة لها أمراضها، والمجتمعات المتطوِّرة تكنولوجيًّا وصناعيًّا لها أمراضها مثلما للفقير أمراضه وللغني أمراضه. كل ما في الأمر أن الفقير أمراضه أنيميا وناتجة عن نقص الغذاء والدواء، والغني أمراضه ناتجة عن كثرة الغذاء والدواء.

كم تألمتُ! ولكن ما خفف ألمي هي تلك الفكرة التي طرأت لي: ماذا لو كانت وسائل الإعلام والسلطات قد «كفت على الخبر ماجور» مثلما فعلت بعض أجهزتنا في قضيةٍ جنسيةٍ أخيرة حدثت عندنا؟ ألن تكون النتيجة أن يستشري المرض؟! وبدلًا من المدارس الخمس، تصبح بالكتمان خمسين ومائة وما لا يُعدُّ، وبدلًا من عشرات الأطفال آلاف، وعشرات المدرسين والمدرسات والمديرات مئات؟

وهو بالضبط نفس الموقف الذي يجد فيه الطبيب نفسه حين يدرك أن المريض يعاني من «غرغرينا» في القدم، أيسكت الطبيب؟ أم يعرِّف المريض بحالته ويواجهه بضرورة بتر القدم حتى يبقى الجسد، ويبقى الإنسان نفسه سليمًا معافًى؟

إن حرية النشر والتحقيق والمحاكمة وإبداء الرأي هي الوسيلة التي وجدها المجتمع الرأسمالي ليظل مجتمعًا صحيحًا أو شبه صحيح، يعالج نفسه بنفسه، ويُخرِج صديده حتى لا يُصاب جسمه كله بالتسمم، ولا توجد وسيلة غيرها.

حتى لو عدنا بالمجتمع إلى بدائيته الأولى، إلى حيث كان المجتمع البشري شقيقَين قتل قبيلهما هابيلهما …

وإذا كانت الصيحات في مجتمعنا ترتفع بتطبيق الشريعة الإسلامية، فأنا آخذها على محملٍ آخر، فإذا كانت الشريعة هي العدل المطلق، فهي في أساسها دعوة لتطبيق العدل والعدالة، دعوة لأن يسود العدل والعدالة، دعوة لكشف كل انحراف، وفضح كل جريمة، ومعاقبة كل مسيء أو زائغ أو مجرم، دعوة لفتح «الضلفة» العادلة من الباب المفتوح، وقد نتفق أو نختلف حول الصيغ التي تلائم حياتنا المعاصرة، فلا يعقل أن نقطع يد سارق القروش الخمسة، ولا نستطيع أن نقيم الحد على سارق الخمسين مليونًا.

ولكن تلك قضية أخرى.

كل ما في الأمر أننا لا بد أن نناقش على أوسع نطاق، وأن يسكت هذا الإرهاب الفكري السائد، والذي يحكم على كل مجتهد في التفكير بالخروج عن زمرة الإسلام والمسلمين.

فالإرهاب وبالذات الإرهاب الفكري السائد عندنا باسم الدين، إرهاب أناس يتوهمون أنهم يحتكرون وحدهم حق التحدث عن الإسلام والمسلمين، وما لا يجب وما يجب، وهذا الإرهاب نفسه هو عدو العدالة الأول وبالتالي عدو الإسلام.

فالله — سبحانه — هو العدل.

ومن العدل، أبسط مبادئ العدل، أن تقول إذا سمعت، وأن تسمع حين يقال …

وتبخَّرت المتعة

من أجل نسمة هواء نقية، من أجل رؤية بحرٍ فسيح لا يحول بينك وبينه اكتظاظ أجساد وإفراط سمنة، من أجل مياهٍ صافية تغسل فيها جسدك، وروحك، ويروق لها وبك عقلك، وتحسُّ وكأن مشاكل الدنيا كلها داخلك قد ذابت وانمحت، حاولت أن أقضي إجازة في الإسكندرية؛ فزادني بحرها ضيقًا فوق ضيق، وأحرق أعصابي منظر الكتل البشرية المكدَّسة بحيث لم أكن أستطيع الوصول إلى الماء أصلًا، تكدسٌ رهيب، وكأننا في يوم الحشر ولسنا في بقعة ينشدها الناس طلبًا للراحة والتمتع بالرحابة والحرية والاسترخاء!

من أجل ألا تصبح محطَّ أنظار الناس، يلتهمونك بأعينهم، ويحشون أفواههم بالفسيخ والمحشي، ويتطلعون بنهمٍ زائد، وحب استطلاع مَقيت إلى ماذا تلبس وماذا تفعل، ومن معك، إلى زوجتك وأولادك وأيٍّ ممن تخاطبه، أناس جاءوا إلى البحر، واكتظُّوا ليجلسوا كتنابلة السلطان لا يفعلون شيئًا، لا يستحمون وينظرون شذرًا إلى من يستحم، ولا يزاولون رياضة ويضيقون بمن يزاولها، ولا حتى يمشون أو يتمشَّون وإنما همهم على بطونهم؛ في الصباح يأكلون، في الضحى يأكلون، في العصر يأكلون ويأكلون ويأكلون ... ولا شيء سوى الطعام والتنبلة، يتكوَّمون أكوامًا أكوامًا من البشر، والأطفال والرجال والنساء الذين تضخَّمت أجسادهم بطريقةٍ جِمِّيزية غليظة، وكأن لا إرادة تحكم وتتحكم في أوزانهم أو حركتهم، وكأنهم يعتبرون السمنة رتبةً، الأعلى فيها هو الأقبح جسدًا والأكثر انتفاخًا! هجمت على مياه الإسكندرية المجاري، وعلى الشواطئ فئات زاد دخلها، وجاءت «لتصيف» وهي لا تعرف عن التصييف إلا أنه فرصة لفتح الشهية، وزيادة الوزن بهواء البحر المنعش، فحتى هواء البحر التهموه وأتوا عليه، حتى إذا عدت من البحر، وحاولت أن تستريح في بيتك أو شقتك، تحاصرك الراديوهات والفيديوكاستات، والميكروفونات، مرفوعة الصوت إلى أقصى درجة، وكأنها مباراةٌ الفائز فيها هو صاحب الضجيج الأعلى والأقبح ...

وكانت النتيجة أني، بدلًا من راحة الإجازة والمصيف، أُصِبتُ وأُصيبت معي أسرتي بما يشبه الانهيار العصبي، وكان لا بد أن نقضي أسبوعًا خارج معمعة البحر الإسكندراني الملوَّث، واخترت جزيرةً يونانية اسمها كورفو، وفوجئت أن أجر السفر والإقامة فيها أقل بكثير مما كنا نتكبَّده في الإسكندرية ...

كان الفندق الذي نزلنا فيه يقع في منطقة من الجزيرة اسمها «كونتوكالي» ظللت أخطئ في اسمها حتى قرنته بالتعبير العربي «كنت خالي».

أسبوع قضيناه في الجزيرة، ولكنه كان أجمل أسبوع قضيته في حياتي، بل يكاد يكون أول إجازةٍ حقيقية أتمتع بها ... الفندق مُقام في حضن الجبل ... وثمة «بلاج» صناعي جُلبتْ له الرمال خصيصًا ليصبح مثل بلاجات الإسكندرية الرملية ... ومع هذا فقد كانت رماله تميل إلى السواد أو السمرة ... ما أروعك يا رمال الشاطئ المصري من غير قذارات وبقايا طعام وازدحام!

كان الفندق ممتلئًا إلى آخره، ومنذ أواخر مارس الماضي وإلى نهاية أكتوبر، ومع هذا فلم يكن هناك ازدحام، كان الجميع من مجموعاتٍ سياحية انجليزية وألمانية ويابانية، وحتى مصرية ولبنانية وأردنية ممدَّدين على الشاطئ في هدوء وسلام وصمت، كلٌّ متروك لخلوِّ باله وشجونه، لا أحد يضايق أحدًا، ولا فتاة تتعرض للمشاكسات والملاحقات، ولا أحد ينظر إلى أحد. فقط كانت سيدة ترتدي ملابس محجبة هي محط الأنظار؛ لغرابة زيها الأوحد بين الأزياء؛ فالناس تأتي إلى البحر لتستحمَّ وتتعرض لأشعة الشمس، وهذه قد جاءت وقد تسربلت من قمة رأسها إلى أخمص قدميها برداءٍ أسودَ سميك، وأعتقد أن السؤال الذي كان يدور في أذهان المصيفين لماذا — وهذه طريقتها في ارتداء الملابس التي تحجب عنها كل نسمة هواء، وكل شعاع شمس — تأتي إلى مكان الشمس والهواء؟ ولكن كل إنسان حُرٌّ فيما يرتديه، أو يفعله. وهكذا انصرفت الأنظار سريعًا جدًّا عن ذات الزي الغريب. فكل إنسان هنا قد أتى ليقضي كل دقيقة وثانية من إجازته في إعادة الحيوية إلى أنسجته المنهَكة وجهازه العصبي الذي عمل على مدار عام، ولا وقت ولا نية للتطلع إلى الآخرين أو الحملقة فيهم. في الحقيقة الحملقة كانت مقصورة علينا نحن العرب والمصريين ... ولكنها حملقة لم تدم سوى بضع ساعات، وبعدها أصبحنا نتصرف بتحضُّرٍ كامل وقد عدانا جو المتحضرين.

لا أريد أن أستطرد في وصف المتعة التي نالتنا في تلك الجزيرة الصغيرة من جزر اليونان، فما لهذا أكتب ما أكتب؛ إذ في الحقيقة كانت نهاية تلك المتعة فاجعة لم أكن أتوقعها أبدًا.

ولكن قبل أن نصل إلى حيث أريد أن أصل، أريد أن أقول كلمة عن السياحة في البلاد الأخرى والسياحة في مصر. مصر كانت من أوائل البلاد السياحية في العالم، أعتقد أنها كانت الأولى في السياحة، وكانت تعتمد على كبار الأغنياء في العالم الذين أنشئت من أجلهم الفنادق الفخمة. بعد الحرب العالمية الثانية أصبحت السياحة سياحة الطبقة المتوسطة، بل وأحيانًا الطبقات الكادحة، ومع هذا ظللنا نحن نقيم فنادق «الخمس نجوم والست نجوم»! إن المصطافين في تلك الجزيرة اليونانية لم يكونوا مليونيرات أو أصحاب أعمال أو شركات، كانوا أصحاب دكاكين، طلبة في الجامعة، مدرسين، ولكن الإجازة عندهم أصبحت شيئًا مقدَّسًا، ويبدأ التخطيط لها والتدبير منذ أوائل العامل، حيث تتيح شركات السياحة لهم أن يقسطوا المبلغ على شهور السنة كلها، وبتنسيقٍ كامل بين الشركات الأوروبية والشركات المحلية في إسبانيا واليونان، وحتى في تركيا فإن أعدادًا وفيرة من السياح تأتي على هيئة أفواج، وفي طائرات «شارتر» من مدن أوروبا مباشرة إلى مكان الاصطياف دون المرور بعواصم الدول.

والشيء المزعج الوحيد الذي ضايقني في تلك الجزيرة اليونانية هو صوت الطائرات الليلية الذي لا ينقطع ... ذكرت لي مسئولةٌ سياحية في الجزيرة أن عدد الطائرات التي تقلع في من جزيرة كورفو إلى أوروبا يبلغ يوم الاثنين فقط من كل أسبوع من الساعة الواحدة صباحًا إلى السابعة مساءً ١٨٠ طائرةً ... وهو حجم الطيران في مطار القاهرة الكبير لعدة أيامٍ متتالية. تلك الجزيرة الصغيرة يؤمُّها ٣٠٠ ألف سائح كل موسمٍ صيفي، أي نصف عدد السياح الذين يأتون إلى مصر طوال العام، وهي جزيرةٌ واحدةٌ صغيرة من سبع جزر غير اليونان الأم! فما بالك برودس أو كريت أو غيرهما من الجزر الكبرى؟!

الطريف في الأمر أن معظم جرسونات ومديري الفنادق في تلك الجزر اليونانية من اليونانيين المصريين، أي إن المصريين اليونانيين هم القائمون على أمر السياحة الناجحة في اليونان، سبحانك ربي، لقد كان مدير الفندق صاحب قهوة في مغاغة، وأبوه وجده ولدوا في مصر، ويتحدث العربية بطلاقة وبلهجةٍ مصرية يُحسد عليها.

وقد يتشعَّب الحديث عن أسباب فشل السياحة عندنا في السنوات الأخيرة، ولكني أريد أن أضيف سببًا — قد يجرح شعورنًا القومي قليلًا — ولكنه الحقيقة التي لا بد أن نواجهها؛ إن ازدحام القاهرة والمدن السياحية ذلك الازدحام القاتل، وحب استطلاع رواد الشارع المصري ومضايقتهم للسياح، وقلة أدب بعض الشبان من قاطني الشوارع المصرية طوال الأربع والعشرين ساعة، وراء نفور عددٍ كبير من السياح من قدومهم إلى مصر، بل

وتحذيرهم بعضهم لبعض. فجزيرة كورفو مثلًا وعاصمتها ليست غنية بل بلدةٌ شعبيةٌ يونانية تُشبه دمياط إلى حدٍّ كبير، ومع هذا فطوال تجوالي بها لم ألمح مضايقة من شبان لسائحة أو لسائح، والجميع يعاملونك في أدب، صحيح أنهم يستغلُّونك لكونك غريبًا بعض الشيء، ولكون الموسم السياحي محدودًا، ولكن هذا الاستغلال البسيط غير مهم لأنك في النهاية سائح.

إن سلوك الشارع المصري هو المسئول الأول عن جفاف المواسم السياحية عندنا، ناهيك بالتخبط التام لوزارة السياحة، وعجزها عن اتفاقاتٍ عالمية لخلق مدنٍ وقرًى سياحية على شواطئنا العظيمة الممتدة التي لا تدانيها أي شواطئ على سطح الأرض.

وأصل إلى المأساة أو الكارثة التي محت تمامًا من عقلي وروحي كل ذرة متعة أحسستها في تلك الإجازة القصيرة، وهي مأساة شركة الطيران الأوليمبية اليونانية؛ فهي منتهزة فرصة الإقبال الكبير على قضاء الصيف في اليونان، تتصرف في ركابها كما يحلو لها وتختار المواعيد التي تحلو لها، تؤجل الطائرات دون سابق إنذار، تتصرف تصرف التركي «المتعنطز» وكأن الركاب عبيدها!

في طريق عودتنا للقاهرة، كان علينا، حسب أوامر شركة الطيران الأوليمبية التي تحتكر الخطوط الداخلية أن نأخذ الطائرة من كورفو في السابعة صباحًا، ومعنى هذا أن نستيقظ في الخامسة! وهكذا فعلنا في اليوم الأول، ووصلنا إلى المطار وانتظرنا ساعات إلى العاشرة صباحًا، وإذا بالشركة تُلغي الرحلة وتؤجلها إلى العاشرة مساءً، في حين أننا كنا مرتبطين بموعد الطائرة التي تقوم من أثينا إلى القاهرة في السابعة مساءً.

وفي اليوم التالي ذهبنا في السابعة صباحًا وأيدينا على قلوبنا، ولكن الطائرة أقلعت في موعدها فقلنا الحمد لله. ولا أعرف السر في أن تقوم الطائرة من كورفو في هذا الوقت المبكر لنقضي اثنتي عشرة ساعةً في أثينا في انتظار الطائرة المسافرة إلى القاهرة! ولكن هكذا أرادت شركة أوليمبيك والدكتاتوريون القائمون على أمرها.

وفي الساعة السادسة مساءً توجهنا لمطار أثينا بعد يوم من التصعلك في المدينة، وهناك وجدنا المأساة؛ مجموعاتٌ كبيرة من المصريين الذين طردتهم ليبيا جالسين في المطار وقد قضوا الليلة والنهار التالي محبوسين في المطار؛ إذ هم لا يعرفون أثينا، ويخافون الخروج إليها، ثم إنهم لا يعرفون الإنجليزية ولا اليونانية التي تصرُّ الشركة المتعالية أن تعلن عن قيام طائراتها بواسطتها.

الحقيقة انفطر قلبي لمنظر المصريين الفلاحين والعمال والحرفيين في المطار، بعفشهم وقد حملوه فوق أكتافهم، وبأولادهم، وكل عائلة لا يقل أطفالها عن الخمسة أو الستة، بعشرات الشيل الصغيرة والمكونة من مُشترياتٍ فقيرة وبُقَجٍ وسلال، وهم مُكوَّمون يتساءلون عن عفشهم هل وصل من طرابلس أم لم يصل، وهم لا يعرفون لماذا ألغيت رحلة الطيران بالأمس؟ ومتى تقلع اليوم؟ ونحن نقوم بالترجمة لهم ما أمكننا.

إلى أن جاء وقت رحيل الطائرة في السابعة مساءً، وهنا فقط إذا بشركة أوليمبيك تعلن عن إلغاء الرحلة، وأن الرحلة التالية ستكون في اليوم التالي في الثامنة والنصف صباحًا، وأردفت المذيعة هذا بقولها إن على كل راكب أن يتجه إلى مكتب الأوليمبيك ليتسلم كوبون المبيت في فندق من فنادق أثينا.

والطريف أن المذيعة تقول إن الرحلة أُلغيت لأسباب «فنية»! كيف يتصرف هؤلاء الفلاحون والحرفيون، وكيف سينتقلون إلى الفنادق، وكيف سيتفاهمون مع مندوبة الشركة؟! أسئلة تثير في النفس غيظًا لا حدود له.

كل هذا وسفارتنا في أثينا «ولا كأنها هنا»؛ موظفون جالسون يقبضون المهايا الضخمة بالعملة الصعبة، وكأن جزءًا عزيزًا من شعبهم لا يعامَل معاملة العبيد في مطار أثينا القريب منهم، وأغلب الظن أن هناك ملحقًا عماليًّا في السفارة لا بد كان يقضي وقته في حانة من حانات أثينا، تاركًا لحمنا المصري معرًّى لكل عينٍ حاقدة وأجنبية، تتفرج على نماذج من الفقر المصري لا تقع عليها العين أبدًا، وتتفرج على نماذج لحيرة هؤلاء المطرودين الذين يُشكِّل طردهم على هذه الصورة جريمةً إنسانية وعربية بكل معاني الكلمة.

حاولنا دون جدوى أن نحمل تلك المئات من المصريين على التوجه للفنادق والمبيت، رغم صعوبة هذا عمليًّا، إلا أنهم خوفًا من أن تفوتهم الطائرة مرةً أخرى قرروا أيضًا، المبيت في المطار وعلى الأرض لليلة الثانية على التوالي.

وفي فندقٍ مزعجٍ حقير من فنادق أثينا قضينا الليلة، وصحونا في الخامسة صباحًا أيضًا لنلحق بالطائرة المزعومة في الثامنة.

وأخيرًا جدًّا وفي الثامنة والربع بدأ النداء على الطائرة المتجهة للقاهرة، وركبنا وتشهَّدنا بأنها أخيرًا في طريقها للقيام. واضحك ما شئت؛ فبعد عشر دقائق من البقاء في الطائرة أعلنت المضيفة أن الطائرة بها عطلٌ فني ... وأننا لا بد أن نهبط إلى المطار مرةً أخرى وننتظر أن ينادى علينا مرةً أخرى.

لا تتصور كم الألم الذي أحسسته والركاب المصريون يحملون في أيديهم أكوامًا هائلة من «الهاند لاجج» ويهبطون، ونحن نتساءل أي عطلٍ فني هذا الذي تكتشفه الشركة قبل

الإقلاع مباشرة، وعقب عطلٍ فنيٍّ آخر بتنا من أجله ليلةً كاملة في أكثر الفنادق إزعاجًا وتواضعًا.

ولكي أختصر القصة فإني أقول إنه لم يكن ثمة عطلٌ فني أبدًا، لا اليوم الذي قبله ولا في ذلك اليوم، ولكن كان هناك انتظار لمجموعةٍ أخرى من المصريين القادمين من طرابلس بعزالهم وأطفالهم ومآسيهم.

وهكذا وبعد ساعات حشرت تلك المجاميع من المصريين في الطائرة حشرًا وكأنها دجاج ملئت به الأقفاص، وتحركت الطائرة، وتحرك غيظي إلى أن بلغ الحلقوم ... ماذا يفعل ممثلونا في أثينا، وماذا فعلت وزارة العمل لهؤلاء المصريين المطرودين؟ وماذا فعلت وزارة الهجرة ووزارة الشئون؟ وأي وزارة أو إدارة مسئولة لتجعل موظفًا أو موظفين يقيمون في مطار أثينا ويتولَّون إرشاد هؤلاء الفلاحين الأُمِّيين وعائلاتهم ويكونون لهم الصدر الحنون الذي يتلقاهم بعد طردهم شرَّ طِردة من ليبيا؟

بعد أقل من ساعتَين كانت الطائرة تستعد للهبوط في مطار القاهرة، وكانت القلوب تخفق والعيون ملأى بالدموع، وما كادت العجلات تلامس الأرض حتى صفقنا جميعًا، ودمعت عينِي فعلًا وقد أطلقت راكبةٌ مصرية زغرودة فرحة شرحت قلوب الركاب جميعًا.

يا أيها النيام على لحمنا المعروض في مطار أثينا أما من رئاسة لكم! أما من عقاب! أما من أمرٍ سريع يحفظ كرامتنا المبعثَرة في مطار أثينا!

أما أنتِ يا أوليمبيك فإنك تستحقِّين لقب أسوأ شركة طيران في العالم عن جدارة.

ما هذا يا سادتنا في الخارج؟

تحية طيبة وبعدُ ...

لقد شدَّني مقال سيادتكم «وتبخرت المتعة» بجريدة الأهرام يوم ١٦ / ٩ / ١٩٨٥م، وقد دفعني ذلك للكتابة وسرد ما حدث لي من أهوال بالقنصلية المصرية بأثينا.

وأؤيد ما انتهى به مقالكم، وهو أن طيران أوليمبيك هو أسوأ طيران في العالم، فما حدث لك إنما هو الهيِّن البسيط مما حدث للفوج الذي كنتُ أشترك فيه، ولكن هذا شيء لا يهمني، ما يهمني حقيقة هو ما حدث وعايشته بقنصلية مصر بأثينا. فقد سافرت ضمن رحلةٍ سياحية إلى رودس بأثينا، تضمنا نحن موظفي أحد البنوك الاستثمارية وعائلات بعضنا، بالاشتراك مع شركةٍ سياحيةٍ مصرية. ولا أخفي على سيادتكم أنه لا وجه للمقارنة بين قضاء إجازة صيف بالإسكندرية وقضائها في إحدى جزر اليونان سواء من حيث التكلفة أو الراحة الجسمانية والروحية والذهنية، وأؤيدك الرأي فيما كتبتَه من انطباعات وملاحظات. فقد حدث لي باليونان وفي عدة دولٍ أوروبية أخرى زرتها من قبلُ. المهم أننا استمتعنا تمامًا في رودس لمدة أسبوع، وفي اليوم الثامن سافرنا إلى أثينا لقضاء ثلاثة أيام، ولكن قبل مُضي نصف ساعة في أثينا داخل الأوتيل بدأت نهاية المتعة بسرقة جواز سفري وجواز سفر زميلي بالعمل، وتذكرة الطائرة الخاصة به، وبعض المتعلقات والهدايا الصغيرة. ولست أدري هل هو حسن أو سوء الحظ في وجود أحد كبار مسئولي القنصلية المصرية في تلك اللحظة، وهو خال إحدى زميلاتنا بالرحلة، وقد أبدى استعداده لمساعدتنا، إلا أننا فضلنا عدم اتخاذ أي إجراء إلا بعد التأكد التام من فقدها. وأخيرًا لم نستدلَّ على المحفظة وما بها، وقررنا اتخاذ إجراءاتٍ سريعة لاستخراج وثائق سفر لدخول الوطن مصر.

واتصلنا تليفونيًّا بالمسئول الدبلوماسي السالف الذكر؛ لسؤاله عن الإجراءات، إلا أنه تنصَّل منا، واعتذر بقوله «آسف ما فيش في إيدي أي حاجة أقدر أعملها، وأساعدكم

بها.» وكأننا نستجدي الحسنة، وبدأنا بعد السؤال والاستفسار بالبحث عن قسم الشرطة المختص الذي حوَّلنا إلى شرطة الأجانب، ثم إلى قسم الشرطة الذي يتبعه الأوتيل، وكل العناء والجهد كان بسبب جهل اليونانيين باللغات سوى اليونانية. وأخيرًا حصلنا على محاضر بفقد الجوازات، وقد لاحظنا أن رجال الشرطة يعرفون جيدًا اللصوص، وأوكارهم وأماكن السرقات، ولكن قلنا كله يهون، وبالضرورة سيُرَدُّ لنا اعتبارنا بالقنصلية، ولكن الطامة الكبرى حين وقفنا أمام شباك بها، وقدمنا أوراقنا لموظفٍ مصري يناهز العقد الخامس من العمر. وبدأنا بالتحية، إلا أننا فوجئنا بالتحية عبارة عن تكشيرةٍ غليظة من خلف النظارة، وقد تبدَّلت سحنة الرجل، وقال بشخط: «إنتو عايزين إيه؟» ورددنا أننا فقدنا جوازات سفرنا سويًّا، فأشار للمحاضر «وإيه ده؟» وكأنه يرى لأول مرة محاضر الشرطة اليونانية! المهم قال لنا: الشباك اللي جنبي. فسحبنا الأوراق ووضعناها في المكان المخصص للأوراق أسفل الحاجز الزجاجي، وانتظرنا على أعصابنا الموظف المسئول، ولم نكن نشاهد سوى سيدة تعدَّت الأربعين تجلس خلف مكتب، وكل فترة تنظر إلينا بشيء من اللامبالاة والاستهتار (السيدة الفاضلة كانت بدون عمل) وبعد ربع ساعة تمامًا تفضَّلت علينا، وسألتْ: «في إيه؟» فشرحتُ لها ما حدث لنا، وأوضحتُ لها عملنا ومركزنا الأدبي والاجتماعي، وأننا مستعدون لتقديم كافة الضمانات المادية الأخرى؛ وهنا كانت الفجيعة: «وإيه اللي يعرَّفني أنكم مصريون؟» فذكرتُ لها أن زملاء الرحلة والعمل وهم من أصحاب المراكز الاقتصادية المرموقة، وعائلاتٌ معروفة، وهم لنا شهود وضامنون، فقالت: «ده مش معترف به!» تخيَّل سيادتكم الموقف القاسي ومدى التشكيك في انتمائي لوطني، ثم طلبتِ البطاقات الشخصية، وذكرتُ لها أن خروجها من مصر ممنوع، كما أن جواز السفر يغني عن أي وثيقة، فقالت بصوتٍ عالٍ: «وازَّاي تمشوا من غير بطاقات، يبقى مش هتعرفوا ترجعوا مصر!» وتذكَّرت رخصة قيادتي الدولية، وكذا المحلية فقدَّمتها لها، فسألتْ: «وازاي تمشي برخصة القيادة وتخرج بها برة مصر؟» انظر يا سيدي مدى التناقض والتعقيدات! فشرحت لها أن إخوتي سيتركون لي إحدى سياراتنا بالمطار؛ لذلك أحمل الرخصة. وكانت المهزلة غير المتوقعة حين علمت أن القنصل لا يعترف بالرخصة كوثيقةٍ رسمية؛ لأنها ممكن تكون مزوَّرة، وكأن جوازات السفر والبطاقات وشهادات المعاملة وخلافه لا تُزوَّر! وأخيرًا أعطتنا أوراقًا لملئها، وطلبت صورًا وخلافه، أكملنا المطلوب وقدَّمناها، فذكرت لنا أن القنصل لا ينظر في أي أوراق قبل مضي ثلاثة أيام من تقديم الأوراق (انظر مدى الاستهتار بمصير الأفراد) ولكن الله سلم حين أرسل موظف يدعى تيمور تجاذبنا معه الحديث وعرضنا مشكلتنا بكل صراحة، كان الرجل مثالًا للشهامة والتفهُّم، أخذ الأوراق

ودخل لعرضها على القنصل، وخلال فترة الانتظار رأينا حالات ومآسي مصريين تعدَّت الحالات العشرين، ولا يوجد معهم أي إثبات شخصية، أو كانوا ضحايا سرقات ونصب. لقد شاهدت رجال مصر يبكون كالنساء، وللأسف الشديد أن مشاعر الأجانب كانت أفضل مئات المرات من مشاعر المصريين! وبدأتُ أتجاذب الحديث مع أحد موظفي القنصلية، وهو مسئول، ومن خلاله تبينتُ عقلية سعادة البك القنصل الذي يعرف جيدًا أن هناك مئات المصريين يتسوَّلون فتات الخبز والأموال على أمل العودة لمصر، ومن بينهم من مرَّ عليه شهورٌ طويلة، ولا يجد الحل بالقنصلية بسبب حجة البك القنصل أنه يخشى على اسم وسمعة مصر من جوازات اليونان، حين تُصدر بيانًا يتضمن أن عدد المصريين الذين سافروا من اليونان بوثائق سفر عددهم كذا! تصوَّر يخشى جوازات اليونان، ولا يخشى على أبناء الوطن الملقَيْن بالشوارع الذين هم أساس اسم وسمعة مصر، كما أن هذا البك يخشى المشاكل لجوازات مصر، وأخيرًا فهو يخشى أن يكون أحدهم قد باع جوازه وارتكب جرمًا، فيقال إن القنصل ساعده على الهرب، وكأنه نسي أن تلك مشكلة البوليس اليوناني، وأن مصر عضو في الإنتربول! ولماذا الافتراض أن الجميع باعوا جوازاتهم أو أنهم ارتكبوا جرمًا؟!

المهم أنه دائمًا يخشى! وأخيرًا خرج الأستاذ تيمور وألقى إليَّ بمفاجأة أن القنصل البك لم يعترف برخصة القيادة المحلية، كما أنه يطلب تذكرة الطائرة؛ فقدمتُها، وأخذتْها السيدة السالفة الذكر، وسألتني: «إيه اللي يثبت إن التذكرة مقطوعة من مصر؟» فصرختُ بأعلى صوتي: مكتوب فيها القاهرة – أثينا – رودس – أثينا – القاهرة، ومدفوعة بالعملة المحلية تبقى مقطوعة منين؟ من أمريكا يعني! كما عرضنا ضمانًا نقديًّا يمكن تحويله إلى أحد البنوك اليونانية، سواء عن طريق الدفع الفوري، أو محوَّلًا من البنك الذي نعمل به، وكان الرفض وعدم جدوى ذلك هو المصير المتوقع. وأخيرًا حصلتُ على وثيقة السفر، أما زميلي فبدأتْ معه مشاكلُ أخرى سأتركها له لسردها إذا ما خصصتم بابًا لتلقِّي مشاكل المصريين من السفارات والقنصليات المصرية. وقد نبهني بعض أولاد الحلال في القنصلية إلى أن هذا ليس النهاية؛ فلا بد أن ينتظرني أحد بإثباتات شخصية داخل المطار بالقاهرة، وإلا فمصيري، إذا كان ربنا بيحبِّني، قضاء ثلاثة أيام بالمطار، سين وجيم ومباحث وخلافه ويتعمل لي «كعب داير» أو صينية إذا كان منظري لا يعجب البك الضابط، ويلففني الأقسام والمراكز من أسوان إلى الإسكندرية. وقد سمعت من عدد ممن فقدوا جوازاتهم وقابلتهم بمجمع التحرير، وكذلك من بعض ضباط الشرطة بالجوازات الذين هنئوني بسلامة الوصول، وأكدوا أنني نفذْتُ من هذا الإجراء. ولعلكم تتساءلون لماذا التهنئة؟ ولماذا نفذْتُ؟

والسبب يا سيدي الفاضل «الكوسة» من عدة جهات انتظرتني أسفل الطائرة، وخرجت من المطار مُعزَّزًا مكرمًا! إنها الوساطة التي ما زالت تعيش بيننا. بالله عليك قل لي لماذا التشكيك في انتمائي لمصر، أتساءل لماذا تنصَّل منا المسئول الشاهد على مصريتنا، وعلى فقد جوازاتنا، وهو يعلم علم اليقين ما سيحدث لنا من عدم استطاعتنا إثبات الشخصية؟ وما بالك بالمصريين الذين لا شاهد عليهم سوى الله.

أتساءل عن تفسير لتلك العقلية العقيمة التي يفكر بها البك القنصل من أجل حماية اسم وسمعة مصر، ويترك رجالها بالشوارع يستجدون؟ وكذا استهتاره بمصير الأفراد في الغربة بدون أي شيء يثبتون به جنسيتهم حتى يحنَّ أو يمنَّ عليهم، وينظر في أمرهم بعد ٣ أيام؟

أتساءل لماذا التشكيك في أن الجميع باعوا جوازاتهم أو ارتكبوا جرمًا؟

أتساءل ما مصير الذين ليس لهم كوسة مثلي؟ ولماذا لا تسارع وزارة الداخلية بوصل جسور الثقة بينها وبين المواطنين، ومحاسبة، كل من يسيء معاملة الجمهور؟ ولماذا لا تسارع بإدخال الكومبيوتر لتسجل جميع البيانات عن المواطنين، بحيث يمكن الرجوع إليها على وجه السرعة من أي مكان سواء بالمطار أو بالأقسام، بدلًا من المرمطة والبهدلة والكعب الداير؟ وأعتقد أن ذلك مهما كانت تكلفته، سيعيد الشعور إلى المواطنين بآدميتهم، وثقتهم بالشرطة التي فُقدت، والتي لا يخفى على أحد ذلك.

وفي النهاية أتمنى ألا تخرج علينا بياناتٌ مضللةٌ كاذبة من وزارة الداخلية أو من القنصلية المصرية باليونان؛ لأني سأتحدَّاهم بالشهود والأدلة والأسماء. سيدي الفاضل لقد سألتك كثيرًا، ولكن لا تسألني لماذا يترك الشباب وطنهم الغالي؟ ولماذا أنا راحل إلى المجهول، مضحيًا بكل حلوة ومرة، لاهثًا إلى حيث أجد الإنسانية والمعاملة الآدمية، بعيدًا عن التشكيك والروتين والعقليات المغلقة العقيمة؟ ولكن جنسيتي ستكون الوحيدة تلك التي سأعتزُّ بها، ولن تأخذها مني أي قوة حيث الأمل بالعودة.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

مقدمه لسيادتكم

محاسب: م. ت. م.

برجاء عدم نشر الاسم والاحتفاظ به لديكم وأنا على استعدادٍ تام لمقابلتكم للرد على أي استفسار؛ والسبب خوفي من تعقيدات استخراج جوازٍ جديد.

تعليق

ليس من عادتي نشر خطاباتٍ كاملة للقراء، ولكن هذا الخطاب بالذات إن لم ينشر بأكمله وبكل تفاصيله فإنه يُعدُّ من ناحيتي جريمة نشر أو بالأصح عدم نشر؛ فالقضية التي يتعرض لها خطيرة جدًّا، وهي موقف القنصليات المصرية، وقنصلية أثينا ليست سوى نموذجٍ قريب، من المواطنين المصريين، وأنشر هذا الخطاب لأضعه أمام الصديق الكبير الدكتور عصمت عبد المجيد، والدكتور بطرس غالي، والدكتور أسامة الباز، وكل المسئولين الكبار في وزارة الخارجية، لا ليحققوا في ما جاء به، إنما لأرجوهم أن يراجعوا كليةً عمل القنصليات المصرية في الخارج؛ فهناك قنصليات وقناصل يبذلون المستحيل من أجل المواطنين، ولكن الأغلب والأعم هو ما تراه في هذا النموذج، وكأن القنصل لا رئيس له ولا مفتش عليه، بل حتى السفارة ولا السفير لا تشرف إشرافًا فعليًّا على القنصليات، وهكذا «يتفرعن» موظفوها ويصبح لا قيمة لأي مواطن أو أي مشكلة يقع فيها، طالما لا يمتلك له أحد ضرًّا. إنها قضيةٌ خطيرة لا تقل عن مشكلة تمثيلنا الدبلوماسي في الخارج نفسه؛ ذلك الذي يُكلِّفنا الكثير جدًّا من المال؛ فسفارتنا في تايلاند مثلًا ربما تكلفنا ضعف قيمة التبادل التجاري بيننا وبينها، وأنا لا أطالب بإلغاء كثير من سفاراتنا أو ضمِّها معًا، وإنما أرجو أن يُخلَق نظامٌ جديد للإشراف على فاعلية ونشاط هذه السفارات وموظفيها، الذين يحيا معظمهم في مملكةٍ خاصة اسمها مملكة السلك الدبلوماسي، ينفصل العاملون فيها انفصالًا شبه تام عن مشاكلنا، وبالتالي عن مواطنينا.

وتلبية لرغبة القارئ الذي دفعتْه هذه التجربة الوعرة إلى الهجرة كما ذكر، رفعتُ اسمه ولكن اسمه تحت يدي، وكنتُ سأنشره لعلمي أنه في عهد وزير الداخلية الحالي اللواء أحمد رشدي اختلف الأمر تمامًا ولم يعد المواطن يضار؛ لأنه اشتكى، فما بالك وهو لا يشكو من تصرفات الشرطة، وإنما للأسف من تصرفات موظفينا السفراء في بلاد الغير،

لخدمة مواطنيهم في مصر أولًا، أما أن الخطاب وما ورد فيه كله ينبض بالصدق، فهذا مؤكد؛ فقد وصلني آخرُ من مسافرٍ آخرَ في نفس المجموعة يحمل نفس الشكوى، ولكن آثرتُ نشر هذا الخطاب لدقة ما ورد فيه، والمسألة متروكة تمامًا لضمير كل قنصل، وكل موظف، وهذا أبدًا لا يعد مقياسًا ولا يمكن الاعتماد عليه.

مرةً أخرى أرجو إعادة النظر تمامًا في نظامنا القنصلي؛ لأن بقاء هذا الوضع مستحيل.

ساعتان من الإسكواش السياسي

في ذلك الصباح «الثلاثاء» ٢١ يناير يوم افتتاح معرض الكتاب، لم أكن في حالةٍ مزاجيةٍ طيبة، ليس ذلك اليوم فقط، بل طوال الأسبوعَين اللذين سبقا لم أكن أيضًا في حالةٍ مزاجية تسمح لي بالكتابة، أو حتى بالقراءة ولكن كان عليَّ أن أفعل، وهذه مأساة الكاتب.

ولكن معرض الكتاب حدثٌ مهم جدًّا في حياة القاهرة، بل العالم العربي كله؛ ولهذا لم أتخلف إلا عامًا واحدًا عن حضوره، حين فرضت إسرائيل نفسها فرضًا على المعرض. حدثٌ ثقافي هائل لأنني فيه أستعيد ثقتي بأن الكتاب لا يزال بضاعةً مطلوبة لدى جماهيرَ واسعةٍ من شعبنا المصري والعربي، الذي كثيرًا ما نتهمه بأنه لا يحب القراءة، ثم هو فرصةٌ مثالية للاطلاع على معروضات دور النشر الأوروبية وغير الأوروبية، ومعرفة الجديد الذي صدر وشرائه أيضًا، ولهذا لم أتردد لتلبية الدعوة للافتتاح، خاصة وقد نشر في يوم الافتتاح أن الرئيس حسني مبارك سيفتتح المعرض، وهذه فيما أعتقد أول مرة يفتتح فيها رئيس الجمهورية معرضًا للكتاب في مصر، وحين اتصل بي الدكتور سمير سرحان رئيس هيئة الكتاب؛ ليؤكد ضرورة حضوري أحسست أن الرئيس هذه المرة لن يجيء فقط لافتتاح المعرض، وإنما أيضًا ليلتقي بكبار الكتاب المصريين أو ما أسميتهم رموز الثقافة المصرية، بل العربية، وما دام الرئيس جاء ليلتقي بنا تكريمًا بعد الالتقاء بالفنانين في افتتاح «إيزيس» فإنه خبرٌ مفرح حقًّا؛ ذلك أن مَعْلمًا من معالم التحضر العربي والإسلامي من عصور الازدهار كان تلك الوشائج المتينة بين الخليفة أو الحاكم، وبين كُتَّاب عصره وفقهائه ومفكريه. وتأخر موعد الافتتاح، لأن الرئيس كان عليه أن يقابل سفراء ومسئولين، ويعقد جلسة محادثات أخيرة مع الرئيس التركي، استمرت أطول مما قدر لها بساعة، ثم يودعه في المطار.

وأخيرًا جدًّا جاء موكب الرئيس الذي سلم على مستقبِليه من رجالات الدولة والكتاب بحرارة، وبدأ جولته في الجناح الدولي للمعرض، وبدأنا معه الجولة. والحقيقة أنني فوجئت بهذا الكم المهول من الكتب الجديدة والمعاد طبعها لكافة اللغات، ومختلف فروع المعرفة، من أحدث كتب الأطفال إلى أحدث الإنسيكلوبيديات، من الجديد في فنون الدراما إلى أحدث ما وصلتْ إليه البحوث التكنولوجية المتقدمة.

كان المبنى الذي بدأ به الرئيس يضم معروضات فقط لثلاث وخمسين دولة، بينها ٢٢ دولةً عربية اشتركتْ في المعرض، أما «السرايات الباقية» فقد كانت للبيع.

والصالة كبيرةٌ جدًّا، واسعة، ولا يوجد بها ثقب إبرة خاليًا من رفٍّ ممتلئ بالكتب. والحقيقة أنني ومعي الأساتذة الكبار نجيب محفوظ وحسين فوزي ولويس عوض وسعد الدين وهبه ومحمود أمين العالم، ما لبث كلٌّ منا أن راح يتأخر ويتأخر حتى انفصل عن الموكب الذي يقوده الرئيس، وقيل لنا إن الرئيس يريد أن يلتقي بنا عقب جولته، وقادونا إلى المكان الذي سيحدث فيه اللقاء. وتصورت أنا أن الرئيس مبارك لن يقضي أكثر من عشر دقائق يوافينا فيها بما حدث؛ فأنا أعرف أن الرئيس يستيقظ مبكرًا جدًّا، ويبدأ يومه بساعتين من لعب «الإسكواش راكت» ثم يبدأ مقابلاته السياسية. وهو لا بد قد فعل كل هذا، ولا بد بعد تلك التمارين واللقاءات والمباحثات مع الرئيس التركي ووداعه حتى المطار، لا بد أنه مُتعَب، ولن تستغرق الجولة كثيرًا. ولكن خاب ظني؛ فقد استمرت الجولة أكثر من ساعة ونصف سيرًا بطيئًا على الأقدام متوقفًا لدى كل دار نشر تعرض، ولدى كل رف، ولدى كل ناشر.

ونحن الكتاب، وقد انضم إلينا نفر لا ناقة لهم في الكتابة ولا جمل، ولكنهم هكذا يحبون أن يُروا الرئيس أنفسهم، ويقحمون ذواتهم الفخمة على أي اجتماع أو أي لقاء. جلسنا ننتظر قدوم الرئيس، وما كاد الأستاذ يحيى حقي يجيء حتى تنازلت له عن مقعدي الذي كان قريبًا جدًّا من المقعد الذي خُصِّص للرئيس، فكما قلت، كنت أريد أن أقوم بدور المشاهد للحوار الذي سيدور بين جهابذة الفكر والكتابة في مصر وبين الرئيس، واخترت مقعدًا راعيت فيه أن يكون بعيدًا عن مركز الحوار.

وأيضًا، وأخيرًا جدًّا، جاء الرئيس، وجاءت معه الدولة «أو معظمها»، وقد كان يصحبه الدكتور رفعت المحجوب، والدكتور صبحي عبد الحكيم، والدكتور يوسف والي، والدكتور حلمي الحديدي، والدكتور الجنزوري وزير التخطيط، ناهيك عن الدكتور أحمد هيكل وزير الثقافة.

ولكنهم هم المسئولون جلسوا بعيدًا وتركوا الكتَّاب يحاورون الرئيس.

وحين جلسنا جميعًا رمَقَنا بنظرة فاحصة، مسحت أوجه كل الحاضرين، ثم استقرت على وجهي أنا في ابتسامة أعرفها عنه جيدًا، وقال: ما لك تخنت يا دكتور يوسف؟

أعرفها لأنها تشبه ابتسامة لاعب التنس أو الإسكواش العالمي، حين يقرر في أي ركن من أركان الملعب يُسدِّد كرته الأولى.

وقلت لنفسي سألوذ بالصمت الجميل.

وفجأة بدأت مداعبات الرئيس، ونالني منها نصيبٌ وافر وقلت لنفسي: سبحان الله ... هذا رجل بذل منذ الصباح وإلى الآن (كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة) جهدًا كان كفيلًا بأن يذهب غيره من الرؤساء إلى استراحة القناطر ليُمضي ثلاثة أيام، يستجمُّ بعد هذا الجهد الذي بذله.

ولكن حسني مبارك (وأمسكت في سري الخشب) يتفجر شبابًا ورشاقة ونشاطًا وكأنه استيقظ من النوم لتوِّه.

بدأت المسألة مداعبات يطرب لها أي كاتب آخر، أما أنا فقد كنت أعرف أنها مقدمة، وأننا لا نلبث حتى ندخل في الموضوع.

وحين جاءت سيرة الكتابة قال الرئيس تشبيهًا أعجبني تمامًا، رغم أنه ضدي، قال: إن مقالاتك مثل الصورة الجميلة التي تعلقها مائلة إلى الأمام على حائط ثم تخفي وراء الصورة الجميلة ما شئت من أشياءَ ممنوعة. والحقيقة أنني كنت في وضعٍ نفسي لا أحسد عليه أبدًا. فأولًا الحاضرون جميعًا سكتوا وكأنما على رءوسهم الطير. الدولة برجالاتها سكتت، والكتاب الكبار سكتوا، ولم يبقَ متحدثًا سوى الرئيس ولم يكن الكلام موجَّهًا سوى لي. وفي ظل جمعٍ كثيرٍ ساكت هكذا، يختار الإنسان بين أن يحاور الرئيس محاورة الند للند، وبين أن يتذكر أنه رئيس الدولة وأن الرد عليه وسط هذا الجمهور الحاكم الذي يقوده الرئيس لَيصبحُ نوعًا من قلة الذوق في أقل قليله. ولكني أنظر في وجه الرئيس لأجد نظرته الشابة المتوثبة تستثيرني لأنطق وأرد، وكأنما أدرك بفراسته أني في حالةٍ مزاجية تثبطني عن أي حوار. وأخيرًا كان ما ليس منه بد، وقلت لنفسي: من العبث أن يجتمع الرئيس بمفكري وكتاب البلد، ونجلس صامتين هكذا، وكأننا فقدنا القدرة على الكلام، ولقد جاء الرئيس ليحاورنا، وإن صمت غيري فلأتكلم أنا.

قال: «تعيب على وزارة الداخلية أنها تحتل قلب القاهرة بالأمن المركزي كلما نزلتُ إلى القاهرة، ألا تعلم أني أعرف المشاكل التي تنتج عن توقُّف الحركة في شوارع القاهرة

ووسطها. ولهذا لا أنزل أبدًا إلى قلب المدينة إلا مضطرًّا، خاصة حين يحتم الأمر إقامة وليمةٍ كبرى تليق بمكانة مصر لضيفٍ كبير، وقاعة الولائم في «قصر القبة» صغيرة؛ ولهذا نضطر اضطرارًا إلى إقامتها في قصر عابدين وسط البلد، ونضطر اضطرارًا إلى اتخاذ كل احتياطات الأمن التي شكوتَ منها. ثم ضحك الرئيس ضحكته المصرية الألوفة وقال: ويعني لا قدر الله لو حدث شيء ألن تقيموا الدنيا وتقعدوها لومًا وتأنيبًا لوزير الداخلية الذي لم يتخذ الاحتياطات الواجبة.»

وهنا تكلم الصامتون جميعًا وقالوا: بعد الشر عليك يا ريس.

«ثم تقول: إنه حدثت اختلاسات في عملية تجديد المسرح القومي بلغت حسب تقديرك ثلاثة أضعاف المبلغ الذي تكلفه التجديد. أتعرف تكاليف الديكور هذه الأيام يا يوسف، طبعًا أنت لا تعرف؛ فليس لديك مسرح أصلحته وجدَّدته، ولن تتصور مقدار ما سيتكلفه هذا الإصلاح والتجديد.»

ومن قبيل الأدب في مخاطبة الرؤساء ألَّا يقاطَع الرئيسُ أبدًا إلا حين ينتهي من كلامه. ولكن الرئيس جمُّ النشاط هذا اليوم باليمين واليسار، يضرب كرات لا يعطيك وقتًا لصدِّها. كان لا بد أن أقول شيئًا، وفتحتُ فمي، ولكن الرئيس كان ماضيًا في كلامه. كنت أريد أن أقول له: ما دامت الدنيا كلها قد امتلأت بإشاعات الاختلاس سواء عن حق أو كذب، سواء بتأثير صحف المعارضة، أو بتأثير الرؤيا المجردة لما حدث من تجديد وتطوير، فلماذا يا سيدي لا تأمر بالتحقيق في هذا الأمر سواء بالنيابة الإدارية أو بالنيابة العامة، وتُخلِّص نفسك وحكمك من سحابات الشك؟ أم أن هذا يُعتبر في رأيك استجابة لدعاوى المعارضة أو الإشاعات المغرضة السارية بين الناس؟ وماذا في هذا؟ إن الحكومة الحقيقية القوية هي التي تستجيب لمطالب الشعب، وليست تلك التي تعاند وتصرُّ أنها الأصح، وأن كل ما يقال إشاعاتٌ مغرضةٌ خبيثة. لماذا يا سيدي تُحمِّل حكمك ذنوبًا ارتكبها أناسٌ يستحقون العقاب؟ وبرفضك الاستجابة لا يستطيع القانون أن ينالهم!

إننا يا سيدي الرئيس لا نشك ولا أحد في مصر كلها يشك في إخلاصك ونقائك وطهارة يدك، فلماذا تصرُّ على تجاهل التهم التي توجَّه إلى بعض رجال الحكم، وتدفع هذا كله بأنه إشاعات وعمل معارضةٍ مغرضة، لماذا؟! وطبعًا لم أقل هذا، لأن الرئيس كان في وضع نفسي لا يريد معه حوارًا وكنت أعرف هذا، فحديثه في المصور كان مليئًا بالضيق من المعارضة والمغرضين ومروِّجي الإشاعات.

ثم دخلنا على قضية سليمان خاطر، وأوضح لنا الرئيس كثيرًا من الحقائق، ولكن بقيت في نفوسنا، أو في نفسي على الأقل، بعض الأسئلة، التي لم أُعطَ الفرصة لإلقائها؛ فالرئيس

كان مشحونًا تمامًا بالرغبة في الرد على كل ما أثارته المعارضة، وقد ذكر لنا حقائق عن الموضوع لم نكن نعرفها، ولكنني انتهزت فرصة سكوته لحظة وسألت: طالما الأمر هكذا، وطالما الحكومة والأجهزة الحكومية على اختلافها بريئة، فلماذا ترفض الحكومة وتستشكل في إعادة تشريح الجثة؟ وانبرى الرئيس يقول: إن معنى هذا أننا نُشكِّك في كل شيء في مصر؛ فالقضاء مشكوك في أحكامه، والطبيب الشرعي مشكوك في تقاريره، والحراسة في السجن مشكوك في دورها.

هل يريدون أن يُشكِّكوا في كل الأجهزة الحاكمة في مصر، كيف تُزاول الحكومةُ — أي حكومة — سُلطتَها، وكل أجهزتها محلُّ شك؟ أي حكم أو حكومة في الدنيا ترضى بهذا؟

وصممتُ أن أسكت؛ فطريقة الرئيس في النقاش كانت تخجلني؛ إذ هي مزيج من المداعبة المحبة والجدية التامة في المضمون.

والجمع الكبير حولنا، حكوميًّا وكتَّابًا، ساكتون وأنا وحدي المتكلم السائل والمسئول، وهو وضع ليس مريحًا على الإطلاق، فلو كنتُ وحدي مع الرئيس لملكت حريتي في الأسئلة أكثر، وربما كان هو قد أراحني بإجاباته أكثر، ولكني في وسط جمعٍ حاشد عليَّ أن أحترمه، وأمام رئيس لا أُكنُّ له سوى الحب والتقدير.

وفعلًا، وكما قال هو بحق في حديث المصور: إن البديل عن الحكم الموجود بديلٌ خطير ومخيف ومعناه، وهذا التفسير من عندي: إما فاشيةٌ عسكرية أو فاشية دينية، وكلا الأمرين مر، ومعناه إبادتنا جميعًا. من هنا بات حرصي وحرص كل مصريٍّ وطنيٍّ مخلصٍ حر لا يريد أن يفرض عليه أحد وضعًا ونظامًا للحكم. يأتي حرصنا على الرئيس مبارك وعلى تدعيم حكمه وعلى عدم إحراجه؛ لأن الأحداث التي جرت منذ اختطاف الباخرة الإيطالية إلى الآن كان هدف الأعداء الخارجيين منها طبعًا، هو إحراج الرئيس مبارك أو لوي ذراعه أو تهديد حكمه واستبداله بحكمٍ عميل.

الحرج إذن قائم، والميزان دقيقٌ جدًّا، وعلى المعارضة، وعلى كل مخلص أن يتبين هذا، وقد كنت أتبينه تمامًا وأنا أحاور الرئيس، أو بالأصح وأنا أتلقَّى كراته الصاروخية في تلك المباراة الودية.

إن أهون عليَّ أن أخرج مهزومًا في مباراة إسكواشٍ سياسي من أن يحدث العكس؛ فمصلحتي ومصلحة الوطن في الالتفاف حول الرجل وحمايته، فما أكثر من ينظرون له شذرًا من الداخل والخارج.

كانت الساعة قد اقتربت من الرابعة، وذلك النقاش المداعب الودي الجدي الحامي الوطيس الذي كله ضربات إرسال من الرئيس لا أملك — في هذا الجمع الحاشد — لها صدًّا، وكنت قد تعبت وكللت وتكفل الأستاذ نجيب محفوظ بسؤال أراحني قليلًا؛ إذ مال على الرئيس وسأل: متى يا سيادة الرئيس يُنتظر أن تنتهي مصر من سداد ديونها. وضحكنا للسؤال.

وقلت مُفسِّرًا للرئيس: إن الأستاذ نجيب محفوظ لا يحب أن يُسلِّف أحدًا أو أن يستلف من أحد، ولهذا هو قلق جدًّا على ديون مصر، وكأنها ديون عليه هو شخصيًّا، ومن هنا يريد أن يطمئنَّ على تلك الديون.

وحدثنا الرئيس عن الديون طويلًا وعن مشاكل الكُتَّاب، وروى لنا قصصًا وكنت أسمع بآذاني، وخيالي يحلم بيوم يتدعم فيه نظامنا إلى الحد الذي نستطيع أن نجري فيه حوارًا صريحًا مع الرئيس في التليفزيون، وعلى الهواء وأمام كل المواطنين وبلا أي حرج. وهو حلم لا أعتقد أنه بعيد التحقيق، وأحيانًا أعتقد أنه بعيد التحقيق تمامًا.

م. د. م

أكذب على نفسي وعلى الحقيقة إذا قلت إنني لم أعجب إعجابًا شديدًا بخطاب الرئيس مبارك الأخير؛ ذلك أننا من كثرة ما كتبنا طوال السنوات الماضية عن «خطب» الرؤساء إذا أحسنوا الخطاب، لم يكن سوى كلام في كلام لم يتحقق منه شيء؛ ولهذا أصبح عسيرًا على الإنسان أن يمدح خطابًا للرئيس المصري، حتى لو أعجبه الخطاب.

لكن الخطاب لم يُعجبني لبلاغته أو ما فيه من معانٍ، الخطاب أعجبني لأن فيه «رؤية» شاملة للواقع المصري والعربي، رؤية شاملة للحاضر، ورؤية شاملة أيضًا للتاريخ، حتى إنه أول خطاب منذ ثلاثين عامًا يذكر فيه الرئيس المصري عيد الجهاد ويوم ١٣ نوفمبر، وهو العيد الحقيقي لقيام الوفد المصري برئاسة سعد زغلول، بمعنى أن مبارك لم يخفْ من التاريخ الذي مضى وتبنَّاه، بينما في هذه النقطة بالذات لم يعجبني خطاب رئيس الوفد الجديد الصديق الكبير «فؤاد سراج الدين» لأنه «تحزَّب» واتخذ موقفًا من ثورة ٢٣ يوليو، وكأن بينه وبينها ثأرًا، في حين أني قلت أمامه مرة في ندوةٍ وفديةٍ كبيرة في رمضان الماضي: إن ثورة ٢٣ يوليو لم تكن إلا تحقيقًا للمبادئ التي قام عليها الوفد، صحيح أن الوفد لم يقم بها، ولكن ألم يكن عبد الناصر وزملاؤه تلامذة لمصطفى كامل وسعد زغلول ومصطفى النحاس وقبلهم عرابي؟! ألم يسيروا في مظاهرات الوفد مردِّدين شعارات الوفد، حاملين ألوية الجهاد ضد السراي والإنجليز؟

كان المفروض من الوفد، حتى بعد ما حدث من تنافس بينه وبين الضباط الأحرار حول قيادة الطبقة المتوسطة، مما أدى إلى حل الأحزاب وانفراد الضباط بالسلطة، حتى بعد هذا كان مفروضًا أن يظل الوفد يتبنى ثورة ٢٣ يوليو ويدافع عنها، مثلما فعل اليسار المصري أو على الأقل أقسامٌ كبيرة منه، تلك التي كانت تضرب وتقتل في السجون، ومع هذا كانوا يؤيدون الثورة وكل خطوةٍ إيجابية تأخذها …

لقد حققت ثورة يوليو للشعب المصري والعربي الكثير، وكانت لها مآخذها الخطيرة، ولكنها أصبحت الآن جزءًا لا يتجزأ، ليس فقط من تاريخ مصر والعالم العربي، ولكن من تاريخ العالم كله، وكان مفروضًا من فؤاد سراج الدين ذلك السياسي المصري الفذ أن يقترب من ثورة يوليو ليقترب أكثر من كل حلقات تاريخنا الوطني، ويتحزب ضد التاريخ، ويقارن بين ما كان قبل يوليو و«الكوارث» التي حدثت بعدها … إنها نظرةٌ أضيق بكثير من نظرة الوفد، كما ينبغي أن تكون. لقد كنت طالبًا في الطب حين وصل الوفد وهو في قمة الحكم إلى تبنِّي الكفاح المسلح ضد الإنجليز، وألغى المعاهدة وأحرقت القاهرة والمظاهرات تطالب النحاس باشا بتوزيع الأسلحة على الشعب ليقاتل الإنجليز. وفؤاد سراج الدين نفسه وهو وزير للداخلية هو الذي أصدر أمره لقوات الأمن للدفاع عن محافظة الإسماعيلية ضد القوة الغاشمة البريطانية التي أرادت اقتحام مبنى المحافظة، وإذا كانت معركة فؤاد سراج الدين قد انتهت باستشهاد خمسين جنديًّا مصريًّا في الإسماعيلية وحرق القاهرة، فإن التاريخ لم يتوقف، وجاء جمال عبد الناصر وأكمل معركة الإسماعيلية في بورسعيد أثناء عدوان ٥٦. لو كان الوفد هو الحاكم لما تردد في الحرب عام ٦٧، ولا عام ٧٣، بمعنى أن كون الوفد كان حزبًا للوطنية المصرية لا ينفي أبدًا أن ثورة ٢٣ يوليو والضباط الأحرار الذين قاموا بها كانوا يقلون وطنية عن الوفديين، بل أذكر أن بُعد ثورة ٢٣ يوليو الاجتماعي كان أعمق بكثير من نظرة الوفد لذلك البعد، والمعارك الطاحنة التي خاضتها ثورة ٢٣ يوليو ضد الرجعية العربية والمحلية وإسرائيل وأمريكا وبريطانيا وفرنسا هي خير دليل على أن تلك الثورة أقضَّت مضجع الغرب الأوروبي والأمريكي الذي ظل، وإلى الآن، ضد أن ترفع مصر رأسها أو أن تقوم لها قائمة.

ومن أجل هذا كان احتفالي بخطاب مبارك، فها هو سليل ثورة يوليو يعترف ويسجل للوفد عيده وتاريخه ودوره، بينما وفد سراج الدين يريد أن يمحو ثورة قامت لتحيل شعارات الوفد، ودعوته للاستقلال وإنهاء نفوذ السراي إلى واقعٍ عملي نحياه اليوم.

لقد أحزنني تمامًا هذا الموقف للوفد من ثورة يوليو، وهذا التحالف غير المقدس بينه وبين بعض فصائل الإخوان المسلمين للقضاء على يوليو، إنها إذن أحزاب وجماعات تقوم لا لتقدم لبلادنا ولمستقبلنا حلًّا ووجودًا، ولكنها عادت لتصفي الحسابات مع عبد الناصر — وبكل شجاعة — بعد أن توفاه الله. لقد علمنا الإخوان المسلمون حمل السلاح ضد البريطانيين وضد الإسرائيليين وتعلمنا من الوفد أن الدستور دستور، وأن الشعب مصدر

السلطان، وأن الأمة فوق الحكومة؛ أما هذا الذي يبشران به اليوم من عودة لتصفية الحساب مع يوليو فأؤكد لك يا فؤاد «باشا» ويا مولانا عمر التلمساني وصلاح أبو إسماعيل أنها جهودٌ فاشلة سوف تذهب مع الريح؛ فقد أصبحت الثورة ليست ثورة العرب فحسب، وإنما ثورة العالم الثالث كله، ولم يعد التصرف فيها ملكًا لكم أو لي أو لأحد، لقد أصبحت ملكًا للتاريخ، وما أروع أن تكسبوا الغد بأن تغيروا موقفكم من الماضي، بدل أن تخسروا الغد وتكسبوا التاريخ، حتى لو كسبتم الجولة من التاريخ فإنكم تكسبون في هذه الحالة جولة مع الأشباح.

أعجبني خطاب الرئيس، خاصة بعد حادثة الطائرة والباخرة، لا لأنه نادى بأهمية وضرورة الصحوة، ولكن لأن الخطاب نفسه كان فيه «صحوة»، لم يكن فيه وقفة مع النفس، وأنا أكره كلمة وقفة تمامًا، وإنما كان فيه صحوة مع النفس لإنقاذ النفس وإعادة التنفس للجسد المصري المتوقف، وليس الواقف مع النفس …

أعجبني لأنه كان بسيطًا وصادقًا ووطنيًّا، وجعلني لأول مرة منذ زمنٍ طويل أتطلع إلى المستقبل، وأنا غير منزعج أو مذعورًا. يا ألطاف الله … إن القافلة ممكن أن تعود مرةً أخرى تسير … ومصيرنا ممكن ألا يكبل إلى الأبد بحكاية ٩٩ في المائة من أوراق اللعبة والعلاقات الخاصة جدًّا، ومصيرنا المعلق رهن إشارة تصدر من مساعد وزير الخارجية …

أعجبني لأنني عدت أحسُّ أن إرادتي المصرية تحررت، وأنني ممكن ألا أعيش عالة على الإحسان والقروض، وأحيل جيشي إلى قوات تابعة للنجم الساطع أو الهاوي.

صحوة الخطاب أيقظتني، ليس لأنني كنت أنا أو غيري نائمين، ولكن لأننا كنا نكاد نفقد الأمل أن تعود مصر مصر، وأن تعود لها إرادتها.

يا أصدقائي وأحبابي في الإخوان والوفد والتجمع والأحرار والعمل والناصريين والحزب الوطني، لماذا لا نكفُّ عن الحديث عما جرى وكان، بينما الذي يجري الآن أخطر بكثير مما جرى وكان؟ لماذا لا تضعون في اعتباركم أن الأجيال الشابة فقدت إيمانها بكم من فرط ما أغرقتموها في خلافاتكم التاريخية؟ بينما الناس تكويها نار الحياة اليومية والمشاكل الواقفة بدون حل حتى تستقر على جواب للسؤال: هل كانت ثورة يوليو جريمة أم كانت أعظم ثورات مصر في القرن العشرين؟ فلنفرض أنكم قررتم بإجماع الآراء أنها كانت جريمةً كبرى، فماذا تقترحون أن نفعل؟ أن نأمر الخمسين مليونًا بإدارة عجلة التاريخ إلى يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢م لنبدأ من جديد بداية ترضيكم جميعًا؟ وهي بداية من المستحيل أن تُقبَل؛ لأنكم من المستحيل أن ترضوا جميعًا على أي عهد، أو تُجمِعوا على أية طريقة

للثورة، أو أي طريقة للحكم، والمنتظر لحل الخلافات بينكم، حتى نتفرغ لإنقاذ مصر، هو تمامًا كالمنتظر لكي يمر الجمل من ثقب الإبرة.

افعلوا هذا أرجوكم، قبل أن ينفضَّ الناس عنكم جميعًا؛ فالناس في وادٍ وأنتم في وادٍ آخر، والخيط الذي بينكم وبينهم على وشك أن ينقطع تمامًا، وإذا انقطع الخيط ضعتم؛ فعلى الأقل أنقذوا أنفسكم …

إلى الأستاذ «جلال الدين الحمامصي»

أعتقد أنه بصدور القوانين التي فتحت حسابًا في البنك الأهلي لسداد ديون مصر الخارجية، تُوِّجت الحملة التي قادها الكاتب الكبير جلال الدين الحمامصي، تتويجًا لم أكن أتوقعه بمثل تلك السرعة والهمة … وهكذا أهنئ الدكتور علي لطفي رئيس الوزراء على أنه أثبت في أول امتحانٍ سريع له أنه قرن القول بالعمل، وأن روحًا جديدة قد جاءت بمجيئه، أما أستاذنا جلال الدين الحمامصي، فماذا أقول له؟ سلمت يدك أيها الرجل، ودمتَ لإخلاصك لكل كلمة تكتبها لأني أعرف أنها نابعة من صميم صدقك مع نفسك وواجبك ورأيك …

ولكن اسمح لي أيها الصديق أن أبدي رأيي المتواضع في حكاية أن ندفع، نحن الشعب، ديون مصر الخارجية تلك. إنها دعوة — من ناحية المبدأ — سليمة مائة في المائة … ولكنها في الواقع مسألة فيها شكٌّ كبير …

فالديون التي علينا ديون أخذنا معظمها من الولايات المتحدة ومن البنك الدولي ومن بعض الدول الأوروبية، أي من الدول الغنية، دول العالم الأول … وهي دول تشترط لإعطائنا القرض شروطًا، منها نسبة فائدة عالية جدًّا، بعضها يصل إلى ١٦ أو أكثر في المائة، هذا غير اشتراطها أن يتم شحن المعدات على سفن أمريكية، وأن تقوم الشركات الأمريكية بتنفيذ معظم المشاريع، أي هي نقود تعطيها أمريكا وغيرها باليمين، وتأخذ معظمها باليسار … هذه واحدة.

الثانية أننا لسنا وحدنا الدولة المديونة في العالم الثالث، كل دول العالم الثالث مديونة للعالم الأول، حتى الدول الأوروبية، يوجوسلافيا وبولندا والمجر ورومانيا وغيرها مديونة.

وقد كانت هناك نظرية تقول إن الدائن هو الأقوى دائمًا، لأنه باستطاعته، على أقل القليل أن يكفَّ عن إقراضك فتتوقف أنت عن السداد وتفلس.

ولكن مع أني غير اقتصادي بالمرة، أستطيع القول: إن الدائن لا يدفع لك خوفًا منك، إنما هو يدفع خوفًا على نفسه وعلى نقوده، لأنك إذا توقفت أنت وأفلست ضاعت نقوده هو كبنك أو كمقرض.

بمعنى أن مصلحة العالم الأول أن يظل يُقرِض العالم الثالث، حتى يظل هذا العالم الثالث يكدح ليُسدِّد أقساط الدين والفوائد. في وضعٍ كهذا لا بد أن ينقلب الموقف ويصبح المدين هو الأقوى، هو الذي يهدد الدائن بالتوقف عن الإنتاج، ويعلن إفلاسه، وليخبط الدائن رأسه في الحائط بعد هذا.

ولكني لا أطالب بأن تعلن مصر — لا قدر الله — إفلاسها وتوقُّفها عن الدفع، إنما أنا أطلب بأن نتوحَّد مع المديونين الآخرين لتكوين المنظمة الدولية للمديونين على نسق منظمة الدول المصدِّرة للنفط «الأوبك». فقبل قيام الأوبك كانت الدول التي تستورد البترول تملك في يدها زمام الموقف، وهي التي تحدد سعر برميل البترول باعتبارها تحتكر القدرة الشرائية للنفط. وبعد قيام منظمة الأوبك انقلب الحال، وأصبحت الدول المصدرة للمادة البترولية الخام هي الأقوى، وهي التي تحدد سعر النفط، وهكذا ارتفع سعر البرميل من دولارين إلى ٣٤ دولارًا، طبعًا بفضل حرب أكتوبر المجيدة.

فلماذا لا نصنع نحن المديونين نفس الشيء، وكما كونت الدول التي لا تخضع للشرق أو للغرب منظمة للدول غير المنحازة وأصبحت قوةً دولية يحسب لها ألف حساب، لماذا لا نصنع نحن المديونين مع أكثر من مائة دولةٍ أخرى مديونة مثلنا، منظمة الدول المديونة «م. د. م» ونذهب قوةً متحدة إلى البنك الدولي والعالم الأول ونقول: اسمعوا يا جماعة، أنتم لديكم فائض من الزبد تلقونه في البحر، وفائض من القمح تطعمونه للأسماك، وفائض من كل شيء. لديكم المال والبضائع والغنى كله، ونحن لدينا المجاعات والكوارث الاقتصادية والتضخم الرهيب … ونحن بصراحة لن نستطيع أن ندفع لكم إلا كذا من أقساط الدين وإلا كذا من الفوائد … نُحدِّد نحن ما تستطيع أن تدفعه كل دولةٍ مديونة، ولا يُشكِّل عبئًا رهيبًا على ميزان مدفوعاتها بحيث يعجزها عن الحركة والحياة والإنتاج. أي نحن الذين نُحدِّد حجم ما نستطيع أن ندفعه كل عام سواء لهذا أو لذلك.

وإذا لم يعجب هذا الكلام البنك الدولي أو العالم الأول فليشربوا من أي بحر يعجبهم، أو فليأتوا بطائراتهم وأساطيلهم ويحتلونا، وعليهم حينذاك أن يعملوا هم من أجل إطعامنا وتسديد ديونهم.

أجل أيها السادة، نحن المديونين، نحن الأقوى، وأبدًا ليسوا هم، فقط كل ما يجعلنا ضعفاء ومتهالكين أننا نواجه هذه القوى الغنية الكبرى منفردين، وبائسين وخاضعين.

أما لو تكتلنا، فستخضع تلك القوى لنا، ليس حبًّا في سواد عيوننا، لكن لأنها لا تستطيع أن تفعل غير هذا، وإلا توقفنا جميعًا، كل المديونين، عن الدفع، وأفلست هذه القوى الغنية الكبرى.

لماذا لا تقود مصر، كما قادت حركة عدم الانحياز، هذا التيار وتنادي بإنشاء «م. د. م»؟

إنني في انتظار تعليقٍ اقتصادي على اقتراحي هذا …

وفي نفس الوقت لا أملك إلا أن أعود أحيي الأستاذ جلال الدين الحمامصي على حملته، وإذا ما أنشئت «م. د. م» فلتحول المبالغ التي تتجمع لسداد الديون، لإقامة مشاريع إنتاجية تساعدنا على سداد مديونيتنا من ناحية، ومن ناحية أخرى تمنع عنا التضخم والغلاء ومد اليد «للي يسوى واللي ما يسواش» …

الكلام لطوبة والفعل لأمشير

أحيانًا يصبح عدم الكتابة كتابة …

وصحيح أنه لا توجد عند الكاتب أي حالة من حالات عدم الكتابة؛ إذ هو دائمًا يكتب، صحيحًا يكتب، ومريضًا يكتب، صاحيًا يكتب، نائمًا يكتب، إذ الجهاز الخالق منتج ومطور وراصد الأفكار والأحاسيس والتخاريف داخل عقله، لا يتوقف أبدًا عن العمل، إنه مثله مثل الموتور للسيارة الذي يعمل باستمرار.

كل ما في الأمر أن حالة الكتابة الفعلية، مثلها بالضبط مثل حالة، تعشيق الفيتيس، لإعداد العربة للسير …

وهكذا تصبح حالة عدم الكتابة كتابة، كل ما في الأمر أنها كتابة مع إيقاف التنفيذ، أو مع الموتور الدائر على الفاضي دون أمر عصا «الفيتيس» بالسير. وقد اضطررت خلال الأسابيع الماضية إلى التوقف عن مزاولة «فعل» الكتابة بالنظر إلى سفري لبغداد للتحكيم في مهرجانها المسرحي الأول. ولنا حديث قادم عن هذا المهرجان وعن الأنيميا الخبيثة التي أصابت المسرح المصري بالقياس إلى حالة الصحة المفرِطة التي أصبح يتمتع بها المسرح العربي في بلاد علَّمناها نحن — ومنذ أقل من خمسة عشر عامًا في أحيان — فنَّ المسرح. ولكن إحدى النتائج الهامة بالنسبة لهذا المهرجان، أنني أُصبتُ في آخر أيامه لا بالأنيميا المسرحية الخبيثة وإنما بإنفلونزا عراقيةٍ محترمة. لي الآن، حتى وأنا أكتب هذه الكلمات، عشرون يومًا وأنا أعاني منها. فيروس «عراقي» لا بد أنه اشترك في الحرب العراقية الإيرانية، وأصيب بكل القنابل والقذائف والغارات حتى تحصَّن منها تمامًا؛ ولم يعد يؤثر فيه أي مضادٍّ حيوي وأي راحة وأي علاج! مع أن الذي يتولى علاجي اثنان من خيرة أطباء مصر، الدكتور حسن حسني أستاذ الصدر والدكتور مصطفى المنيلاوي أستاذ الأمراض الباطنية، رغم كفاحهما الرهيب، وأدويتهما المعجزة، فالفيروس ماضٍ ينخر في جسدي وعظامي،

ويخرج لسانه لي مؤكدًا أنه سيمضي إلى نهاية شوطه الذي قد يأخذ شهرًا بأكمله، باعتباره فيروسًا مقاتلًا من المؤكد أنه ساهم في قهر إيران وشارك، مع الجيش العراقي الباسل في «إبادة» طوابيرها الزاحفة!

المهم، أعود فأقول: إن عدم الكتابة يصبح أحيانًا كتابة في أعلى مستوياتها. وقد بدأت رحلتي للعراق ومع المرض قبل تفاقم الأحداث الأخيرة بسويعاتٍ قليلة. ولأني لم أكن أستطيع أن أكتب، فكل ما كان يمكنني أن أصنعه، أن أراقب. وحتى لا أراقب الأحداث من داخل مصر حيث كان مركزها الرئيسي وإنما من هناك، من أقصى الشرق، وحسنٌ أن كان معي راديو يابانيٌّ صغير الحجم رهيب القدرة؛ إذ باستطاعته أن يعثر على أي محطةٍ إذاعة في العالم كله، من أول أمريكا الجنوبية إلى جزائر فيجي. وهكذا لم يفتني تعليقٌ واحد من تعليقات مختلف الدول والمحطات على هذه الأحداث.

أول ما سمعت كان خبرًا عاديًّا ضمن نشرة أخبار لندن للساعة الواحدة، تقول إن ست طائرات إسرائيلية قد أغارت على مقر منظمة التحرير في مدينة تونس، وإن عدد القتلى يربو على الستين، وإن عدد الجرحى يبلغ المئات، وإن مصير «أبو عمار» لا يزال مجهولًا.

وقد صيغ الخبر وطريقة إذاعته بلهجةٍ عادية تمامًا، وكأنها لهجة خبر فوز إحدى فرق إنجلترا لكرة القدم على فريق آخر، إلى درجة أني لم أصدق أنه حقيقي، ورحت أجري كومبيوتر الراديو الصغير على كل محطات الدنيا لأتحرَّى الخبر. وتوقف الكومبيوتر عند محطةٍ عربية تذيع باللهجة الفلسطينية وظللت أسمع، فإذا بالمحطة تهاجم أبا عمار بطريقة لم أسمع بمثلها، قائلة إنه استسلم للعدو الإسرائيلي، وإن الخراب والدمار والقتل يحل بالشعب الفلسطيني أينما وُجد أبو عمار. وتأكدتُ بالطبع أنها إذاعةٌ إسرائيل الموجَّهة للفلسطينيين؛ ولكن المفاجأة كانت صاعقة حين انتهى الحديث فإذا بالمذيع يقول: هنا صوت فلسطين من دمشق العربية الصامدة!

حديث كهذا يُذاع بعد سبع ساعات من وقوع الغارة، ومحاولةٍ مجرمة لاغتيال ياسر عرفات، محاولةٍ ضاربة عرض الحائط بكل القوانين الدولية والأعراف، وحاظية باعتراف أمريكا وتأييدها المطلق! شيءٌ غريب جدًّا جدًّا! من دمشق «قلب» العروبة «الصامد»! وتوقعتُ أن تصحِّح الإذاعة موقفها، وتُدين الغارة، وتدين إسرائيل أو أمريكا، ولكن شيئًا مما توقعتُ لم يحدث.

وأنتقل إلى بقية المحطات العربية، لعلمي أن حادثًا كهذا لا بد أن تقطع معه الإذاعات العربية إرسالها العادي، وتُذيعه وتُندِّد به، بصوت ملوكها ورؤسائها شخصيًّا، وأن تلغي

البرامج العادية، وتخصِّص اليوم كله للتعليقات حول الحدث وأخذ آراء الناس، وحتى آراء رجل الشارع. ولكن المحطات الإذاعية العربية كلها، بعون الله، من الدار البيضاء حتى الشارقة، كانت ماضية في إرسالها العادي، وكأن شيئًا ما لم يقع؛ ما يطلبه المستمعون، حديث المرأة والرياضة، آداب المعاشرة الزوجية في الإسلام، تعليم اللغة الإنجليزية ونطقها الصحيح، قصة من التراث العربي المجيد! ولا شيء أبدًا عن أكبر صفعة نالت الأمة العربية على مسمع ومرأى من العالم أجمع! هكذا، بالبلطجة والقوة والسفالة. ولولا التعليق اليتيم القادم من القاهرة والاستنكار الواضح الذي بدا في التعليق لأصبت بالفالج من الأمة العربية التي «هي والأحداث تستهدفها تعشق اللهو وتهوى الطربا ... لا تبالي لعب القوم بها أم بها سرف الليالي لعبا» هكذا قال شاعرنا الشعبي العظيم حافظ إبراهيم منذ أكثر من ثمانين عامًا، والقول ما زال ساريًا إلى الآن.

ظللت بقية اليوم حائرًا بين محطات الإذاعة الأجنبية التي خصصت برامج بأكملها للحدث، وبين محطاتنا العربية التي اكتفت بأن تسوق الخبر مصحوبًا بصفات مثل الاعتداء الغاشم أو المجرم، لإسرائيل في أحيان، والعدو الإسرائيلي في أحيان، واستنكارًا باهت اللون لتأييد أمريكا لإسرائيل، «ذلك الذي يخرق كل الأعراف الدولية»!

حين يئست أن ينطق العرب، بَلْه أن يفعلوا شيئًا، رحتُ أفكر ... إسرائيل قالت إنها قامت بهذه الغارة ردًّا على مقتل المدنيين الإسرائيليين الثلاثة في لارناكا، وجاء هذا الرد بعد ثلاثة أيام فقط وربما أكثر قليلًا.

وعملية الغارة الإسرائيلية التي ضربت قنابلها بالسنتي والمِلِّي، مباني منظمة التحرير، لا يمكن أن يستغرق الإعداد لها أقل من ستة أشهر بالتمام والكمال.

إذن العملية مُعدَّة وجاهزة، بالضبط مثل عملية ضرب المفاعل النووي العراقي، وكان لم يبقَ على تنفيذها إلا ذريعةً ما.

في حالة المفاعل النووي العراقي اتخذت إسرائيل من حادث إطلاق النار على السفير الإسرائيلي في لندن ذريعة للغارة الجاهزة الإعداد تمامًا، وقبلها بشهور، وللآن لم يثبت مَن أطلق النار على السفير الإسرائيلي، وأكاد أقسم أن الفاعل كان أحد أفراد «الموساد» المخابرات الإسرائيلية نفسها.

في حادث الغارة على تونس كانت الذريعة مقتل ثلاثة مدنيين في لارناكا، وإن كنت لا أستطيع أن أقسم أن الفاعل أو الفاعلين من الموساد، وإذا كان الفاعلون هم فلسطينيين فأعتقد أنهم جناحٌ منشق، وما أكثر الأجنحة الفلسطينية المنشقة التي تتولى الموساد

وبواسطة «الريموت كنترول» توجيههم إلى حيث تريد، وإلى من يغتالون بالضبط، وفي أي وقت.

إننا نواجه دولة كلها تقريبًا تعمل لحساب الموساد؛ إذ الموساد — كما يقول الكاتب الإسرائيلي «هاليفي» — هي نواة الإرهاب التي أنشأ عليها بن جوريون وبيجين وشارون ورابين وأخيرًا انضم إليهم المحترم بيريز؛ ما يسمى جيش الدفاع الإسرائيلي، وهو المؤسسة العسكرية الإرهابية التي تقود إسرائيل الآن وتوجِّه سياستها. ومن أجل هذا يقول الكاتب الإسرائيلي «هاليفي» إن إسرائيل ستظل ترهب وتخلق وتختلق الإرهاب العربي لترد عليه بإرهابٍ إسرائيليٍّ متوحش، هو عماد إسرائيل الأول في القضاء على الشعب الفلسطيني وتصفية القضية الفلسطينية باجتثاث أصحابها؛ فهي تعلم علم اليقين أن بقاء الشعب الفلسطيني يعني بقاء قضيته. فبقاء شعب وقضية معًا مصيره دائمًا أن ينتصر الشعب وتُحلَّ القضية. والشعب الإسرائيلي خير مثال على هذا، فقد بقي حسبما يزعمون، ثلاثة آلاف عام، وهو يكافح «لاستعادة» وطنه، وأخيرًا وبالجبر والقهر والقوة والإرهاب استعادوه، وهو لا يريد أن يكرر المأساة، فليكن الأمر هذه المرة اجتثاث الشعب الفلسطيني نفسه.

وإسرائيل تعلم جيدًا أن اجتثاث شعب على مرأى ومسمع من العالم الحاضر «المتحضر، أو المفروض أنه كذلك» ليس بالأمر السهل، ولذلك فالحل هو قطع الرأس لذلك الشعب، فإذا كان اليهود قد التفوا حول العهد القديم والتلمود وجعلوه وطنهم أيام الشتات، فالشعب الفلسطيني يتلف حول منظمة التحرير، ويجعل منها وطنه الأرضي الأصلي؛ ولهذا فقد كان قطع الرأس — منظمة التحرير — هو المطلوب.

وهكذا بينما إسرائيل وأمريكا يضحكان علينا بلعبة السلام، وطريق السلام، وهل يكون الحوار بين الأطراف المعنية فقط، أو في مؤتمرٍ دولي، بينما كل هذا الحديث يدور، كانت المنظمة الإرهابية الإسرائيلية تجهز لقطع رأس الشعب الفلسطيني.

ومن المثير للدهشة هنا أن إسرائيل لم تضرب أولئك الذين ينادون باستمرار الحرب مع إسرائيل، وانشقُّوا على عرفات لهذا السبب، وهم بجوارها في سوريا والبقاع، ولكن التجهيز الأساسي كان لضرب ياسر عرفات ومنظمة التحرير المطالبين بالسلام، لأن السلام والاستقرار هما العدو الأكبر لقادة المجازر والإرهاب التي لا يعتنقها فقط حزب الليكود وكاهانا والمنظمات الإرهابية الصغيرة، ولكن ثبت للأسف أن بيريز ذلك المبتسم هدوءًا وسلامًا وزعيم حزب العمل الاشتراكي الديمقراطي هو أيضًا من الأعضاء السريين في جماعة المجازر الإسرائيلية.

سأكون صريحًا وأقول إن إسرائيل لا تخاف من هؤلاء الذين ينادون بالكفاح المسلَّح ضدها، وعلى رأسهم سوريا وليبيا، فإن هذا يتيح لها أن تغذي لهب فرن الإرهاب والحقد والمجازر التي تعدُّها للشعب الفلسطيني.

ومن أجل هذا، ومن أجل هذا فقط، كان على إسرائيل وأمريكا أن تحرج الرئيس حسني مبارك بحيث ينفض يده من عملية السلام، وأن ينسحب الملك حسين تجاه سوريا الداعية لحرب لا تقوم أبدًا، وأن توقع بين المنظمة والملك حول فقرة في بيان لا يقدم ولا يؤخر لأن المطلوب في النهاية هو: فك حلف السلام الذي قد بدأ يقوى ويشتد بين مصر مبارك والأردن والمنظمة والعراق. والغريب في الأمر أن بعض الدول البترولية لم تكن راضية عن هذا الحلف باعتبار أنها ضد عودة مصر، حتى لو كانت العودة لمصلحة الشعب الفلسطيني والقضية العربية بشكلٍ عام!

لست أذكر من قال هذا، ولكنه قال: إن الطريق إلى السلام ما لم يصحبه إعدادٌ عسكري قوي وفعال، إنما هو الطريق الحقيقي للاستسلام.

وقد أثبتت لنا الغارة وخطف الطيارة أننا في ظل الإمبراطورية الأمريكية الإسرائيلية المهيمنة على منطقتنا لا بد أن تكون لدينا وسيلة ما من وسائل الدفاع عن النفس، فهم «يتحدثون» عن السلام، ولكنهم «يفعلون» الخطف والإرهاب والتهديد، ونحن «نفعل» من أجل السلام، ونتصور أن هدفنا هذا لا بد أن يكون وسيلتنا في نفس الوقت، أي باستبعاد فكرة العدوان والقرصنة، وحتى الطعن في الظهر.

حسن جدًّا ...

لقد انتهت الضجة، وعدنا نتحدث عن الطريق إلى السلام، وعاد «هوايتهد» يبشر بمستقبلٍ مشرق للمحادثات القادمة.

وكأن شيئًا لم يكن!

لا أيها السادة ... لقد كان هناك شيءٌ بشع ومخيف. وعلينا إما أن نستسلم ونحيا تحت التهديد و«نمشي بجوار الحائط» ...

أو نبدأ نفكر، و«نعمل» من أجل أن نعيش شعبًا ذا كرامة ...

ولا كانت الشعوب إذا حكم عليها أن تحيا في ذل واستكانة ...

ولا كنا ... إذا ا خترنا هذا المصير المهين.

الغرق القادم في الطريق

ألا تشمون معي رائحةً غريبة لم نعهدها أبدًا ومنذ زمنٍ طويل في عالمنا العربي، رائحة بالقطع ليست منبعثة من داخله وإنما هي على وجه التأكيد محقونة من خارجه؛ شيءٌ غريبٌ نشاز، تسلل رويدًا رويدًا ودون أن ندري، أو لأننا ظللنا نتجاهله، ولا نحفل به حتى صار أمرًا واقعًا، وحقيقةً ملموسة لا يمكن لأي إنسان أن ينكرها.

أن يختلف الزعماء والحكام العرب، أو يتفقوا، هذه حكايةٌ قديمة ومعروفة تعودنا عليها من قديم الزمان، حتى أصبحنا نحن الشعوب العربية لا نقيم لها وزنًا، مسألة غير أساسية، فقد يتفق هذا الحاكم أو ذاك اليوم ثم يختلفان غدًا، ثم يعودان إلى الاتفاق. قد تتلاقى بعض النظم العربية وتنسجم ثم تتعارج وتلتحم أيضًا، واقعٌ عربيٌّ أليم ولكنه لم يكن يُشكِّل خطرًا كبيرًا ما دامت القاعدة العريضة من الشعب العربي، أي الأمة كلها، في حالة توافق وتلاحم وانسجام.

أما ذلك الذي يُشكِّل خطرًا حقيقيًّا فعلًا، أكبر الأخطار في رأيي وأعظمها، بل هو الكارثة بعينها؛ فهو أن تبدأ النعرات الإقليمية تأخذ شكل الاختلاف والتنابز الشعبي، أي يصل المرض إلى صلب الأمة وعمودها الفقري الصلب المتين.

فعلًا، بدأتُ، وبدأتم بلا شك تشمون تلك الرائحة وتلاحظونها، لست واهمًا في الإحساس بها أو مبالغًا، بل حتم الوضع أن يبدأ الإنسان يتصدى لها علنًا، ويكشفها، بل ويكشف جذورها، ومن أين؟ ولماذا جاءت؟ وما الهدف؟ وإلى أي مصير تريد أن تؤدي بنا؟

نعم، نحن أمةٌ كبيرة، هذا صحيح، تعدَّى مواطنوها المائة والعشرين مليونًا، تحتل مساحةً شاسعة من الأرض، هذا صحيح، من حافة المحيط الأطلنطي إلى حافة الخليج العربي، تكاد تشكل أهم جزء من الكرة الأرضية، وكأنما هي القلب من العالم ومركز الدائرة.

ومن الطبيعي في رقعةٍ كبيرةٍ عريضة هذا شأنها، حتى لو كان لها كل مقومات الأمة الواحدة والدين الواحد، اللغة الواحدة، والتكوين النفسي المتشابه، من الطبيعي أن تكون هناك خلافات واختلافات بين الأمزجة والطباع وحتى بين السياسات والمواقف، من الطبيعي أن يحب كل إنسان وطنه الأصغر كما يتعصب لقبيلته أو قريته أو منبته، هذه كلها أمور طبيعية واردة ومفهومة وموضوعة في اعتبار أي عقلٍ مفكر لهذه الأمة ككل، ويعمل من أجلها ككل، ويحافظ عليها ككل، بل ويموت من أجلها ودفاعًا عنها.

ولكن مع افتراض أن كل قرية من حقها أن تسخر بعض الشيء من القرى الأخرى، ومن حق كل قبيلة أن ترى من العيوب في القبائل الأخرى وأنها أقل مزايا منها ومن إنسانها.

مع افتراض أن كل هذا أمرٌ حادث ويحدث، إلا أن هذا لم يمنع أبدًا — ولا يمكن أن يمنع — أن تشكل كل القرى وطنًا، وكل القبائل وكل تلك المواقع الصغيرة المتناثرة وطنًا، وأن تشكل الأوطان أمةً واحدة سليمة البنيان، مدركة أنها وحدة لا يمكن أن تتجزأ، إذا اشتكى عضو منها تداعى له سائر الأعضاء، إذا أضير جزء منها، هبت الأجزاء جميعها تدفع عنه الخطر والضرر، وقد كنا فعلًا كذلك.

كنا كذلك حتى ونحن مستعمرون، يعمل الاستعمار القديم بلا هوادة على التفريق بيننا، وعلى طعن وحدتنا ليل نهار، وعلى إثارة الأحقاد القديمة والحزازات وتضخيمها، دائمًا حاولوا تقطيع أوصالنا وتقسيمها إلى مشرق ومغرب، والمشرق إلى عدة مشارق والمغرب إلى عدة مغارب، والمغرب الواحد إلى طوائف واتجاهاتٍ متناحرة تطعن بعضها البعض بلا رحمة؛ ذلك أن شعار الاستعمار القديم ذاك كان السياسة المعروفة: فرِّقْ تَسُد …

ورغم هذا لم يستطع ذلك الاستعمار أبدًا أن يقطع أوصالنا أو يوصلنا إلى درجة التطاحن الأهلي.

بل أكثر من هذا؛ لم يفشل الاستعمار في فض تجمعنا فقط، بل نجحنا برغم مكره ودهائه في التكاتف والتلاحم. وكلما ثارت قطعة منا تطلب الحرية والاستقلال هب الوطن العربي الشعبي، وأحيانًا الرسمي بأكمله يعاضده ويؤيده، ليس بالقول وإنما بالمال وبالسلاح وبالرجال وبكل شيء؛ هذا ما حدث في ثورة لبنان ضد الاستعمار الفرنسي، وفي ثورات مصر والسودان ضد الاستعمار الإنجليزي، وفي ثورة تونس والجزائر والمغرب ضد الاستيطان الفرنسي، وفي ثورة العراق ضد خونته الحاكمين المتعاونين مع الاستعمار الإنجليزي عليه.

واستقل العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه …

لم يعد هناك عَلمٌ أجنبيٌّ واحد فوق شبر واحد من الأرض العربية، ما عدا ذلك الجزء من فلسطين الحبيبة التي أيضًا مضينا صفًّا واحد نحاصره ونحاربه، ونطلب مع الفلسطينيين حقهم الشرعي المنتزع في أرضهم ووطنهم ودولتهم المستقلة؛ ليشكل عَلمها بقية قوس قزح الناقص من الأعلام العربية المرفرفة تتقارب أهلَّتها ونجومها وألوانها؛ لتوشك أن تصبح ذلك العلم الواحد الذي نرنو إليه ونتمناه.

ولكن مع الاستقلال، جاءت الخلافات أيضًا، وتكوَّنت من الحكومات محاورُ متعاركة ومعسكرات، ولكننا قلنا إن هي إلا أمور سيتكفل بها الزمن السريع، وحتمًا إلى زوال.

ولكن يبدو أننا لم نكن من بُعد النظر بحيث ندرك أن المسألة ليست بهذه السهولة التي تخيلناها وأن الحلم ليس قريب المنال، كما ظننا أو قاب قوسين أو أدنى من التحقيق.

وجاءت الحقنة غير المحسوسة ولكنها المحسوبة بدقة، تجلُّ على الوصف وبذكاء عدوٍ خارق وعارف تمامًا من أين وكيف يطعن!

هذه المرة لا يوجد استعمار أو احتلالٌ سافر نلقي عليه اللوم.

هذه المرة توجد «دول» مستقلة تمامًا، مصائرها كما يبدو لا بد أن تكون في أيديها، وتصرفاتها مفروض أنها محسوبة عليها.

هذه المرة تجيء الحقنة الرهيبة من الخارج، هذا صحيح، ولكن المناخ في الداخل كان مهيأً أيضًا، وبشدة لتفعل الحقنة مفعولها الأكيد القاتل. وليبدأ الأمر من لبنان بالذات …

والبداية من لبنان ليست صدفة، إنما هي اختيارٌ عميقٌ دقيق؛ فلبنان كان يشكل أكثر المناطق في الوطن العربي التهابًا وحساسيةً عرقية وطائفية وعقائدية، وأيضًا بداخله توجد أصابع وأيدي كثير من الدول العربية حتى البعيدة عنه تمامًا؛ واطعن يا أخ أخاك، واقتل يا مواطن جارك، وليتحوَّل الالتهاب بسرعة الحريق إلى دملٍ واسعٍ رهيبٍ مفتوح، بسرعة أيضًا تنتقل عدواه، وبسرعة أيضًا تنتشر ميكروباته وجراثيمه؛ بسرعةٍ هائلة تصاب الأمة العربية كلها بالحمى.

حمى حاكمية أو حكومية في مبدأ الأمر، ولكن القصد الأكبر كان أن تتحول إلى حمى شعبية، ومتى قال العراقي: أنا العراقي، فسوف يرد عليه المصري ويقول: أنا المصري، أنا الجزائري وأنا الليبي وأنا التونسي وأنا الخليجي بل وأنا الشارقي. وليبدأ التنابز بالإقليمية …

وليبدأ ذلك الإقليمي يكره الآخر كرهًا، ربما فاق كرهنا لعدونا نفسه …

وليجلس العدو على كرسيه مسترخيًا وقد نعم — لأول مرة — باله، فسوف تتكفَّل لا الحكومات العربية وحدها، ولكن الشعوب نفسها أيضًا؛ سوف تتكفل بحل إشكال وجوده وأمنه المزعوم، سوف تتكفل بشغل نفسها تمامًا حتى لا تعود تملك السيطرة حتى على أمنها هي، وعلى وجودها، على ثروتها نفسها.

لقد تكفَّل العرب أخيرًا بأنفسهم.

وويل العرب حين يتكفلون بأنفسهم.

وما قصة الأندلس ببعيدة حتى كان العالم العربي، المسلم فيهم يستعين على أخيه الحاكم العربي المسلم بالحليف الأوروبي الكاثوليكي؛ حتى سقطت أخيرًا غرناطة، وضاعت حضارة، وبدأت أمةٌ عظيمةٌ رائعة ينحسر ظلها من فوق سطح الأرض، ولا يبقى منها سوى بقايا ولاياتٍ متناثر كالآثار الباقية من مدينة هائلة خرَّبها، أول ما خربها أهلها، ولم يعد باقيًا منها سوى آثارٍ باهتة تدلُّنا فقط على ماضٍ حافل كان!

المسألة إذن خطيرةٌ جدًّا.

هي مسألة بقاء أو زوال.

مسألة وجود أو هلاك.

والبداية تبدأ هكذا؛

خلافات بين حكومات ومحاور.

العدوى تنتقل إلى الشعوب والأفراد.

ثم النهش الداخلي والسرطان في دم الأمة، بعده الموت.

أليس كذلك؟!

أنا لا يهمني أن يصيب ذلك الحاكم أو يختلف أو حتى يجرم …

أنا لا يهمني أن يصيب ذلك الحاكم في حكمه على خطأ الآخر، أو يتجنَّى.

أنا لا يهمني أبدًا أي خلاف حدث بين حاكمين أو حكومات.

الذي أصبح يهمني ويُقلق مضجعي هو أن الأمر وصل حد العراك الشعبي الداخلي؛ إذ كان قد أدى إلى حربٍ سافرة في لبنان.

فهو قد امتد تقريبًا إلى كل مكان في الوطن العربي بنفس البداية وبنفس الأعراض.

يا سادتنا الحاكم والحكومات، نستحلفكم حتى بحق المحافظة على وجودكم نفسه، بحق رغبة كل منكم الضاربة في البقاء والاستمرار، أن تصنعوا شيئًا يسد الثقوب في

السفينة؛ فهي الآن أمام أعيننا جميعًا ... تغرق، كل منا يتشبث بجزئه الخشبي الواقف عليه، ولكن السفينة ككل تغرق، ومعها ستغرقون ومعكم نحن نغرق.

بربكم. أي جنون هذا الذي يحدث؟ أي جنون؟!

هل أضعنا مع وحدتنا العقل أيضًا؟

كل العقل؟

ألم يعد عاقلٌ واحد، أو مبصرٌ واحد، يرى الغرق المحتَّم القادم!

الحكاية مش حكاية الغارة ولا الطيارة

على رأي صديقنا المرحوم «عبد الحليم حافظ» حين كان يقول: إخواني ... يا إخواني ... الحكاية مش حكاية السد إنما الحكاية، ثم يبدأ في رواية قصة ... قصة السد العالي من زاويةٍ أخرى.

على رأي عبد الحليم أقول: إخواني ... يا إخواني ... الحكاية مش حكاية الغارة ولا الطيارة، الحكاية أخطر وأعمق وأهم بكثير جدًّا من كل ما حدث، فإن ما سوف يحدث أخطر بكثير جدًّا مما حدث ويحدث الآن.

ونعود إلى القصة من أولها فأقول: إنني قد توقفت عن الكتابة لمدة أسبوعَين لإصابتي بإنفلونزا في العراق أثناء وجودي في لجنة التحكيم العليا في مهرجان بغداد المسرحي الأول، وبالمناسبة مبروك على الكويت فوزها بجائزة الإبداع الكبرى، أصبت بفيروس إنفلونزا يبدو أنه اشترك في الحرب العراقية الإيرانية وقاتل بشدة، ولم تفلح جميع المضادات الحيوية لقتله، بل كاد يقتلني أنا، وأنا إذ أملي هذه المقالة لا أزال صريع ذاك الفيروس الرهيب، ولكن هذه الفترة التي توقفت فيها عن الكتابة وتقريبًا عن الحياة؛ إلا إذا كانت الحياة نومًا متصلًا، في تلك الفترة أتيح لي على مهل أن أتأمل ما دار خلال الأسابيع القليلة الماضية، وبسرعة العرض البطيئة، وأتأمل ما حدث دون انفعالٍ يوميٍّ دائم ودون غضب، فإن الغضب هو مرحلةٌ سطحية من مراحل الانفعال في أمثال هذه المواقف، ولكن الأهم من الغضب أن ندرك بالضبط ما الذي نغضب عليه، ليصبح لغضبنا فاعلية، ولنستطيع أن نقهر هذا الذي أغضبنا.

هل يستطيع عاقل في هذا العالم أن يتصور أن إسرائيل حين أقدمت على غزو لبنان مثلًا، أو حين ضربت المفاعل النووي في العراق، أو حين قررت أن تُغِير على مقر منظمة التحرير في تونس وتقتل سبعين مواطنًا مدنيًّا، هل يستطيع عاقلٌ واحد أن يتصوَّر أن

إسرائيل كانت تفعل هذا، وهي لا تعرف مقدَّمًا أن ما تفعله سوف يقيم الدنيا ويقعدها ضدها؟ بالقطع كانت تعرف هذا وكانت تعمل حسابها، ولكن إسرائيل وأمريكا قد وصلتا إلى مرحلة لم يعد يهمهما الرأي العام العالمي في قليل أو كثير، ليس هذا فقط بل ابتكرتا وسائل للتغلُّب على عقبة غضبة الرأي العام العالمي عليهما. وفي عرض لكتاب المؤلف الإسرائيلي المطرود من إسرائيل «هاليفي» «إسرائيل من المجزرة إلى الدولة» في أعداد الرأي العام الماضية قال المؤلف: إن إسرائيل كانت تعرف مقدَّمًا أن مذبحة «صبرا وشاتيلا» ستثير الرأي العام العالمي ثورةً هائلة، ولكنها تعلمت واستخدمت تكتيكًا دقيقًا جدًّا وعميقًا جدًّا لمواجهة تلك الثورة؛ فهي أولًا شجعت في رأيي الخاص على قيام مظاهرةٍ ضخمة جدًّا في إسرائيل تكوَّنت من حوالي ٤٠٠٠٠٠ إسرائيلي ليشجبوا ما حدث في صبرا وشاتيلا؛ فوضح للرأي العام براءة اليهود وبراءة إسرائيل، كدولة، من العملية؛ لأن قسمًا كبيرًا من الرأي العام، يكاد يكون ثلث الرأي العام الإسرائيلي، يتظاهر أمام الدنيا، ويرفض هذه العملية، ويسبُّ بيجين وأريل شارون وإيتان، ومن قاموا بها؛ إذن إسرائيل دولةٌ متحضرة، إذن إسرائيل فيها معارضة، إذن إسرائيل ليست كلها مجرمة، وليست كلها مكونة من المجرمين، وهذا في حد ذاته خدم الخطوة التالية لإسرائيل، وهي امتصاص غضب الرأي العام بتحميل بعض الأفراد مثل «أريل شارون» و«إيتان» المسئولية جزئيًّا، ثم تحميل الكتائب المسئولية الكبرى وراء هذا العمل، إلى أن وصل إلى درجة أن بيجين قال: إن غير يهود يقتلون غير يهود، فما ذنبنا نحن؟ إذن المسألة هي الطائفية اللبنانية، والمسألة هي أن الكتائبيين قاموا بذبح الفلسطينيين، وكل تهمة إسرائيل تقلَّصت إلى أن أصبحت في النهاية التقصير في أداء واجبهم في حماية المواطنين الفلسطينيين العزل، هكذا خرجت إسرائيل كجسد، إسرائيل كدولة، إسرائيل كشعب، بريئة من العملية كلها، واتهم بعض الأشخاص بالتقصير في أداء واجبهم، وليس بارتكاب جريمة المذبحة. نأتي إلى مثلٍ آخر هو ضرب المفاعل النووي العراقي، فنجد أن المسألة رتبت ترتيبًا دقيقًا بحيث إن «بيجين» اجتمع مع «أنور السادات» في شرم الشيخ اجتماعًا لم يكن له داعٍ ولا سبب بالمرة، وبعد الاجتماع بأربع وعشرين ساعة كانت الطائرة الإسرائيلية تخترق ثلاثة مجالاتٍ جويةٍ عربية، وتدك المفاعل النووي العراقي. طبعًا انصبَّ بعض الغضب على إسرائيل وعلى الجيش الإسرائيلي، وعلى مجرمي الحرب الإسرائيليين؛ إنما الغضب الأكبر مع الحقيقة انصبَّ على «السادات» باعتبار أنه كان مجتمعًا مع «بيجين» وباعتبار أنه باتفاقية «كامب ديفيد» مهد لهذا الفعل، فمعظم غضب الرأي العام العربي بالذات انصبَّ على كامب ديفيد وعلى السادات، وليس على إسرائيل

المجرمة وإسرائيل المعتدية. ثم نأتي إلى آخر تلك الأمثلة، وهي الغارة على تونس. أصبح الآن واضحًا أن الغارة على تونس كانت مدروسة دراسةً دقيقة جدًّا ومعدة قبل حادث «لارناكا» بشهورٍ كثيرة لأن مثل هذا العمل لا يتم تدبيره بين يوم وليلة، وقد كان مطلوبًا القشة التي تقصم ظهر البعير أو السبب البسيط المباشر الذي يدفع إسرائيل للتظاهر بأنها غضبت لشيء ما فتقوم بهذا العمل، مثلما كان إطلاق النار على السفير الإسرائيلي في لندن حجة لضرب المفاعل، ولم تكن إسرائيل تنقصها الأسباب. ممكن لإسرائيل أو للمخابرات الإسرائيلية أن تقتل فعلًا أي إسرائيلي في سبيل مصلحة إسرائيل الكبرى، وفي سبيل مصلحة ما يسمى الشعب الإسرائيلي الكبرى، وهؤلاء ثلاثة أشخاصٍ عزل موجودون فوق يخت لارناكا من السهل جدًّا على أي عميل موساد أن يقتلهم، ومن السهل على أي منظمةٍ عربيةٍ مراهقة أن تنتهز الفرصة لتعلن أنها هي المسئولة عن الحادث، وبرغم أن ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية تبرَّأت تمامًا من هذا العمل وأدانته إلا أن إسرائيل أيقظت مرةً أخرى لدى الرأي العام العالمي فكرة أن الفلسطينيين إرهابيون، وليسوا ثوريين، هذا الاستيقاظ كان ضروريًّا لأن الغارة تمت تحت شعار ضرب الإرهاب تحت أي ظروف، وفي أي مكان من الوطن العربي يكون موجودًا فيه ما يسمون الإرهابيين أي «الفلسطينيين»، ذلك لأن إسرائيل في رأيي لم تعد القضية عندها مسألة حرب أو سلام أو مسألة صلح مع الدول العربية، إنما أصبحت قضية إسرائيل الآن هي استئصال صاحب القضية نفسه أي الشعب الفلسطيني؛ لأنها هي تعرف تمامًا أنه طالما بقي هناك شعبٌ فلسطيني فسيبقى دائمًا قضية له، وطالما بقي هناك شعب وقضية فسوف يجيء اليوم الذي ستنتصر فيه القضية، لأنها تأخذ من نفسها ومما حدث لليهود على مدى التاريخ شاهدًا على هذا. فالشعب الإسرائيلي خلق إسرائيل لأنه كانت لديه قضية وجود، وقضية تشتت ظل يعمل ويكافح ويخطط، إلى أن تحقق له في النهاية إيجاد وطنٍ قومي له على أرضٍ عربية، رغم أنف العرب ورغم أنف العالم، بل اعترف العالم في النهاية بهذا الأمر الواقع. إذن خطة إسرائيل كانت في حقيقة أمرها ولا تزال هي استئصال أصحاب القضية الذين هم الفلسطينيون، وقد كان الموقف العالمي قبل حادث «لارناكا» قد تهيأ بطريقةٍ خطيرة لإيجاد حلٍّ سلمي، مهما كان شكله، ومهما كانت فيه من تنازلات، فقد كان سينتهي آخر الأمر إلى الاعتراف بأن هناك شعبًا فلسطينيًّا حتى لو كان في اتحاد مع الأردن. هذه النقطة لا تريدها إسرائيل إطلاقًا، لا تريد لكلمة شعب فلسطيني أن توجد في القاموس السياسي الحديث، وتريد أن تمحوه، ولقد ظننا لفترة أن كلمة «جولدا مائير» حين سُئلت عن رأيها في قضية الشعب الفلسطيني، فاستنكرت فقالت: وهل هناك شيء اسمه الشعب الفلسطيني؟! ظننا

أن اليهود أو الإسرائيليين عدلوا عن هذه الفكرة، وهذا هو الخطأ والخطل الذي يصيبنا؛ أننا نتصور أن هؤلاء يتغيرون، هؤلاء الناس لا يتغيرون أبدًا، هؤلاء الناس مجانين حقًّا وصدقًا، والمجنون لا يمكن أن يقتنع بشيء إلا بأن يُنفذ ما في عقله من قناعات مهما كان ثمنها، ومهما فعل الآخرون لإثنائه عنها. إن العاقل وحده هو الذي يقتنع، والعاقل هو الذي يتغيَّر، والعاقل هو الذي يغيِّر المفاهيم، أما المجنون الذي يتصور أنه باستطاعته أن يعيد التاريخ ثلاثة آلاف عام إلى الوراء، ويعيش اليوم وكأن ثلاثة آلاف عام لم تمضِ، ولم تنقضِ! إنسانٌ مجنون كهذا وفكرةٌ مجنونة كهذه، يتجمع حولها شعبٌ مجنون كهذا، هؤلاء الناس لا يمكن أن يتغيروا ولا يمكن أن يتأقلموا. وفي كتاب هاليفي قال إن إسرائيل تعيش على الإرهاب، بمعنى أنها لا يمكن أن تتوقف عن إرهاب الفلسطينيين بإجلائهم تمامًا عن الأرض من ناحية، وإن استطاعوا، استئصالهم تمامًا أيضًا، وهم في الأرض من ناحيةٍ أخرى، بمعنى أن الإرهاب الإسرائيلي لا يمكن أن يتوقف، وسوف يستمر، وكان الذي سيوقفه شيءٌ واحد فقط وهو أن يقوم سلامٌ حقيقي بين الأردنيين والفلسطينيين وبين إسرائيل، هذه العملية كانت قد بدأت تنضج إلى درجة أن انجلترا قبلت أن يذهب إليها وفدٌ فلسطينيٌّ أردنيٌّ مشترك، وليست إنجلترا وحدها هي التي قبلت هذا، ولكن الدول الأوروبية كلها أجمعت على هذا الاقتراح، كذلك اليابان، كذلك معظم دول العالم، أو كل دول العالم فيما عدا الولايات المتحدة الأمريكية. موقف كهذا كان على إسرائيل أن تواجهه بشيء من اثنين، إما أن تقبل الأمر الواقع وتستسلم لفكرة السلام، وإما أن تختلق شيئًا خطيرًا وتفجر قنبلة تنسف هذا. وقررت أن تستعمل القنبلة التي كانت قد أعدتها لهذه المناسبة، ولكي ندرك الأثر المدمر الخطير لهذه القنبلة فلنقارن بين الوضع قبل «لارناكا» والوضع الآن. قبل «لارناكا»، كان كل الحديث عن السلام وعن مؤتمرٍ دولي لحل المشكلة وعن زيارة وفد فلسطيني — أردني لإنجلترا، وعن وجودٍ مصريٍّ قويٍّ مشترك مع وجودٍ فلسطينيٍّ قوي مع وجودٍ أردنيٍّ قوي مع وجودٍ عراقيٍّ قوي، وبدأت بعض البلدان العربية الأخرى تنضم إلى هذا التيار، وبدأت فكرة السلام تبدو وكأنها توشك على التحقُّق بين لحظة وأخرى، ذلك كان الموقف قبل «لارناكا» انظروا إلى الموقف الآن … لا يوجد وفدٌ فلسطيني — أردني بل يكاد التحالف ينفك، تونس تكاد تطرد القيادة الفلسطينية من أرضها، العلاقات المصرية الأمريكية في أسوأ درجاتها، الموقف كله لم يعد فيه بادرة سلام واحدة وإنما هو موقف متأزم، موقفٌ خطير، موقف أعلنت فيه كل من أمريكا وإسرائيل معًا أنها ستضرب أي دولةٍ عربية مهما كانت مستقلة أو غير مستقلة تأخذ الفلسطينيين أو تحتويهم على أرضها.

إذن الوضع انقلب تمامًا من طريق السلام إلى الطريق الذي تريده إسرائيل، وهو طريق الاستئصال.

ما هو التكتيك لاستئصال الشعب الفلسطيني؟ طبعًا حين نريد أن نستأصل شعبًا، فنحن لا نأتي بقنبلةٍ ذرية ونضربه ونستأصله؛ لأن الفلسطينيين في حالة شتات، مع أني لا أستبعد مطلقًا أن تفعل إسرائيل هذا يومًا ما. المهم هو ماذا يجمع الفلسطينيين؟ تجمعهم منظمة التحرير الفلسطينية، وهي «العهد القديم» في القضية الوطنية الفلسطينية؛ لأنه لا يوجد وطنٌ فلسطيني الآن معترف به، إنما توجد قيادةٌ شرعية هي الوطن، ولعلنا نتذكر الآن حين نريد أن نحدد ما هو الخط الفلسطيني السليم؟ هل هو الدخول في عملياتٍ إرهابية أم الدخول في تنظيمٍ ثوري مثل منظمة التحرير يتولى قيادة الشعب؟

إسرائيل نفسها دلَّتنا على الحقيقة؛ لأنها لم تضرب المنشقين على عرفات، إنما ضربت من؟ ضربت عرفات والقيادة الفلسطينية الشرعية؛ لأن الخطوة الأولى لإفناء أي شعب هي أن تضرب رأسه، وتجتثَّ هذا الرأس، بعد هذا لا يهم أن تبقى ذراعٌ متمردة أو ساقٌ متشنِّجة، هذه مسألةٌ بسيطة؛ فالخطوة الأولى كانت هي القضاء على الرأس الفلسطيني، وقد أُنقِذ الرأس الفلسطيني بأعجوبة هذه المرة، لكنه في رأيي إنقاذٌ مؤقت؛ فإسرائيل لن تسكت أبدًا إلا إذا اجتثت القيادة الشرعية لمنظمة التحرير، ليس فقط عرفات، لكن عرفات واللجنة التنفيذية العليا لمنظمة التحرير، وقد بدأت هذه العملية بأن انضمَّت أمريكا إلى إسرائيل في التهديد بضرب أي بلدٍ عربي يُئْوي القيادة الشرعية. وأستطيع الآن أن أقول بكل وضوح: إن البلاد العربية خائفة أن تُئْويَ هذه القيادة، لأنه لم يعد ثمة قانونٌ دولي أو مجلس أمن أدان الغارة الإسرائيلية، ولم يحدث من هذه الإدانة شيء بالمرة، الرأي العام العالمي كله استنكر الغارة الإسرائيلية، لم يحدث شيء؛ إذن احتمال ضرب أي بلدٍ عربي يُئوي القيادة الشرعية الفلسطينية احتمالٌ قائم، كيف ستحل هذه المشكلة؟ أي ستذهب؟ ما هو موقف الدول العربية من هذا الموضوع الخطير؟ تلك قضايا لا نناقشها نحن الآن، ولكن نتصور أنها ستَحلُّ نفسها بنفسها وهنا «الكارثة». إسرائيل إذن قرَّرت ودبَّرت أن تقوم بغارة تخترق فيها سماء دولةٍ مستقلة ومقرًّا لجامعة الدول العربية وتضرب القيادة الفلسطينية، وكانت تعرف قطعًا أن الرأي العام العالمي سيثور ثورةً كبرى عليها، والرأي العام، والشارع العربي، الأمريكي، والشارع الإسباني سيعجُّ بالاحتجاج وصرخات الإدانة، كانت تعرف هذا تمامًا، فماذا كانت خطتها الموضوعة سلفًا أيضًا؟ لم تكن وليدة اللحظة، ولكنها أيضًا خطةٌ متكاملة من لحظة الضرب إلى لحظة امتصاص غضب الرأي العام

العالمي، فماذا حدث؟! اختطفت السفينة الإيطالية، وقصة اختطاف السفينة الإيطالية هي علامة استفهام كبرى؛ لأني أكاد أقسم أن هذا العمل كان هو الخدمة الكبرى لإسرائيل، مهما كانت جنسية مرتكبيه، ومهما كان موقعه سواء في القيادة الفلسطينية أو في القاعدة؛ لأنه أنقذ إسرائيل من اختناقٍ حاد كانت تعانيه نتيجة للغارة على تونس، كان الرأي العام قد حاصرها بطريقةٍ مزعجة، إلى درجة أن أمريكا نفسها لم تستطع أن تُصوِّت ضد قرار إدانتها؛ فجاء هذا إنقاذًا … أربعة أشخاص طلعوا بأسلحة، وبعد ذلك قيل إن بحارًا اكتشف الأسلحة، فحاولوا أن يستولوا على السفينة، وكانت النتيجة أن قامت زوبعة ضد الإرهاب، وتحوَّل الموقف من الفلسطينيين الشهداء الضحايا لإجرام إسرائيل، تحولوا إلى إرهابيين مرةً أخرى في نظر العالم، والعالم كله هاج ضد الإرهاب، مع أن الإرهاب كان هو الذي تقوم به إسرائيل وأمريكا، بل حتى حين اشتركت أمريكا وهي دولةٌ كبرى — ولأول مرة في التاريخ — في حادثٍ إرهابيٍّ واضح، وهو اختطاف الطائرة المصرية، كانت أيضًا تقوم به بزعم مقاومة الإرهاب. بمعنًى آخر، هم الذين يصنعون الإرهاب، ونحن الذين نُتهم بأننا إرهابيون. وأنا أرجو وألحُّ على «ياسر عرفات» أن يحقق جيدًا في قصة اختطاف السفينة وكيف حدثت؟ ومن فكَّر فيها؟ ومن دبَّرها؟ ويتتبع الخيط ليجد أن الخيط سيؤدي إلى الموساد في النهاية؛ لأن الموساد هو الذي دبَّر هذه العملية، وهي عملية تُقاس بمقياسٍ واحد: أفادت مَن هذه العملية؟ أفادت إسرائيل وأمريكا إفادةً كبرى؛ فقد نسي الناس حادث تونس وتذكَّروا الباخرة، ونسي الناس السبعين فلسطينيًّا وتونسيًّا الشهداء، وتذكَّروا واحدًا أمريكيًّا قُتل أو قيل إنه قُتل، والغريب أن الذي أظهر هذا القتيل، والذي قدم لأمريكا وإسرائيل الدليل المادي الوحيد على هذه الجريمة هي سوريا، وهنا أيضًا نضع علامة استفهام كبرى، كيف تقوم دولة تزعم أنها زعيمة القومية العربية، وتزعم أنها هي الصاحبة الأولى للقضية الفلسطينية، وتُقدِّم لأعداء هذه القضية الدليل الذي يدين ليس فقط عرفات الذي تُعاديه سوريا، ولكن الذي يدين الفلسطينيين كلهم باعتبارهم إرهابيين، وفي نفس الوقت يبرئ إسرائيل، ويبرئ الولايات المتحدة من تهمة الإرهاب. كيف تقوم سوريا بهذا؟ هل هناك اتفاقٌ سوريٌّ إسرائيلي، كما يقول عرفات، على إبادة شعب فلسطين؟ هذا شيء لا يقبله عقل، شيء لا يكاد الإنسان يتصوره إطلاقًا! ولكنه حادث ويدور أمامنا، وقد دار وحدث. ثم قصة الطائرة المصرية، أمريكا هي صاحبة اقتراح ترحيل الإرهابيين الأربعة في طائرةٍ مصرية إلى تونس، ولم تكن مصر تفعل هذا لولا الاقتراح الأمريكي، وأمريكا هي التي اختطفت الطائرة المصرية، وهي التي سخِرتْ من طلب الرئيس المصري اعتذار «ريجان»

عن حادث الطائرة؛ لأن لأمريكا هدفًا آخر من وراء هذه العملية، ألا وهو إخراج مصر من السعي في القضية الفلسطينية تمامًا؛ لأن وجود مصر بثقلها وبمكانتها الدولية إلى جانب الأردن وفلسطين والعراق، هذه قوة ضخمة جدًّا، كانت كفيلة بإحياء فكرة السلام. ولكن «ريجان» أراد أن يغتال في الرئيس مبارك نزعاته الوطنية، وأن يرغمه إرغامًا على الابتعاد عن تبنِّي هذه القضية، ولكن «مبارك» كان ردُّه حاسمًا واضحًا ووطنيًّا، وكان رد الشعب المصري حاسمًا وواضحًا وسمعه العالم أجمع، وكان الرد زيادة في الالتصاق بالقضية الفلسطينية، وهذا رد فعل لم يحسبه «ريجان» وإن كان الإسرائيليون فيما أعتقد يعرفونه، ويعرفون أن أي محاولة لإحراج أو لإضرار الرئيس المصري من قبل أمريكا ستقابَل من الشعب المصري بأن يضع هذا الرئيس في قلبه، ويحمله فوق رأسه، وقد كان. ولكن المقصود من هذا العمل هو إحراج وإخراج مصر من خط السلام الذي تتبناه، وإبعادها تمامًا عنه. إذن قد تحقَّق كل السيناريو الذي أرادته إسرائيل. فلقد بدأنا بالرواية والطريق للسلام واضح، وفجر السلام يكاد يشرق، وانتهينا الآن إلى موقفٍ مصرُ فيه ممنوعة من مزاولة عملية السلام …

والأردن بدأ يشتبك مع المنظمة أو يختلف معها حول مقابلة البريطانيين، وكلام عن مقابلةٍ منفردة للأردن مع بريطانيا، ومفاوضاتٌ منفردة للأردن مع إسرائيل، وعودة الأردن للخط السوري لحل القضية الفلسطينية ألا وهو القيام بعملياتٍ محدودة عسكرية، نتيجتها في النهاية باستمرار تكون لصالح إسرائيل، والابتعاد عن طريق الزحف المؤكد المستمر ناحية إجبار إسرائيل على السلام الذي كان هو الخط الوحيد الموجود على الساحة العربية، والذي كان ممكنًا أن يجبر إسرائيل فعلًا على الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني حتى في الوجود الكونفدرالي. لقد نجحت إسرائيل إذن نجاحًا ساحقًا أولًا في وضع مبدأٍ خطير جدًّا، وهو أن من حقها أن تضرب أي دولة عربية في أي مكان، وبأي حجة دون أن يستطيع العالم أن يصنع لها شيئًا، ثم نجحت في أن تضم إلى هذا القانون الإجرامي الفاضح دولةً كبرى كأمريكا بكل ما تملك من إمكانيات تضعها تحت تصرف هذا المخطط. ثالثًا نجحت في أن تعود القيادة الفلسطينية إلى مرحلة التيه من جديد، باحثةً عن مكان تستقر فيه، إذن بدل أن تقطع الرأس داخت الرأس وستدوخ الرأس؛ لأنها أولًا تريد أن توضع فوق جسدٍ محدَّدٍ واضح، في مكانٍ محددٍ واضح؛ فالغارة قد أثمرت ونجحت، والسيناريو الموضوع لها بدقةٍ شديدة قد نجح، والرأي العالمي ثار، ثم هدأ، ثم تحوَّل ضد الفلسطينيين كإرهابيين، واختطفت الطائرة المصرية، واضطرت مصر تحت ظروف المعونة الاقتصادية،

وتحت ظروف تقاعس الدول العربية عن تقديم ٢ مليار دولار فقط لمصر لإنقاذ اقتصادها، الدول العربية سكتت، ولم يحتجَّ رئيس دولةٍ عربية واحد على ضرب الطائرة المصرية واختطافها. أبدًا لم يحتجَّ رئيس دولةٍ عربية واحد، ولم يعرض على عرفات الإقامة إلا «صدام حسين» في بغداد. فنحن إذن قد أصبحنا في وضعٍ متردٍّ تمامًا، في وضع مرغمة فيه مصر على أن تخضع للإرادة الأمريكية الإسرائيلية بتهديد السلام، وتحت تهديد السلام، ودون أن تهبَّ لمساعدتها أو مساندتها أي دولةٍ عربية؛ إذ هي الأخرى مهدَّدة، لقد كانت الرواية مرتبة بدقةٍ شديدة، ونفذت بعبقرية، وهذا يُذكِّرني بما قلته مرة في كتاب «البحث عن السادات» من أن مشكلتنا نحن في المنطقة العربية أننا ككتابٍ سياسيين وكرؤساء دول لا نُجيد حرفة صناعة السيناريوهات؛ لا إخراج الخطط، ولا التدبير. هؤلاء الناس يعرفون هدفهم تمامًا، ولكنهم يضعون الخطط المتكاملة الحاسبة لكل احتمال حسابه، والبدائل إذا فشلت الخطة الأصلية، وبدائل البدائل. يعني هم كتَّاب مسرح بالدرجة الأولى، وإن كان مسرحًا لا يمثل فيه ممثلون قتل بعضهم البعض، ولكن يذبح فيه الناس ذبحًا أمام الأعين والأبصار والآذان، وعلى شاشات التليفزيون دون أن يملك العالم أن يصنع شيئًا. ماذا يستطيع الإنسان أن يقول؟ كل من قابلته يقول ما رأيك فيما حدث؟ وما هذا الذي حدث؟ وكل منا رأى ما حدث، وكلنا له آراؤه المعروفة فيما حدث، ولكن هل يكفي أن يقول الإنسان رأيه؟ هل آن أن نعرف ما حدث؟ هل المعرفة وحدها تكفي لحل قضية أو لتحرير شعب؟ وماذا سنصنع بتلك المعرفة؟ كلنا نحن المائة والعشرين مليون عربي نعرف وشاهدنا وعلمنا بما حدث، حكامًا محكومين، شبابًا وشيوخًا ونساءً، ولكن هل هذا كفاية؟ هل يكفي أن يجتمع مؤتمر قمة آخر ويتخذ قراراتٍ أخرى؟

أيها الناس أفيقوا! نحن نواجه أناسًا مجانين سموا أنفسهم دولة، بل ويتحكمون ويحكمون في أكبر دولة في التاريخ، وهي الولايات المتحدة الأمريكية، فإما أن نركع لهم ساجدين ونعبدهم، كما كان أجدادنا يعبدون الأصنام، وإما أن نفكر في أن نفعل شيئًا آخر، لا نفكر في أن نحلل، أو نقول، أو نبدي رأينا فيما حدث، ولكن أن نصنع شيئًا آخر غير أن نصرخ ونلوم ونُندِّد ونشجب …

وسلم لي على «أبو العباس».

العطش الفكري

ليتحدث إخصائيو الاقتصاد في عالمنا العربي قائلين: إن مشكلة عالمنا العربي هذا، مشكلة بالدرجة الأولى اقتصادية، فائضٌ كبير في الدخل من ناحية، ونقصٌ كبير في دخول الأفراد والدول الأخرى من ناحية. ليقولوا إننا — في مجموعنا — شعوبٌ مستهلِكة مستوردة، حتى الزراعي فيها يستورد القمح واللحم، والبترولي فيها يستورد البترول مصنَّعًا. ليقولوا: إن كل بلد منها محاصَر بالشيء ونقيضه في آن معًا. وفرة في السكان رهيبة في مصر مع قلة في الأيدي العاملة الخبيرة، وفرة في البشر وقلة في الأرض، وفرة في الأفواه وقلة في الإنتاج. في الجزائر مثلًا وفرة في الثروة الطبيعية، وقلة إلى درجة الشح في الثروة السكانية، في السودان أرض لا أول لها ولا آخر، ماءٌ لا أول له ولا آخر، ونقصٌ رهيب في المال اللازم والفلاح اللازم.

ليقل الاقتصاديون هذا وربما ما هو أكثر بكثير وأدقُّ منه، وليُشخِّصوا مشكلتنا على أنها عدم تكاملٍ اقتصاديٍّ عربي بحيث إن الأجزاء الثلاثة موجودة وبكثرة: الإنسان والمال والأرض بثرواتها، ولكنها أجزاء لا تزال متنافرة، لا تريد أن تتحد ليتكوَّن منها ذلك المركَّب العظيم القادر على أن يجعل منها «خير أُمَّة أُخرِجتْ للناس».

وليقل السياسيون ما شاءوا، السياسيون بيمينهم ويسارهم ووسطهم. اليمين ينادي بالارتباط السياسي الاقتصادي، وحتى العسكري مع الغرب لحل المشكلة القومية؛ مشكلة الوطن الفلسطيني والأرض المحتلة، واليسار يتفرع من النداء بالحرب الشعبية وسيلةً وحيدة، لتخليص العالم العربي من الاحتلال الإسرائيلي الاستيطاني والاحتلال الغربي الاقتصادي، يتفرع من النداء بهذا والرفض الكامل لأي حل ما عداه إلى قبول لحلول، شرط أن تكون في إطار الثورية، وشرط ألا تكون في إطار الاستسلام لمطالب العدو ومطامحه، بل هناك يسار طلع علينا أخيرًا يطالب بأن ينفض اليسار نفسه من الموضوع كله، ويترك

اليمين يجرب تجربته، ويمشي في طريقة إلى منتهاه، عساه ينجح فيما فشلت فيه الثورية اليسارية.

ولِيقُلْ علماء الاجتماع: إنها مشكلة تطور، إننا في عالمٍ ثالث، على رأسه هذا صحيح، حضارتنا قديمة، وإنساننا ليس ابن الأمس، وإنما عمره آلاف الأعوام، ولكنا لا نزال نتخبط مع إخواننا المساكين، مثلنا أهالي العالم الثالث الذين فاجأهم الاستعمار الإنجليزي والفرنسي والبرتغالي والهولندي بخروجه المفاجئ المبكر أو المتلكِّئ. ولعلمه أنها مجتمعات تنقصها مكونات الدولة، فقد عادت هي تستعين به وبزعيمته الصاروخية أمريكا. خرج من النافذة ودخل من الباب ضيفًا عزيزًا مكرمًا لا يخسر مليمًا على جيش احتلال، ولا يعاني أفراده من خوف القتل والثورة والهبات.

ولْيقل الكتاب والفنانون: إننا في مجتمع يعاني الإحباط، وإننا رقصنا على السلم، وإننا بينما كنا نقاوم الاستعمار كأمم وقوميات، ها نحن بعد زوال معسكراته نعود إلى القبلية، والعشائرية والإبطية.

وليقل المؤرخون: إن الإسلام كحضارة ورسالة لم يحدث إلا لزمنٍ قليل؛ فالوحدة الإسلامية صنعت الفكر والحضارة، وهزمت الإمبراطوريات، واستولت تقريبًا على العالم القديم كله حين انطوى العرب وغيرهم تحت راية الإسلام الواحدة، ولم يعد فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، وأن الأمة تبعثرت، والحضارة تبخَّرت، والعالم الشاسع الواحد تمزَّق حين خفتت راية الرسالة؛ لتعود تطفح فوق السطح الخلافات بين عرب يعرب وعرب لست أدرى ماذا، هكذا بالتناحر الوحشي بين أبناء العمومة والخئولة، وحتى الأشقاء، انحسرت الشمس عن الأندلس، وجاء المغول، ومن بعدهم الصليبيون والأتراك، وانتهى أعظم فصل من القصة.

ليقل كلٌّ منا ما يقول؛ فالأقوال كثيرة، وباب الاجتهاد في التفسير مفتوح، ليفسر الجائع الذي يقرص بطنه الجوع ما يتراءى له من تخاريف الجوع، وليفسر الشبعان «المبسوط كده» ما شاءت له أبخرة الشبع والشراب المتصاعدة إلى مخيلة ضمنت تمامًا حاضرها، وضمنت تمامًا على الأقل مستقبلها ومستقبل أولادها. وليكن بعد هذا ما يكون.

بل لا أبالغ إذا قلت إنه أصبح لكلٍّ منا على حدة، لكل إنسان قادر على التفكير في أمتنا العربية، أصبح لكل منا رأيه الخاص ورؤاه الخاصة، بل حتى من لا يملكون أدوات التفكير يفكرون، بل ويخرجون بحلول. مائة وعشرون مليون رأي وحلٍّ، حتى ابنتي نسمة (عشر سنوات ونصف) لها تحليل ورأي وحل، فكلما رأت رونالد ريجان على شاشة التليفزيون صاحت: روني أهه … روني أهه.

وأسألها مشاكسًا: من يكون روني هذا؟ فتقول (متأثرة بالجو النفسي الذي تحياه مع ابننا الأكبر والثانوية العامة): آه عارفاه، مش ده اللي في إيده ٩٩ في المائة من أوراق اللعبة!

وقد يَعتبر البعض أني أخترع نكتة على لسان «نسمة» ولكن لا تتصوروا كم تتمتع أجيالنا الجديدة جدًّا، وخاصة مَن لديه أو لديها استعداد، كم تتمتع بقدراتٍ عقلية وإبداعيةٍ مخيفة.

وحين يصبح الرأي ١٢٠ مليون رأي فلا يعود ثمة رأي، ولا يعود ثمة قيمة لرأي؛ فالرأي يستمدُّ قوَّته وفاعليته من عدد المجمعين عليه.

جاء وقت على أمتنا العربية كان مثلها الأعلى في حاكمها أن يكون ذلك «المستبدُّ العادل»، فيه وعنده تتركز وسيلتنا للخلاص. كم أرقتنا الأحلام بذلك المستبد! بذلك المستبد العادل الذي سيجتمع رأينا في رأيه، وبقوة يطبق العدالة والقانون، بل لعل وراء هذا الحلم كثير من الثورات والانقلابات التي حدثت في عالمنا العربي، وفي العقل الباطن لكل ثائر أو منقلب، أنه لا بد أن يكون أو يحقق ذلك المستبد العادل.

وجاء وقت على هذه الأمة راحت تحلم فيه بالزعيم الواحد أو الأوحد الذي يجمع الجماهير حوله، ويجعل من ملايين الأصفار أعدادًا صحيحة تقبل الجمع والتكاثر والضرب وتصبح لها فعلًا فاعلية الملايين. أناس كانوا يفكرون في الفرد الزعيم، وأناس يفكرون في الشعار، وهكذا!

وجرَّبنا …

وجرَّبت هذه الأمة الزعامات أشكالًا وألوانًا وأسماء، بل جرَّبنا أحدث صيحات القيادة؛ القيادة الجماعية، ومؤتمرات القمة، والقرارات الحاسمة التي لا رجعة فيها.

وسوف نظل نجرب؛ لأننا سوف نظل نحيا.

ولكن المشكلة أننا بعدُ لم نجرب كلمةً غريبة ينظر الناس إليها دائمًا «وخاصة الحكومات» بريبة، وبنوع من الإحساس بالأرتيكاريا، ألا وهي «الفكر».

أنا أُفكِّر؛ فأنا موجود. قالها الرياضي الفيلسوف «رينيه ديكارت» من زمن، ولكن لا أقصد ما قال «رينيه ديكارت» ولا أقصد الفكر بمعنى التفكير.

أنا أقصد الفكر بمعنى النور.

أنا أقصد الفكر بمعنى الثراء الفكري الوافر.

ونحن أغنياء في بشرنا، أغنياء في أرضنا، أغنياء في صحارينا، أغنياء بمحيطنا المتحد الواسع الذي يحتل قلب العالم، وجغرافيًّا يتحكم فيه، وبتروليًّا وأرصدة يتحكم فيه، بل واستراتيجيًّا أيضًا يتحكم فيه. أغنياء في كل شيء بوفرة، ولكنَّ تفرُّقنا الأزلي هو فقر فكرنا.

ببساطةٍ شديدة تعالوا بنا في جولةٍ سريعةٍ خاطفة نستعرض كمَّ ونوع الفكر المطروح في عالمنا العربي. لا أقصد الفكر بذاته أو لذاته وإنما أقصد الفكر كمشاعلَ متعددة الأنواع ولكن هدفها واحد؛ أن تُنير، لمن يريد أن يفكر أو يحل أو يعرف، الطريق إلى الحل.

إن الذي أحدث الانقلابات الرهيبة في سياسة أمريكا الخارجية بضعة كتب — من بينها بالطبع كتاب كيسنجر الشهير — التي كانت إحدى الأفكار الهينة فيه فكرةً مبسطة جدًّا: لماذا نقاطع ونعادي المعسكر الشيوعي، لماذا بدلًا من أن نقاطعه ونعاديه لا نتاجر معه، بل ونحيله إلى سوق لبضائعنا.

بهذه الفلسفة الجديدة التي تخلَّت بها أمريكا عن موقفها «المبدئي» من معاداة الشيوعية عالميةً ومحليةً وروسيةً وصينيةً، إلى أن أصبحت الصداقة بين أمريكا والصين ربما أشد من الصداقة التي بين أمريكا وجارتها الرأسمالية المكسيك.

هذه أفكار طُرحت فكانت نتيجتها تثقيفًا للساسة والسياسة، وتعبيدًا للطريق، ومكاسب عظمى ليس لأمريكا وحدها وإنما للنظام الرأسمالي في العالم كله، بل نتيجتها أن تحوَّل الدولار من هابطٍ على الدوام في سلم القيمة إلى مرتفع ومرتفع؛ لتصبح أمريكا قابضة على أقوى اقتصادَين في العالم ألمانيا واليابان، ومن بعدها فرنسا وإنجلترا وعالمنا العربي والثالث كله، قابضة قبضة لم تحدث لأمة من قبلُ ولا أعتقد أنها ستحدث من بعدُ.

النقود أصلها فكر، وازدهار الاقتصاد أصله فكر، والثورة فكر، والحرب فكر، والسلام فكر. وهناك صحيح أفكار مطروحة في سوقنا الفكرية العربية، مثل فكرة التعامل الاقتصادي، ولكن، وهذا هو الفارق الهائل بيننا وبين العالم الذكي الذي يفكر من حولنا، الفكر هناك يتحول، ما دام جديدًا وصحيحًا ومقنعًا بسرعة البرق، إلى أعمال، بينما الأفكار عندنا تتحول إلى شعارات تبقى معلَّقة كالنجوم في سابع سماء، دونك ودون تحقيقها الفوري الفعال خرط القتاد كما قال الأقدمون، بينما العطش الفكري في عالمنا العربي تتشقق له شفاهنا وتكاد تقتلنا ظمأً، فهناك عشرات القضايا التي ندركها ولكن لا نراها؛ لأن رؤيتها في حاجة لتسليط ضوءٍ فكري عليها، ماذا بعد المفاوضات وقيام الكيان الفلسطيني؟ ماذا إذا لم يقم هذا الكيان؟ ماذا إذا لم يتحدد موقفنا من الدولتَين العظميَين، أما من نظريةٍ جديدة تُحدِّد لنا كيف نقف المواقف ولماذا نقفها؟ أي مصلحتنا الكبرى في

بترولنا؟ هل نقوده نحن أم يقودنا هو؟ وإلى أين؟ وأي الطرق نسلك لاستثمار الفوائد؟ وهل الأجدى أن ننسلخ عن الأوبك، أم نلتزم جديًّا بقراراته؟

حتى وضعُنا السياسي نفسه في حاجة إلى إعمال للعقل، وتفكُّر وابتكار فكرٍ جديد؛ ذلك أنه، وايم الحق، مضحك، هناك المعسكر الاشتراكي العربي، وهناك المعسكر الرأسمالي العربي، وفي الغرب النمط الرأسمالي واحد مع قليل جدًّا من التعديلات، والنمط الشيوعي واحد مع قليل جدًّا جدًّا من التعديلات، أما مَن في معسكرَينا نحن، فالدولتان اشتراكيتان مثلًا، ولكن البعد بينهما أكبر بكثير من المسافة الكائنة بين أيهما والدولة العربية «الرأسمالية» المجاورة. حتى «الناصرية» في مصر شكل وفي لبنان شكل، وفي الأردن أو سوريا شكل، الموقف من أفريقيا، الموقف على المدى الطويل من إسرائيل، هل نقيم صناعات، أم الأرخص أن نستورد ونستهلك؟ وما موقف صناعة تخلفت كصناعاتنا المحلية، حتى لقد أصبحنا نستعمل الكبريت أو الشفاط المستورد، هل نغلقها أم الأجدى أن نقويها وندعمها؟

مثلي لا يستطيع في هذا الصدد إلا أن يحلم، لا بالمستبدِّ العادل ولا بالزعيم «الملهَم» وإنما أنا أحلم بمفكِّرٍ عملاق أو عمالقةٍ مفكرين، يُزيحون أستار الرؤى التقليدية، يَركنون جانبًا أطنانَ الشعارات، بجُرأة وقوة واقتحام يرَون واقعنا، ويخلقون له الحلول، أو على الأقل يقترحون له الحلول، مفكرون أغنياء لأنهم عِصاميون، خارج الأطُر والأجهزة، فيا ويلنا إذا تركنا لِلجاننا وأجهزتنا أن تفكر لنا! إن هذا لهُو فكر الفقر المدقِع بعينه، والمشكلة أننا في سعينا للخروج من الأزمات الاقتصادية والسياسية والفكرية نطرح أفكارًا، تحاول علاج فكر الفقر بفَقر الفكر، حتى إذا لم يَصلح الدواء حاولنا أن نأتيَ بفقر الفكر ليُعالج فكرَ الفقر، وهذه أضغاثُ أحلام، ومعادلات مستحيلةُ التحقيق كما هو مستحيلٌ أيضًا أن نبقى في انتظار — القائد الفكري الملهم ليُخرِجنا من المأزق العقلي، ومن ثَم المأزق الإنساني. والردُّ الوحيد على هذا كلِّه هو أن نبدأ صحوةً فكرية أولًا. صحوة لا تَخجل من أن تقول الحقيقة في وجه مَن يريدها ومن يرفضها. صحوة قبل أن نموت يا حكوماتنا العزيزات، فنحن لو مُتنا مُتُّم أنتم الآخرون، وعليكم أن تُبقونا أحياء، حتى تَبقَوا أحياء، وتبقَوْا تحكمون.

والصحوة وسيلتها الصِّحافة والإذاعة ووسائل الإعلام، وكل هذا كيف يتأتَّى إلا بحدٍّ أدنى من الحرية؛ ليُعطيَ للكاتب أو المفكر حرية لن يَعبث بها.

صحوة ليس هدفها النقد، وإنما هدفها الصحوة، الإفاقة من غيبوبة الدوامة الرهيبة التي نَحيا فيها. وحتى مجرد رؤية الواقع، رؤيةً واضحةً صريحةً غير مهزوزة، هي في حدِّ ذاتها بدايةُ أي حل حقيقي.

وإلا لماذا كان الفكرُ أصلًا، لماذا أفرزَت البشَرية مُفكِّريها، إن لم يكن لمواجهة الغيبوبات الفكرية والحضارية كالتي بالضبط نواجهها؟

كنا عربًا ولن نبقى عربًا!

حسنٌ جدًّا.

اختطفَت إسرائيل طائرةً ليبية، تُقلُّ مسئولين سوريِّين، وأرغمَتْها بالقوة على الهبوط في إسرائيل، وسِيقَ رُكابها مُغمَضي الأعين كالأسرى مُهانين مُذَلِّين، واستُجْوِبوا وكأنهم متهَمون مجرِمون، ثم «أفرجَت» إسرائيل عنهم، وتركَتهم يرجعون لدمشق.

وقد يتهمني القارئ بأني أعبث، ولكن غضبي مما حدث دفعني لنوبةٍ غريبة من الضحك!

أجل، ظللتُ أضحك وأضحك حتى دمعت عيناي.

وكان سبب ضحكي هو موقِفنا نحن كدول عربية، وموقفَ أمريكا وإسرائيل؛ فقبل عدة أسابيع اختطفَت أمريكا طائرةً مدَنيةً مصريةً أخرى، وأرغمتها على الهبوط في قاعدة حلف الأطلنطي، واختطفَت ركابها الفلسطينيِّين، ولولا موقفُ رئيس الوزراء الإيطالي كرايسكي العنيد لربما حاكمَتهم أمريكا على الأرض الإيطالية، وحكمَت بإعدامهم.

ومناورات الأسطول الأمريكي وتَحرُّشه بليبيا في خليج سرْت لا تزال قائمة على قدَم وساق.

وأمريكا أكبر زَبون في سوق البترول بالاتفاق مع عميلتها مسز تاتشر هوت بسعر برميل بترول بحر الشمال إلى عشَرة دولارات؛ لتضرب دول الأوبك بالذات، أي السعودية والكويت ودول الخليج.

ضرب، ضرب، ضرب.

لا تُفرِّق فيه أمريكا أو إسرائيل بين دول يُسمُّونها متطرفة كليبيا وسوريا، ودول يسمونها معتدلة كالسعودية والكويت، ودول متهَمة بكامب ديفيدها كمصر؛ فالجميع

عرب «أولاد ...» (على حد تعبير السفير الأمريكي في القاهرة) لا بد أن يُضرَبوا ضرب غرائب الإبل.

هي الحرب إذن يا سادتَنا العرب الأفاضل.

الحرب الحقيقية التي لا هزل فيها تُشِنُّها إسرائيل وأمريكا في وضَح النهار، ولا تُفرق فيها بين عربي وعربي؛ فالعرب جميعًا لا بد أن يُسحَقوا تمامًا؛ لتتسيَّد إسرائيل ومعها أمريكا المنطقة تمامًا، وتحكمها حكمًا مباشرًا لا مجال للشك فيه.

وفعلًا، الحادث إلى الآن، وما سوف يحدث، أثبتَ وسيُثْبِت للعرب أنفسِهم، معتدلين ومتطرِّفين، أنصار مفاوضات أو أنصار حرب، أن إسرائيل وأمريكا قد أصبحَتا «تحكمان»، أجَل، تحكمان كل الدول العربية، أقول مرة أخرى: كل الدول العربية!

ليس حكمًا كالحكم البريطاني أو الفرنسي يأتي بجيوشه الجرارة، ويحتل مصر أو العراق أو الجزائر، ويخسر من أجل هذا إنفاقًا على جيوش احتلاله وإضعافًا لقُواه.

وإنما هو حكم يعتبر آخِرَ صيحة في مجال الاحتلال والاستعمار.

حكم يعتمد على نقطة ارتكاز أرضية في إسرائيل، ونقطة ارتكاز أمريكية عائمة في البحر المتوسط، ومن النقطتَين تمتد السِّياط تَضرِب العربَ جميعًا؛ عسكريًّا، واقتصاديًّا، وسياسيًّا، وثقافيًّا، ضربًا لا هوادة فيه.

نعم!

أعداؤنا يدركون أننا كلنا عرب «أولاد ...» ولكننا وحْدَنا الذين عرَّفنا أنفسَنا تعريفاتٍ ما أنزل الله بها من سلطان، وخلَقْنا لأنفسنا الفُرقةَ بيننا، من أو الصراع حول البوليزاريو بين المغرب والجزائر، إلى الصراع بين مصر وليبيا؛ حول ماذا؟ لستُ أدري والله! فليس بين ليبيا ومصر أيةُ مشكلةٍ حدودية أو تنازُعات إقليمية، إنما هو النزاع من أجل النزاع، والمشاكسة من أجل المشاكسة، إلى قصم ظهر أسعار البترول، إلى ضرب العراق بسوريا، وسوريا بالعراق، ولبنان بسوريا، والشيعة بالدُّروز، مع أننا كلنا عرب «أولاد ...» في نظر أعدائنا.

ولقد ضحكتُ طويلًا كما ذكَرْت لأن ما يعرفه أعداؤنا عنا هو الحقيقة، بينما ما نعرفه نحن عن أنفسنا هو الخيال المريض العبيط، الذي يُصوِّر لكل دولةٍ عربية أن عدوتها رقم واحد هي تلك الدولة العربية الأخرى، وهات يا عراك واشتباك وتبادل القذائف الصاروخية واللسانية! أرأيتم أعجب من هذا منظرًا يدعو إلى الضحك؟!

أعداؤنا يعرفون أننا نُكوِّن وحدةً سياسيةً اقتصادية، وحتى عسكريةً واحدة، ونحن فقط الذين نَرفض الاعترافَ بهذه الحقيقة، وتتقاتل كلُّ دولة عربية، وكأنها وحدها هي

كل العرب، أو قائدة العرب، وكأن عدوها هو هذا الطرَف العربي الآخَر أو ذاك، حتى داخل الدولة الواحدة نفسِها. ونتيجةً لمعرفة العدو لهذه الحقيقة فهو في الوقت الذي يُشِيع فيه الفُرقةَ بيننا، ويؤجِّج نيران الأحقاد العِرقية والقبَلية والعقائدية يوحِّد بيننا تمامًا حين يَضرب، ويُوجِعنا بضربه، بينما بعضُنا لا يزال وبثقةٍ شديدة يتحدث عن «السلام» في الشرق الأوسط، وعن حل المشاكل المعلَّقة بين إسرائيل و«جيرانها» العرب.

وحين يتحدَّثون عن هذا يَقصِدون بالطبع القضية الفلسطينية.

وهذا نوعٌ آخرُ من خداع النفس.

فلم تَعُد، ولا كانت، القضيةُ الفلسطينية قضيةً فلسطينية فقط، إنما هي دائمًا القضية العربية الكبرى، وإذا كانت فلسطين قد اغْتِيلَت أولًا، وبقينا نَنْعاها إلى الآن، فقد ظللنا نفعل هذا ونحن غير دارين أن موجة الاغتيال قد امتدَّت واكتسحَت الساحة، وعمَّت كلَّ البلاد العربية بطريقة أو بأخرى.

لم تعد المسألة فلسطين، إنما أصبحَت كلنا، ليس فقط مستهدفين وإنما قلتُ تَحكمنا إسرائيل، أتسمعون هذا يا حكامنا؟ إسرائيل تحكمكم وتحكمنا رغمًا عنا وعنكم، بدعمٍ رهيب من أكبر قوة استعمارية ظهرت على سطح الأرض؛ الولايات المتحدة الأمريكية.

حسنٌ جدًّا.

ماذا أنتم فاعلون إذن يا سادتنا الحكام المحكومين؟

أنتم قد عجزتم حتى الآن عن عقد مؤتمر، مجرد مؤتمر قمة ناجح، وحتى لو انعقد المؤتمر، واتُّخِذَت فيه قرارات كما حدث في فاس، فإنكم تتوجَّهون إلى البيت الأبيض والبنتاجون، تُقدِّمون له ولها عريضة مطالبكم، وما تكادون تُولُّون ظهوركم حتى يَقذفوا بها في أقرب سلة مهملات.

ذلك أن البيت الأبيض والبنتاجون وإسرائيل لا يَعرفون إلا منطق القوة الغاشمة وحدها.

وحين قال عبد الناصر كلمته المشهورة: «ما أُخِذ بالقوة لا يُستَرَد إلا بالقوة.» لم يكن يُطلِق صيحةَ إنشاء أجوف، وإنما كان قد أدرك بتَجرِبته مع الأمريكان والإسرائيليين هذه الحقيقةَ البسيطة في الصراع الدولي والوطني، الحق للأقوى، والضعيف يظل مظلومًا مهما استغاث «بالرأي العام العالمي ... أي رأيٍ عامٍّ عالمي هذا الذي تستغيثون به واليهود والأمريكان يسيطرون إعلاميًّا تمامًا على نصف الكرة الأرضية التي تُسمُّونها الرأي العامَّ العالمي؟» مهما استغاث بالرأي العام العالمي، ومهما استغاث بمجلس الأمن الذي تُشير له أمريكا بأصبعها قائلة: فيتو!

إنكم يا سادتنا الحكام تَهزلون أمام عدوٍّ لن يرحمَكم أبدًا.

وتهزلون أمام شعوب لن تَرحمكم هي الأخرى؛ فلِصَبرها على العدو وعليكم حدود، وقد بلَغ صبرُها مداه.

وأقولها صريحةً واضحة: إنه ما لم يَقُم الحكام العرب بصُنع شيءٍ قوي وملموس، يقفون به في وجه هذا العدوان الصارخ، فإني لا أضمن أبدًا أن تنقلب أنظمة الحكم الحاليَّة، وتأتيَ الشعوب بحكامٍ جددٍ آخرين يَدفعون عنها هذا الأذى والجحيم.

افعلوا شيئًا، أو اذهبوا.

اغضبوا حتى ...

أو كفُّوا عن الحديث عن مشكلة الشرق الأوسط، وكأنها نظرية من نظريات فيثاغورث الرياضية، تتطلَّب حلًّا من الجبر أو الهندسة أو حساب المثلثات.

إسرائيل تحاربنا بجِديةٍ كاملة وبشراسة.

ونحن نَهْذي بخطرفةٍ كاملة وبانهزامٍ مسحوق.

ولا يمكن لوضعٍ كهذا أن يستمر.

فشعوبنا تغلي بالسخط، وتعتبر أن مَواقفكم المتخاذلة تلك هي لصالح إسرائيل أولًا وأخيرًا، فهل أنتم حكامنا أم أعداؤنا؟

هل أنتم معنا، أم معهم؟

هل تخافونهم أكثرَ مما تخافون منا، وكأننا بلا حول ولا قوة؟!

لا ...

إن الشعوب العربية في قمة مدِّها الثوري، وأنتم وحدكم في قمة الخوف على كراسيكم التي ستَذهب إذا ظللتم ساكتين، وربما إذا تحركتم وفعَلتم شيئًا يطفئ الحريق المندلع في قلب كل عربي، ربما لو فعلتم هذا لثبَتَت الكراسيُّ تحت مقاعدكم.

أما بهذه الطريقة فاسمَعوا جيدًا: ستذهبون، ستذهبون.

فلا يُعقَل أن يركع مائة وعشرون مليون عربي أمام بضع فصائلَ همجيةٍ غزَت شرقنا العربي ورَكِبَته، وتريد أن تركب فوق أعناقه إلى الأبد.

وليسمح لي القراء أن أتوقف هنا؛ فالحقيقة أني مللت الكتابة ومللت الكلام؛ إذ حتى الكتابة نفسها أصبحَت لا تَعني أمام هذا الموقف الرهيب الخطير شيئًا.

ويكفي أني، بصعوبةٍ بالغة، قد استطعت أن أستنطق قلمًا يَغلي، حتى حبره، بالغضب، وليس الغضبُ من إسرائيل أو غيرها؛ فحربهم ضدنا يَقومون بها بجِدية وذكاء وخُبث

وكل سلاح! إني غاضبٌ منا نحن، حاكِمين ومحكومين، غاضب على أنفسنا غضبًا من ذلك النوع الذي يُخرِس الألسُن والأقلام، ولا يُنفَّس عنه إلا بالفعل، الفعل القوي العاجل.

وغاضب أكثر لأني أعرف أن حكامنا لن يفعلوا بالمرة شيئًا.

ولهذا تَختنق الكلماتُ الآن في قلمي، حتى تجفَّ، وأَطويَ الصفحة. لماذا يا إلهي سلَّطتَ علينا — وأحيانًا مِن داخلنا — مَن لا يخافك ولا يرحمنا يا أرحم الراحمين؟

هل الإسلام ضد القومية؟!

لي نظريةٌ خاصة أعتقد أن كثيرين غيري يُشاركونني إياها، نظريةٌ خاصة بتلك الظاهرة التي أصبحَت الهمَّ الشاغل لرجال الدين عندنا، وللوعاظ وللعلماء، ومنهم تسربَت إلى جماهير الشعب العربي.

ظاهرة الخوف المفاجئ على الإسلام من أهله ومن المسلمين، والدعوة الحارَّة الزاعقة للعودة إلى الإسلام الصحيح، وإلى ما كان عليه المسلمون حكامًا ورعية في الصدر الأول للإسلام، وكأننا ما عُدنا مسلمين، وكأننا كفَرْنا من زمن، وكأنما الحل الوحيد والأوحد لكل مشاكلنا النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية هو في التطبيق الفوري للشريعة الإسلامية، أو بالأصح لقانون الجنايات الإسلامي، وإخفاء المرأة داخل البيوت باعتبارها جهازًا شيطانيًّا لإغواء الرجل وفتنته، وإلهائه عن دينه ودنياه.

أقول ظاهرة الخوف المفاجئ؛ لأننا في مصر مثلًا، وأعتقد أن الأمر كان ولا يزال كذلك في كل البلاد العربية والإسلامية، كنا مسلمين ولا نزال مسلمين، ولا يزال الفلاح المصري الأُمي يَعرف ربه حقَّ المعرفة، ويؤدي الصلاة في مواعيدها، ولا يفوته فرض ولا سُنة، ولا يُفطِر لأي سبب — حتى لو كان مريضًا — يومًا واحدًا في رمضان، وإذا توفَّرَت له بعض النقود كان يحج أو يعتمر، وكان كثيرون يفضلون الحج بطريق البر وتناسى متاعب السفر؛ ليزداد الثواب. جدي شخصيًّا، ذهب إلى الحج من بلدتنا في الشرقية سائرًا على قدمَيه ليحج. كنا مسلِمين بالفطرة والسليقة، والطبيعة السمحاء الدَّمثة، نعيش في بُحْبوحة من الإحساس القديم بالرغبة في إرضاء المولى وطلب مغفرته إن اقترَفْنا خطايا، وتجنُّبِ عصيانه.

إلى أن بدأَت أثناء الاحتلال البريطاني لمصر دعوةُ الإخوان المسلمين، والتي تولى الشيخ حسن البنا مهمة التبشير بها، وطاف ريفَ مصر قريةً قرية، يخطب في مساجدنا وسَمِعتُه بنفسي وأنا طفل في مسجد عائلتنا يدعو لإنشاء فرع لجماعة الإخوان المسلمين.

والحقيقة أن دعوته لاقَت كثيرًا من النجاح، وبالذات عند الشباب؛ باعتبار أنها دعوة إلى مزيدٍ من الاغتراف من بحر الإسلام السمح العريق، وإمعانًا في التطهر والتبتل، والتقرب من الله سبحانه. وهكذا أصبحتُ من رُواد ندوات ومحاضرات الإخوان المسلمين، ليس في قريتنا فقط، وإنما في كل المدن المصرية التي تنقَّلتُ إليها أثناء دراستي الثانوية، مثلما رحتُ أيضًا أحضر ندوات مصر الفتاة، والحزب الوطني، والوفد. كنا جيلًا يبحث ليس فقط عن مزيد من الإسلام والتمسك به، وإنما أيضًا عن طريقٍ للخلاص من الاحتلال الجاثم على صدورنا، والقصر الذي أصبح يحكم حكمًا شبه دكتاتوري متجاهلًا كلَّ رغبات ومطالب الشعب الأساسية. وكان طبيعيًّا أن يُشارك الإخوان المسلمون كتجمُّعٍ شبابيٍّ رجالي ونسائيٍّ إسلاميٍّ ضخم في الحركة الوطنية، وحين أصبحنا في الجامعة، كنا جميعًا نعمل إخوانًا مسلمين ووفديين ويساريين ووطنيين عاديين، في تنسيقٍ تام وبلا معارك، ولكن ازدهار حركة الإخوان المسلمين والروابط القوية التي كانت قائمةً بين أعضائها جعلَت لهم من جبهة الكفاح القِدح المعلَّى والأقوى.

وحين قامت ثورة يوليو، وبدأ الشعب يعارض حكم الجيش، عارض الإخوان أيضًا، ولكن خوف جمال عبد الناصر من اشتداد بأسهم، ناهيك عن إدراكه أنهم أصبحوا يُكوِّنون — تحت الأرض — جَناحًا عسكريًّا قتاليًّا دفَعه للتصدي لهم وتصفيتهم على النطاق الذي نعرفه جميعًا تصفيةً بوليسية، أسوأ أنواع التصفيات؛ إذ لم يُقابِلها حوارٌ فكريٌّ واسع، ومناقشة يقوم بها العلماء والمثقفون. وهكذا قضى جمال عبد الناصر على الفئة المعتدلة من قادة وقاعدة الإخوان المسلمين، وبقي يُضمِر العقيدة ذلك النفرُ العنيد منهم، والذي دفعه في النهاية إلى عملية اعتقالاتٍ واسعةٍ أخرى وإعدام ستة من قادة الإخوان.

وأيضًا لم يقضِ هذا على الحركة وإنما تفرَّق الإخوان الذين هرَبوا ملتجئين إلى الدول العربية وإلى غيرها من الدول، منظَّمين لا يزالون أو أشباهَ منظَّمين، ينتظرون الفرصة، وقد سقَتْهم التجرِبة الجديدة فأحالَتْهم صُلبًا، وفي الداخل كانت حركةٌ إسلاميةٌ راديكاليةٌ جديدة تنشأ، تربَّت على أيدي الجيل الذي استقى التجرِبة من الجيل الأسبق داخل السجون.

وبمجيء السادات إلى الحكم، ووقوفه من الناصريِّين واليساريين ذلك الموقف، تمهيدًا للالتحاق بالرَّكْب الأمريكي، رأى أن سنَده الوحيد لن يكون سِوى هؤلاء «المسلمين» من

الخارج والداخل، وتوهَّم هو، مع عثمان أحمد عثمان مستشارِه، أن «اليمين» الذي سيَقف بالضرورة معهم ضدَّ الإلحاد والشيوعية والناصرية، وفي هذا الجو الخافي، فرَّخَت التنظيمات السرية وازدهرَت على أسسٍ جديدة تمامًا؛ فهي لم تَعُد جماعةً سياسية كما كان الإخوان المسلمون، وإنما أصبحَت تنظيمًا استشاريًّا راديكاليًّا، بدأت تظهر أنيابه ومخالبه باغتيال الشيخ الذهبي على تلك الصورة الرهيبة، تلك الصورة التي لم تُزعِج السادات كثيرًا، وظن أنه لا يزال يستطيع أن يلعب لُعبة استقطاب المسلمين في جانب والأقباط في جانبٍ آخر؛ ليسهل حكم الاثنَين، وواكب هذا تحولُ أجهزة الإعلام المصرية إلى الدعوة الإسلامية المبهَمة عن طريق المِحطَّة المتصلة لإذاعة القرآن الكريم والأحاديث الدينية، إطلاق باع الدعاة في الإذاعة والتليفزيون ونور على نور؛ لإحلال نوع من الدعاية الإسلامية لصنع غِطاء يستطيع السادات أن يَصطلِح به مع اليهود، ويُسلم مصر، ومِن ثَم العرَب، لأمريكا، وبالتالي لإسرائيل.

هذا ما كان من أمر السرد التاريخي للنُّعرة المفاجئة التي خرَجَت إلى الناس، وبالذات بعدَ مظاهرات ٧٧ أو انتفاضة «الحرامية» كما سمَّاها السادات، تطالب بالحكم الشرعي الإسلامي. وجاءت ثورة الخميني، لتُثبت للمُطالِبين أنه بالإمكان فعلًا وعمليًّا قيامُ حكومةٍ إسلامية يتولاها المشايخ والوعاظ وأمراء الجماعات الإسلامية السرية …

ولكن لأن له جانبًا آخر يتصل بأعدائنا؛ ذلك الجانب الذي أشَرْنا إليه في الأسبوعيات الماضية، ذلك الجانب الذي يتعلق بقضية القومية العربية وفكرة الوحدة العربية والعروبة.

ففكرة القومية العربية التي استوحاها جمال عبد الناصر من الأفكار البعثية، والتي تجسدَت فيه زعيمًا لها وقائدًا ومبشرًا؛ هذه الفكرة كانت تُزعج الاستعمارَ الجديد الذي حلَّ بالمنطقة العربية بعد غروب الاستعمار القديم، أو بالتحديد الاستعمار الأمريكي والإسرائيلي. كانت تُزعِجه إزعاجًا هائلًا وعظيمًا؛ فهي تارةً قائمةٌ على الوحدة الكاملة للأرض العربية والمحافظة عليها، في نفس الوقت الذي كانت تُلهِب فيه عواطف الجماهير العربية المتعطشة للتكتل والاندماج. وليس أخطرَ على المصالح الاستعمارية في المنطقة من شعبٍ عربيٍّ مُترامي الأطراف، يبحث عن عقيدته ووحدته، ويطالب بأرضه كاملةً وباستحقاقاته كاملةً، ويملك زِمام أمره ونفسه، وبتروله وثورته.

ولستُ أدري أية عبقريةٍ استعمارية اكتشفَت أنه لا يَكفي محاربةُ فكرة القومية العربية بحرب الجيوش التقليدية والمواجهات العسكرية، ولكن بعد وفاة الرئيس عبد الناصر، وغياب قائد القومية العربية، بدأَت لدى المحافل الاستعمارية تَنبت فكرةُ إحلال «الفكرة الإسلامية» محل «القومية العربية»، خاصة وتجرِبة أمريكا مع بلاد مثل

باكستان أثبتَت أن التعامل مع الفكرة الإسلامية في إطارٍ باكستاني أو على شكلٍ باكستاني أو سوداني أو غيرهما، يُسهِّل لها معركتها تمامًا مع العرب والمسلمين. فالإسلام الأمريكي يُصبِح الانتماءُ فيه للعقيدة وليس «للأرض والمطالب الدنيوية» والعِلمية والتكنولوجية، إسلامٌ تصبح مشكلة المسلم فيه هو أنه المخطئ وهو المقصِّر في حق ربه وشريعته، وأن عمَله الأوحد والوحيد هو أن «يعود» مسلمًا نقيًّا طاهرًا، وبهذا وحده تُحَلُّ كل مشاكله الدنيوية، والأخروية بالضرورة. وقد يَستنكر الكثيرون هذا النوعَ من الافتراض أو التحليل، ولكن الوقائع التاريخية الثابتة تُؤكِّد أن الأمريكان لم يقفوا أبدًا ضد قيام حكمٍ إسلاميٍّ إيراني، بل إن إسرائيل نفسها وجَدَت في قيام دولةٍ إسلامية تدعيمًا لحُجَّتها في قيام دولةٍ يهودية؛ وذلك تطبيقًا لخُطةٍ بعيدة المدى، تؤدِّي إلى تغيير الخريطة السياسية للعالم العربي والإسلامي والشرق أوسطي، وبدلًا من الحكومات الوطنية أو القومية تقوم دولٌ إسلاميةٌ سُنية أو شيعية أو درزية أو علَوية أو مارونية، أو قبطية على النمط اليهودي الإسرائيلي، الذي ستصبح فيه إسرائيل بالتبعية أهمَّ وأذكى وأخطر تلك الدول الطائفية والنِّحلية.

من أجل هذا، ودون أن تكون تحت يدَيَّ أيةُ مستندات — لو وُجِدَت لهذه المسألة مستنداتٌ أصلًا — شجَّعَت أمريكا وبالتالي إسرائيل، فكرةَ هذه الغزوة الإسلامية، أو البعث الإسلامي، لتجتثَّ بها فكرة القومية العربية؛ الخطر الحقيقي عليها.

ولكن الأمور لم تَمضِ كما تَشتهي أمريكا وإسرائيل؛ فجموع المنضمِّين إلى الإسلامية، السرِّية أو العلنية، هم مِن الشباب العربي الذي يَبحث عن هوية، ووجَد في الإسلام الجزءَ الأكبر من هُويته، وكان محتَّمًا أن يَستكمِل تلك الهوية بالوصول إلى هويته القومية والوطنية. هم إذن شُبَّانٌ وطنيُّون، مثلما كنَّا في الخمسينيَّات والستينيَّات، دخَلوا معسكر الحركات الإسلامية ذلك الدخول البريء الطاهر النقي الذي يَقطُر تضحيةً ورغبةً عارمةً في الرِّفعة للأمة الإسلامية، ولإعلاء راية الدين الحنيف. وكانت النتيجة المحتمة أن أولئك الذين حاوَلوا اللعب بالنار، ووضع الإسلام ضد القومية أو على الأقل بديلًا عنها، فوجئوا بما لم يكن في حُسبانهم أبدًا؛ فصحيحٌ أن النُّعرة الإسلامية أدَّت إلى انقسام المعسكر الإسلامي إلى شيعة وسُنة، وإلى حربٍ بين العراق وإيران؛ حرب خُطِّط لها تمامًا في مكاتبَ مكيَّفةِ الهواء، وبعيدًا جدًّا عن طهران وبغداد، وصحيح أن هناك احتكاكًا مجرَّمَ الشكل والمضمون والمحتوى، هدفه إهدارُ دم المسلمين الفلسطينيين على أيدي مُسلِمي الشيعة اللُّبنانيين، وصحيح أن كل الدلائل تُشير إلى أن الخطة في إحلال الإسلام محلَّ القومية قد سارت بنجاح فاق كلَّ تصوُّر …

ولكني … أعتقد أنه نجاحٌ مؤقَّت تمامًا، وأن الدم المسلم الأحمر السائل سوف يُفيق على لونه وغزارته أولئك السائرون في المؤامرة دون أن يَدْروا — أو لعل بعضهم يَدري ويتجاهل — ويُدرِكون إلى أي كارثة محقَّقةٍ هم سائرون.

لا خلاف ولا تناقُض أبدًا بين الإسلام والوطنية والقومية، العكس هو الصحيح؛ فالإسلام مسلمون، والمسلمون أرضٌ وثروة وعِرض، والأعداء هم الأعداء سواءٌ أكانوا أعداءً ونحن قوميون أو ونحن تنظيماتٌ إسلامية …

كل ما في الأمر أنه، على مفكِّري العالم الإسلامي، ودُعاة القومية، أن يُدرِكوا ويَعُوا أبعاد الخطر والخطة، وأن يَنتبِهوا إلى أين هم مُساقون كالشِّياه إلى حَتفِها وهم لا يَعلمون. إن علينا جميعًا، قياداتٍ إسلاميةً وقوميةً، وفكريةً وثقافيةً وكتابيةً، أن نُطلِق الصيحات تِلوَ الصيحات مُحذِّرين من المؤامرة، وأن ندَع الاشتباك فيما بيننا إلى أن تَنتهيَ معركتنا مع عدونا، وأن نُصفِّيَ انتماءاتِنا وخلافاتنا بعد أن نَحسم المعركة مع أعدائنا كلنا …

فذلك هو العمل الوحيد العاقل الذي على مُفكِّري وقادة هذه الأمة أن يَفعلوه، ولا حُجة في التردُّد أمامه والتعصب القومي ضد الإسلامي، أو الإسلامي ضد القومي؛ إذ هذا هو بالضبط ما يريده الأعداء.

وعلينا، أن نُفسِد بالوعي والإدراك ما يريدون.

عكس الكتابة

شديد النهَم أنا لقراءة كلِّ ما يَصدُر في عالمنا العربي من صحف ومجلات؛ ذلك أني بعد انتماءٍ عاطفيٍّ وجدانيٍّ فطري لعُروبتي، بدأتُ أُحِسُّ أني لا بد أيضًا أن أنتميَ «عقليًّا» لهذا العالم. وإذا كانت العاطفة والإحساس والوجدان مسائلَ تَصدُر عن عقلٍ مجهول يُسمُّونه اللاوعي مرةً، أو العقل القديم؛ فالعقل الجديد، ذلك الذي يتميز به الإنسانُ عن كافة المخلوقات، هو العقل الذي «يدرك» «ويَعي» و«يتأمَّل» و«يناقش» ثم يخرج باستنتاجات تُصبح قوانينَ يَستنير بها الإنسان نفسُه، وأيضًا يُنير بها الطريق لغيره، إلى أن يأتيَ عقلٌ آخرُ أو عقولٌ أخرى، تعي وتُدرِك وتتأمل وتُناقش إلى أبعدَ وأبعد، ثم تَخرج باستنتاجاتٍ وقوانينَ ذاتِ مدًى أطولَ وربما أعمق، وبهذه الطريقة تتقدم المجتمعات، وبهذه الطريقة يتقدم البشر.

وقد خرجتُ من قراءاتي — كل ما تُصدِره المطبعة العربية في كل مكان من أنحاء وطننا الكبير، سواءٌ أكان صحفًا أم مجلَّاتٍ أم كتبًا — بعديد من الانطباعات والأفكار، فلم أكتمها، ولِمَ لا أذكرها معكم وجميعًا نناقشها، لعل وعسى نخرج ببصيص نور، والله دائمًا أعلم.

الانطباع الأول الذي خرَجتُ به أن كثيرًا من كتاباتنا هي بالضبط «عكس الكتابة»، مثل اكتشافهم أن هناك نقيضًا للمادة اسمه ضد المادة. فالكتابة وُجِدَت أصلًا ليُسجِّل الإنسانُ الحقائقَ التي يكتشفها عن الدنيا وعن نفسه، هكذا الكتابة؛ وسيلة لتسجيل الحقيقة. وجدتُ أن الكتابة عندنا كثيرًا ما تكون لإخفاء الحقيقة، أو على أوهن الفروض للتَّمويه عليها؛ ففي الجرائد مثلًا بينما الأخبار الخارجية التي تنقلها وكالات الأنباء الأجنبية وتُترجمها وتنشرها صُحفنا، وهذه الأخبار نادرًا ما تُضبَط أنها كاذبة، قد تكون أحيانًا مُغرِضة أو مُروِّجة لغرض مُغرِض، ولكنهم أبدًا لا يُروِّجون «كذبة»، لا بد أن الحادث الذي

يَسوقونه قد وقَع فعلًا، وبالطريقة التي وقع بها، أقول: هذه هي القاعدة العامة «ولكل قاعدة شواذ»، بحيث إننا لم نَعُد نتوقف لدى أي خبر يأتينا من وكالة أنباء محترمة، لنتساءل هل هو كاذب أم حقيقي؟ كل الأخبار الخارجية صحيحة، أما الذي دائمًا نتوقف عنده فهو الخبر المحلي القادم من أي مكان من عالمنا العربي، أو بالتحديد لو كان الخبر مصدره الدولة التي تَصدُر فيها الصحيفة، بل وبشكلٍ محدَّدٍ أكثر لو كان مصدره وكالة الأنباء التي تتبع هذه الدولة. فنحن حين قلَّدْنا الغرب وأنشأنا وكالات أنباء «طوَّرنا» الفكرة، وجعلنا هدفَ كل وكالة أنباءَ الدعاية، والدعاية فقط، للحكومة التي تتبعها الوكالة، أو لنظام الحكم السائد في بلدها؛ فوكالات أنبائنا لا تنشط إلا لإظهار الأخبار «أو أحيانًا تلفيقها»، تلك التي تُرضي المسئولين في هذه الدولة أو تلك، وترفع من شأن سياستها، وتؤكد أن رأيها هو الأصح واتجاهها هو الأضبط.

إذا راجعتَ محصلة ما تَحفل به أيُّ صحيفة من أنباءٍ محلية، لوجدتَ أن كل شيء في البلد على ما يُرام، والشعب يرقد دائمًا في بُحبوحة العيش، سعيدًا بحكومته أيَّما سعادة، يُكِنُّ عظيم الامتنان لما تبذله في سبيله من جهدٍ شاقٍّ وعرق. لم أضبط مرةً وكالةَ أنباء عربية أو صحيفةً عربية تنشر خبرًا محايدًا عن بلدها أو عن بلدٍ آخر. فإذا كانت السياسة في ذلك البلد الآخر مُنسجِمة مع سياسة دولتها فالأخبار الواردة هي التي تُنشَر عن ذلك البلد. أما إذا كان الأمر العكس، فلا تُنشَر أبدًا إلا الأخبار المحلَّاة بالسواد أو الدم، أو أي تهمة من التهم الكثيرة التي تَضخَّم بها قاموسُ الاتهامات في عالمنا العربي الجديد الشجاع السعيد. صحيحٌ أنها أخبار، ولكنها أيضًا كتابة، وهكذا كما قلت نحن في مجال الخبر، والأخبار تَستعمل الكتابةَ عكس ما قُصِدت به الكتابة، وسيلة لإخفاء الحقائق الموضوعية من ناحية أو التمويه بها أو عنها، وفي نفس الوقت وسيلة لتجسيد «حقائق» هي في معظم الأحيان محض أكاذيب.

وقد يظن القائمون على أمر الصحف والمجلات في تلك البلاد أنهم يَنجحون بهذا في الضحك على قارئهم سواءٌ قارئهم المحلي أو العربي، ولكنهم في الحقيقة لا يضحكون إلَّا على أنفسهم؛ فنحن في عصر الموجات الإلكترومغناطيسية، وما تُخفيه المطبعة تتلقَّفه الآذان من الإذاعات الخارجية، والنتيجة الوحيدة المحتَّمة لهذا أن يَزداد القارئ المحليُّ والعربي انعدامَ ثقةٍ في تلك الصحيفة أو المجلة؛ وبالتالي من الدولة الصادرة عنها، وهي قطعًا نتيجةٌ مدمِّرة على المدى الطويل، وعلى المدى القصير أيضًا، لعلاقة الثقة بين المواطن ودولته.

الانطباع الثاني الذي خرَجتُ به من قراءاتي لمعظم ما تخطه أقلام كُتَّابنا هو انطباعٌ غريب يدعو للضحك؛ فمثلما تفعل الدول وكثير من المجلات والصحف، يصنع أيضًا بعضُ

الكتاب، فتقريبًا لكل كُتابنا نوعٌ غريب من الدفاع عن النفس، ومحاولة مستميتة لإبعاد العيون عن ذات الكاتب أو مراميه، ومرتديًا ثوب «الموضوعية» المحضة نجد أن لا هدف للكاتب سوى إثبات أنه وحده الذي على صواب، وأما الباقون جميعًا فهم المخطئون.

ويتبنَّى تمامًا وِجهة نظر الآخر. إن الاتفاق — أي اتفاق — بين بشرَين ليس أبدًا كتمارين الهندسة التي كنا نأخذها في الثانوي، ونقول في النهاية: إن هذا المثلث ينطبق على الآخر تمامَ الانطباق. إن الاتفاق البشري يَختلف في أنه «يتماسُّ» تَماسَّ الدوائر حيث تتلامس الدائرتان بجزء من محيطَيهما فقط، وتبقى معظم أجزاء الدائرة حرةً لها ما تشاء من آراء. ونحن لا نفعل هذا.

حين نتفق نريد أن يكون الاتفاق تامًّا وشاملًا لكل جزئية من جزئيات التفكير. وحين نختلف نختلف في كل شيء، حتى إذا تخاصَمَت دولتان في بلادنا العربية فكل ما يتعلق بالدولة الأخرى ملعونٌ ملعون، حتى شعراؤها ومُطرِبوها ملعونون، أرضها ملعونة، طعامها الشعبي ملعون هو الآخر!

بصراحة هذه الطريقة من التصالح الكلي أو التخاصم الكلي هي طريقة الأطفال، حين يتخاصمون تخاصمًا تامًّا أو يتصالحون تصالحًا تامًّا.

ولهذا يَبقى السؤال قائمًا: هل مِن الممكن أن نحصر خلافاتنا واتفاقاتنا بحيث دائمًا تكون حول «بعض النقاط»؟ الاتفاق حول بعض النقاط، والاختلاف أيضًا، إذا حدث، يكون حول بعض النقاط؟

ألا نصير بهذا أكثرَ عمَليةً في خلافاتنا، وبالتالي تصبح خلافاتنا مثمرة. وبمناسبة «الموضوعية» هذه لا بد لنا من وقفة حِيالَها؛ فما أكثرَ ما تُستعمَل هذه الكلمة «الموضوعية» في كتاباتنا، مع أني نادرًا ما أقرؤها في كتابات الآخرين! لا أحد دائمًا يُردِّد: «وبشكل موضوعي أقول ...» ذلك أنهم دائمًا يكتبون بشكلٍ موضوعي حتى لو كان الموضوع ذاتيًّا، أو أنهم حين يتحدثون عن ذواتهم لا يكون هدفُهم الدفاعَ عنها، وإنما الهدف مناقشة ذواتهم تلك بطريقةٍ موضوعية تُحتِّم عليهم أن يَعترفوا بالخطأ إذا أخطَئوا أو يُراجِعوا موقفهم إذا عنَّ لهم مراجعة مواقفهم. أما نحن فنقول كثيرًا: «ومن ناحيةٍ موضوعيةٍ محضة»؛ لأننا حقيقةً نستعمل هذا التعبير لإخفاء عدم موضوعيتنا، وإلباسِ ذاتيتنا لباسَ الموضوعية.

ونتيجة هذه المباريات الحامية في «الموضوعية»، فإن كتاباتنا كلَّها تكاد تتشابه، وإن هذه الرغبة العارمة في تجريد كتاباتنا من الذاتية لا تخلق سوى مواضيعَ ممسوخةٍ

لا أثر للتفرُّد فيها، وكأنها مكتوبة جميعها بقلمٍ واحد. إن أحدًا منا لا يريد أن يَكتب مثلما يُفكِّر، ومثلما يعيش، ومثلما تتوارد له الخواطر؛ لأنه دائمًا يريد أن يَكتب مثلما يكتب الآخرون، ولأن الذاتية في الكتابة هي الموضوعية نفسها؛ لأن الذاتية تعني التفرد، والموضوعية في الكتابة تَعني أن يقترب كلٌّ منا من «الموضوع» بطريقته، ويتناوله من وجهة نظره الشخصية المحضة، ومن جِماع وِجْهات النظر الشخصية تأتي الموضوعية.

النتيجة أيضًا أنني لم أقرأ حتى الآن لكاتبٍ عربي مقالًا يعترف فيه أنه أخطأ مرة أو زلَّ، أو يَذكر لِذاته المصونة عيبًا، كلنا حين نكتب نكذب؛ إذ نتحشَّم ونرتدي أزياءنا الرسمية تمامًا، والعامة تمامًا، والمتفَق عليها تمامًا؛ حتى لا يبدوَ أحدُنا شاذًّا عن الآخرين، في حين أن الكتابة الحقة هي أن يَصدُق الإنسانُ مع ذاته وذوقه، ويرتديَ أو يكتب ما يحلو له وحده؛ إذ مِن جماع هذا يأتي الثراء الفكريُّ والغِنى الأسلوبي، وتتكوَّن لدى القراء عادة أن يخجلوا من أنفسهم ومن عيوبهم لو وُجِدَت. ويخلق الكُتاب الكذَّابون قراءً كذَّابين؛ فالكُتَّاب يَنظر إليهم الناسُ كمُعلِّمين سواءٌ أرادوا أو لم يُريدوا، ولأن معظمنا يُفضِّل أن يُسايِر الرأي العام والذوق العام والنفاق العام والكذب العام؛ فإننا نصل إلى درجة الفقر الفكري المدقِع؛ فالكل مسترخٍ في ظل الرأي المتفَق عليه، ولا أحد يريد أن يَصدم الآخَرين بالحقيقة حتى لو كان شديدَ الإيمان أنها الحقيقة، إنه يُفضِّل أن يَقول ما يُحب الناسُ أن يقوله، أو ما يُحبون سماعه، حتى لو كان هذا على حساب الحق، وحين يقرأ الناس ما يحبون قراءته فقط يتعوَّدون ألا يَقولوا أو يكتبوا للآخرين ما يحبون قراءته أو سماعه.

ولا يبقى إلا رأيٌ عقيمٌ واحد.

رأي لا يمكن أبدًا أن يُثير الفكر أو يُحرِّك الوجدان أو يُنشط الهمة.

ومحلَّك سر نتوقف!

بينما غيرنا بصدقهم مع ذواتهم، بالصراعات الفكرية القائمة بينهم؛ لا يخافون منها أبدًا ولا يرعبهم الخلاف، بالعكس، يعتبرونه علامة الصحة الجماعية، بينما هم بهذا يتقدَّمون، وبسرعة الصاروخ.

الانطباع الثالث والسريع أننا لا نعرف كيف نختلف؛ ولهذا فنحن أيضًا لا نعرف كيف نتفق. إن أي اتفاق بين شخصَين أو مجتمعَين أو دولتَين لا يَعني أبدًا أن يذوب كلٌّ منهما في الآخر، أو أن يتناسى كلٌّ منهما نفسه، ويكظم آراءه الخاصة، وإنما معناه أنه عند تلك النقطة، أو عند هذه النقاط بعينها، قد اتفقا، أما بقية آرائهما ومعتقداتهما فهي لا تزال كما هي محل خلاف …

أما نحن، فنحن كما قلت: إما أن نتفق حول كل شيء، أو نختلف حول كل شيء، فإذا تصالَحْنا تناسَينا كل أوجه الخلاف، أو عِشنا شهرَ عسلٍ سعيدًا مديدًا، وإذا تخاصَمنا تذابحنا، وكأننا قوم من المجانين لم يكن بينهم أبدًا ماضٍ كانوا متفقين حوله، ولن يكون أمامهم مستقبل من المحتم أنه بعد حين سيتفقون حوله أبدًا.

ولهذا فالحقيقة ضائعة تمامًا في عالمنا العربي «السعيد الشجاع»؛ فالخلافات ليست حقيقة، والاتفاقات أيضًا ليست حقيقة، والآراء ليست اجتهاداتٍ شخصيةً هدفُها إطلاع الناس على رأيك أنت في القضية، وليس نفاقُ الناس عن طريق إيراد رأيٍ تَعرف أنهم يُجمِعون عليه، ولا خلاف بينهم حوله.

ولهذا أيضًا فالتفرُّد يُنظَر إليه في عالمنا العربي على أنه رجس من عمل الشيطان، وأن صاحبه لا بد مجنون أو مصاب بمرض من أمراض الكبرياء؛ إذ كيف يَجسُر على مخالفة «الإجماع» العام، ويخرج بهذا الرأي النشاز المتفرد، لا بد أنه مأفون أو معتوه ... فلو كان عاقلًا حقًّا لآثر السلامة ومشى مع القطيع، ولَما حدَّثَته نفسُه الأمَّارة بالسوء أن يشذَّ عن الرأي العام أو النفاق العام، وأن يقول ما يعتقد أنه الحقيقة، ورزقه على الله.

أجل ... إن أحد أسباب تخلُّفنا الكبرى أننا نتحاشى مواجهة الوقائع والحقيقة، وأن المواجهة بالرأي الصريح في وجه المُقال في حقه، وفي حضوره مسألةٌ غير واردة بالمرة؛ إذ الأسلم، والأكثر تمشيًا مع «الإجماع» الأخلاقي، أن يُقال الرأيُ في غير حضرة صاحبه، أو في غير وجوده ...

ولن نتقدَّم أبدًا حتى نستطيع مواجهة أنفسنا؛ أولًا بحقيقتنا وحقيقة ما نفعله، ولا يَطرِف لنا جَفنٌ أمام ما ارتكبناه، فنعترف أننا ارتكبناه، وبشجاعة أيضًا نُعاهد أنفُسَنا على عدم تَكراره، ولن نتقدم أبدًا حتى نستطيع — بعد مواجهة أنفسنا — أن نواجه الغير، وبشجاعة أيضًا نقول له رأيَنا فيه في وجهه وفي حضوره ... وحين نفعل هذا لن تَستطيع حكومةٌ من حكوماتنا أن تكذب علينا، ولا حاكمٌ من حكامنا أن يكذب ونُصفِّق له، وكأنه لا ينطق عن الهوى! وحين يَحدث هذا كله لنا على المستوى الفردي، ولنا على مستوى مجتمعاتنا وحكوماتنا، سنستطيع — أؤكد لكم أننا سنستطيع حينئذٍ — أن نواجه أعداءنا مواجهةً ساحقةً ماحقة، ننسفهم تمامًا؛ فأحد الأسلحة السرية التي اعتمد عليها أعداؤنا في محاربتنا هو علمهم أننا منافقون، غير قادرين على مواجهة أنفسنا أو كبارنا أو حكامنا أو حتى أصدقائنا.

أنا في الانتظار

بمراجعتي لمعظم ما نكتبه نحن الكُتابَ العرب في صحفنا ومجلاتنا وكتبنا، لاحظتُ شيئًا فشيئًا، ثم بشكلٍ متعاظم أننا كُتَّاب «تحليلات» مثلنا بالضبط مثل محرري الأبواب الرياضية في الصحف اليومية، الذين فقَدوا القدرة والرغبة في اللعب، وآبوا إلى خط المراقبة أو «المقصورة» جالسين في تمام العظَمة والأبهة يُراقِبون الفِرَق اللاعبة والمتلاعبة، ثم يعود كلٌّ منهم إلى منزله، ويفتح «جراب» التحليلات وهات يا تحليل! وهذا هو بالضبط ما يحدث على جميع ساحاتنا، سواءٌ السياسية أو الثقافية أو الاجتماعية، أو حتى السلوك اليومي للمواطنين، تحليلات وتحليلات وتحليلات، ما أنزل بها الله من سلطان؛ وذلك لأنها في معظمها تحليلاتٌ شخصية، أو بالأصح انطباعات، وفِراسات، وتخمينات، وآراء في ألعابٍ فجَّة؛ لأنها ينقصها عاملٌ هامٌّ تمامًا، ألا وهو المعلومات.

كل كُتَّابنا، في السياسة بالذات إلا نفرٌ قليل جدًّا تَنقصهم المعلومات، وحتى هذا النفر القليل معلوماته كلها مستقاة من مصادرَ غربيةٍ أو في القليل النادر مصادرَ شرقية؛ إذ لا مصادر معلوماتٍ عربية موثوقًا بها موجودة على الساحة على وجه الإطلاق. وأقربُ مثل لهذا ما يَحدث في لبنان، مثلًا، نحن هنا في مصر، وهناك في الكويت، أو في المغرب نعتمد على المراسلين الأجانب في نقل أخبار ما يدور على الساحة اللبنانية بالصوت أو المقال أو الصورة، ونقرأ نحن هذا أو نراه، ثم نكتب على أوراقنا، وبناءً عليها — على المعلومات تلك — نُدبِّج التخمينات والتحليلات؛ وتكون النتيجة أننا نقول أشياءَ عامةً جدًّا؛ مثلًا نقول إن هناك مؤامرةً إسرائيليةً أمريكية لتقسيم لبنان إلى دويلات أو «كانتوناتٍ» طائفية تُحيط بالجزء الشمالي من إسرائيل، لتصبح إسرائيل الدولة أقوى «كانتون» بين كل تلك الكانتونات الصغيرة. والنظرية صحيحة، ما في ذلك شك، ولكن المشكلة، هل كَشْف هذا المخطط بمثل ذلك التحليل العام هو غايةُ المراد من رب العباد؟! وهل إذا كتبنا هذا في

صحفنا، نكون قد قمنا بكل الكفاح القلَمي والقومي اللازم لإحباط هذا المخطط، أم نكون على أقصى تقدير قمنا بدورٍ كدور نُقَّاد كرة القدم حين يقولون: كانت خطة الأهلي لهزيمة الزمالك أن يجعل «غزل المحلة» يهزمه لينقص رصيد الزمالك نقطة؟!

ولن أذهب بعيدًا؛ فأنا شخصيًّا قد قلت في أسبوعياتٍ ماضية في «الرأي العام» إن الخطة الاستعمارية الكبرى لقتل فكرة العروبة والقومية العربية هي الإيقاع بين الفكرة القومية والإسلامية لكي يتناحر الإسلاميون والقوميون، والكل يعتقد أنه هو الذي على الحق المبين؛ لِيَكسب الاستعمارُ في النهاية اللعبة، دون أن تُراقَ له قطرة دم واحدة. قلتُ هذه الفكرةَ مستوحيًا إياها من مجريات الأمور في منطقتنا؛ فليس صدفةً أبدًا أن تَصير الوقيعة بين العراق المسلمة وإيران المسلمة، فالعراق لا يمثل العراق المسلمة فقط ولكن يمثل أيضًا الفكرة القومية العربية، بينما إيران تمثل الفكرة الإسلامية الشيعية ضمنًا، وليس هدفها أبدًا أن يتم ذبح الفلسطينيين المسلمين في مخيَّماتهم بأيدي حلفائهم من المسلمين الشيعة اللبنانيين، فالفلسطينيون يمثلون بؤرة الفكرة القومية التي اجتمعت حولها الشخصية القومية العربية، بينما «أمل» تمثل جيش التحرير الإسلامي اللبناني، الذي لا تهمه أبدًا الفكرة القومية العربية.

أقول: قلتُ هذا الكلامَ بِناءً على دلائلَ وعلاماتٍ ووقائع، ولكن أيضًا مجرد «تأمل» للحوادث الدائرة حولنا، وللأهداف التي «نقرأ» عنها من مصادر اليونيتدبرس والأسوشيتدبرس والإن بي سي ورويتر والفرانس برس، فلا يوجد صحفيٌّ عربيٌّ واحد، أو إذاعي أو تليفزيوني من موقع من المواقع الآنفة الذِّكر. كلهم صحفيون وإعلاميون غربيون، وكلها مصادر غربية، ولا صحفي واحد ذهب إلى السيد نبيه بري مثلًا وسأله: لماذا يحدث ما يحدث على أيدي قواته؟ وما هو رأيه في قضية الفلسطينيين عمومًا؟ وكيف يزعم أن إسرائيل هي العدو اللَّدود، ثم يقضي على الأعداء الألِدَّاء للإسرائيليين الذين هم الفلسطينيون؟ ذلك أن تلك الأسئلة بالذات، والإجابات عليها كانت هي الكفيلةَ بإعطائنا الوجهَ الآخر للمعلومات التي نحصل عليها من مصادرَ غربيةٍ دمًا ولحمًا واتجاهًا وسياسةً.

ولنأخذ مثلًا آخر؛ حكاية تهريب «الفلاشة» من السودان. إن أول مَن أذاع وأشاع الأخبار كانت مصادرَ إسرائيلية، زعمَت أن إسرائيل هي التي قامت بالعملية كلها، ولكن الأمريكان لم يُعجِبهم هذا الزعم، وقرأتُ — وأنا في أمريكا منذ شهرَين — تحقيقًا كبيرًا عن رجل مخابراتٍ أمريكية باعتبار أنه هو الذي دبَّر العملية كلَّها من ألِفها إلى يائها. وأعتقد أن هذه الأنباء لم تُذَع عبثًا ولا من قبيل التفاخر والتباهي، ولكن أومن شخصيًّا أنها أُذيعَت

عن عمد؛ لأن نميري كان قد استنفد أغراضه بالنسبة لأمريكا وإسرائيل، وكان مطلوبًا خلعُه قبل أن تَستوليَ الجبهة الوطنية الشعبية على الحكم نهائيًّا، وهكذا تم الكشف عن العمَلية في وقتها المناسب تمامًا لأغراض إسرائيل وأمريكا، «ثم أيضًا تم بعد إتمام الصفقة وانتهاء المؤامرة!» والمثل الثالث الذي يحضرني أني كنتُ في زيارة للعراق، وكان ضمن البرنامج الذي طلبتُه أن أزور الجبهة، وكانت زميلتي في الزيارة صحفية بريطانية من الجارديان أو الأوبزيرفر؛ لستُ أذكر. ولن أنسى أبدًا جُرأةَ تلك الصحفية، بل وحتى طلبها أن تزور جبهة البصرة، حيث كان القتال حاميَ الوطيس أيام الاحتلال الإيراني لمنطقة المستنقَعات، وحين لم يُسمَح لها بهذا وزرنا الجبهة الوسطى، كانت حريصة على معرفة أدقِّ التفاصيل عن الجيش العراقي، بل كانت تسأل أسئلة تدعو أحيانًا للغضب؛ فسألَت مثلًا: هل الأسلاك الشائكة المقامة خلف خطوط القتال للجيش العراقي أُقيمَت بهدف منع القوات من الانسحاب لحظة المواجهة، أم لأي سبب أُقيمت؟ وسألَت مقاتلًا: كيف يُقاتِل في الخطوط الأمامية وهو يرتدي ساعة ذهبية قد تَلمع في الظلام؟ وآخرَ عن: كيف يرتدي هذا الخاتَم ذا الفصِّ الوهَّاج؟ وهل هذا مسموح به في الجيش؟ … إلى آخر تلك الأسئلة الدقيقة التي وضَح لي أن الهدف منها في النهاية أن تعرف إن كانت الجبهة الوسطى، أو حتى الجبهة كلها فعلًا، في حالة قتال مع إيران أم أنه قتال بالبلاغات الرسمية وحدها؟

نعم أيها السادة، نحن نحيا في عصر المعلومات؛ الدول المتقدمة متقدمةٌ بما لديها من معلومات، والمتأخرة متأخرةٌ بمقدار ما ينقصها من معلومات، ولا بد أن تكون معلوماتٍ دقيقةً وصحيحة مائة في المائة؛ فعلى أساس تلك المعلومات تَبني تلك الدولُ سياساتها، وتضع خططها وتُناوِر مُناوئيها وأعوانها، وفي أحيان كثيرة تنجح في قهرهم، فماذا عن عالمنا العربي المهيب؟

إن معلوماتنا حتى عن أنفسنا ليست ناقصة فقط، ولكنها في معظم الأحيان غير موجودة، حتى تلك المعلومات البدائية تمامًا، مثل مستوى دخل الفرد في أية دولة عربية لا نعرفه ولا نبحثه، فنحن إنما «نتلقاه» من إحصائيات البنك الدولي أو الهيئات الأجنبية. إن معلوماتنا مثلًا عن التركيبات المختلفة للدول العربية، والعلاقات والمعاهدات، ومدى الاتصال التاريخي بين القبائل اليمنية مثلًا، وبين عرب الأندلس، ومدى الأيدي العاملة «الأجنبية العربية» في أي بلد عربي، ومستواها، ومشاكلها، وتأثير التفاعلات التي جرت في الأمة العربية كلها سلبًا وإيجابًا من جراء الحروب، والانتصارات المحدودة، والانهزامات

غير المحدودة، معلومات لا نعرفها، وإن عرَفْناها فعن طريق الدراسات الغربية! إن معلوماتِ معظمنا الشخصيةَ عن حروب مَجيدة خاضَتْها أُمتنا كحرب السويس وهزيمة ٦٧ وانتصار ٧٣ والمؤامرة الأمريكية الإسرائيلية لإحداث الثغرة، التعاون الإسرائيلي الأمريكي أثناء الحرب وبعدها، حتى معلوماتنا عن أثر المقاطعة العربية البترولية على المجتمع الأوروبي والأمريكي، ومدى تأثير ذلك على سياسة الكتلة الغربية، ومعلوماتنا عن التركيبة الداخلية للنظام السوفييتي والعلاقات بين دول أوروبا الشرقية، معلوماتنا عما يحدث في أمريكا اللاتينية، حتى معلوماتنا عما حدث من كارثة اقتصادية في سوق المال الكويتية، بل حتى معلومات كل دولة عربية عن نفسها، ولا أقول عن شقيقاتها العربيات؛ معلومات جِدُّ ضئيلة، معظمها يَعتمد على الإشاعات والأقاويل والحوادث الفردية والأحاديث المروية، وليس على وثائقَ ثابتةٍ أو إحصائيات دقيقة أو معرفة سليمة بواقع الحال. وإذا قارَنَّا هذا بكم المعلومات الهائل الذي يمتلكه الغرب عنا، كمٌّ مُخيف من المعلومات وفي كافة الاتجاهات والمجالات، حتى إنني قابلتُ باحثة أمريكية في جامعة لوس أنجلوس انتهَت من بحث مكوَّن من حوالي أربعمائة صفحة عن وباء الملاريا الذي اجتاح صعيد مصر في عام ١٩٤٥م، وفشل الحكومة المصرية وحتى فشل الحكومة البريطانية التي كانت تحتلُّ مصر في ذلك الوقت في مقاومته، وهنا تدخلت الحكومة الأمريكية وساعدَت في مقاومة المرض، وكانت النتيجة إنشاءَ أول مؤسسة أمريكية عسكرية في مصر باسم «نامرو» تتبع الأسطول الأمريكي، مؤسسة لا تزال قائمة حتى الآن، وكان هذا أيضًا مصاحبًا لبداية اهتمام الأمريكان بمصر وبمنطقة الشرق الأوسط، سياسيًّا وعسكريًّا ثم في النهاية اقتصاديًّا بنجاحها في خلع النفوذ الإنجليزي الفرنسي الهولندي المسيطر على البترول في المنطقة. بحث خطير قابلَت من أجله أكثرَ من ثلاثمائة شخصية مصرية وأمريكية وإنجليزية، وحتى من أفراد العائلة المالكة المصرية، الذين لا يَزالون على قيد الحياة. قد تقول إن بحثًا كهذا لا معنى له، أو بالأصح لا معنى سياسيًّا أو علميًّا له، ولكن كم المعلومات البشرية والعِلمية والسياسية التي يحتويها هذا البحثُ — وقد اطلعتُ عليه — لا يُقدَّر بثَمن. بل هالني الأمر إلى درجة أن أحد كبار المسئولين عن جامعة لوس أنجلوس اقترح عليَّ أن نوصل مركز المعلومات في جامعة القاهرة بجامعة لوس أنجلوس عن طريق القمر الصناعي، بحيث تستطيع أن تَحصل مصرُ على أية معلومات عن أمريكا من هذا التواصل، ولكني قلت له بادئ ذي بدء إني أرفض الفكرة تمامًا؛ لأن كمَّ المعلومات التي تسوف تَحصل عليها أمريكا عنا ودرجة الاستفادة منها على وجه الدقة، درجة الاستفادة من تلك المعلومات ستبلغ ذروتها عندهم، بينما نحن لن نَملِك

حِيال المعلومات التي سنحصل عليها منهم شيئًا؛ فليس لدينا مراكزُ لتحليل المعلومات، ولا استراتيجية معروفة للاستفادة منها. وبينما هنا تنسيق كامل بين أجهزة المعلومات الأمريكية والأوروبية «وكذلك الكتلة الشرقية»، فهناك مُقاطَعة كاملة لأجهزة المعلومات المحدودة التي تمتلكها بعضُ دولنا العربية؛ لأن كل دولة عربية إما في حرب مع أخرى، أو خائفة من حرب مع أخرى، أو تريد أن تنافس الأخرى في اقتناء المعلومات واحتكارها؛ ويكاد يكون التنسيق الوحيد الكائن بين الكتل العربية المختلفة هو التنسيق الموجود بين دول الخليج، ولكن صلة هذه الدولة المعلومية ببقية أنحاء الوطن العربي تكاد تكون مقطوعة أو مبتورة أو أحيانًا مغلوطة تمامًا.

إننا نعيش في مجتمع تكتلات لم يَعُد مجتمعَ دول منفردة أو قبائل متنافرة، أو حتى أوطان منفردة مستقلة، نحن نعيش عصر التكاتف والتعاون والعمل الجماعي المشترك بين كل كتلة من الدول متناسقةِ الأهداف والغايات، وبينما هذا يحدث في العالم لا نجد لدينا في العالم العربي إلا كتلة مع انسجامها الكامل في قوميتها وتكوينها النفسي ولُغتها ومَصالحها إلا أن التنافس بينها والتعارك يأخذ بالفعل شكلًا مرَضيًّا، يجعل الإنسان يلعن هذه الأوطان المعزولة، ويتمنى من أعماق قلبه أن يجتاحها ذات يوم طوفانٌ يَكسر هذه الحواجزَ التي تخنقنا وتُؤَخِّرنا، بحيث نحيا العصر وروح العصر، العصر المبني على الحقائق والوقائع والمعلومات، والذي تُدبَّر فيه أمورها بِناءً على الإحصائيات والأرقام التي تحصل عليها بنفسها ولمصلحتها فقط، وليست تلك التي تَنقلها عن الغير الذي يُذيعها بالضرورة لمصلحة نفسِه، وحبذا لو لقيَت كلمتي تلك صدًى لدى أصدقائي وإخواني الكُتاب والمفكِّرين العرب؛ ليس في الكويت فقط، ولكن في الأمة العربية كلها.

وأنا في الانتظار

ورغم هذا نحن معك ضد أمريكا

لا يستطيع كاتب عربي، مفكرًا كان أم صحفيًّا، كاتب قصة أو رواية، أو حتى مواطن عادي، لا يستطيع أن يمنع نفسه منعًا من التفكير في الحكايات الغريبة، التي ملأت الساحة فجأة، وتكتسح مجالات الإعلام، والإذاعات والتعليقات، حكايات الإرهاب وليبيا والولايات المتحدة مع إلحاق «أبي نضال» ومنظمة التحرير ومصر بتلك الحكايات؛ ذلك أن وضع ليبيا في الشرق الأوسط واتجاهاتها السياسية ليست بنتَ اليوم، فهكذا كانت سياسةُ ليبيا منذ عشر سنوات أو تَزيد، وربما هكذا ستظل، إنها تعلن صباحَ مساء عداءها اللَّدود لإسرائيل والولايات المتحدة والغرب عامة، وتعلن الحرب واضحة صريحة ضد كل الدول العربية التي تَعتقد أنها تقف مِن هذه القُوى موقفًا «معتدلًا» بل حتى موقفًا غير عدائي، فهي تُعادي مصرَ السادات ومصر مبارك منذ زيارة القدس وعقد معاهدة السلام وحتى بعد اغتيال السادات واغتيال المعاهدة، بل قبل هذا منذ إبرام اتفاقيات فضِّ الاشتباك الأولى والثانية، وإن كانت قد غضَّت النظر عن اتفاقيات فض الاشتباك، التي أُبرِمَت مع سوريا، وركزَت ثِقلَها الهجومي الإعلامي العدائي ضد مصر، بإبرامها نفس هذه الاتفاقيات، كذلك موقفها من المملكة العربية السعودية؛ فهي تتهِمها بأنها حليفةٌ لأمريكا أكثر من حرصها على المصالح العربية، وتتهم العراق بأنه خان القضية العربية بدفاعه عن أرضه ضد غزو الثورة الإيرانية الإسلامية الشبيهة تمامًا بالثورة الليبية، وكأنه كان على العراق أن يُسلِّم أموره «لثورة إيران» تحتل أرضه وإرادته، وتضمُّه إلى الجمهورية الإسلامية الكبرى هو ودول الخليج. وطبعًا موقفها في لبنان معروف، مع العلم أن العالم كله يَعرف أن العقيد القذافي إسلامي العقيدة، عربي الموقف والاتجاه؛ إذ إن تحالفاته في المنطقة وعداواته واضحة كلَّ الوضوح، فهو يُحالِف ويُزوِّد إيران بالأسلحة والمال، وربما الرجال، ضد العراق، ويؤيد بعث سوريا ضد بعث العراق، الذي كان زعيمه النظري الأستاذ ميشيل عفلق يتعاطف

تمامًا مع الإسلام كمبدأ، لا شيعة فيه ولا سُنة، وإنما فيه رسالة محمدية كبرى، حتى إن مِن أعظم الكتب التي قرأتُها عن النبي محمد ﷺ كان كاتبه هو ميشيل عفلق ذاته، وبإيمانه وقلَمِه.

وأيضًا ليبيا، وبعد تعاون طويل مع منظمة التحرير الفلسطينية، بكل أجنحتها؛ من أبي نضال، إلى الجبهة الشعبية، إلى فتح، بدأت تَفتُر علاقاتها بالمنظَّمة حيث أصبحَت تلك المنظَّمة تُبدي بعض الميل إلى الخط المعتدل في الكفاح العربي مثل ميلها إلى العراق والأردن، وأخيرًا مصر، حتى وصلَت عداوتها حينذاك تُجاه المنظمة إلى قمَّتها، وإلى حدِّ اتهامها بالخيانة، بل حتى تبنِّي العناصر العسكرية المتمردة على قيادة أبي عمار، واعتبار أبي عمار نفسِه قد خان القضية وباعها.

كذلك موقف ليبيا مع الأردنِّ الذي وصل إلى حد قطع العلاقات، والاغتيالات، ولا تزال العلاقات مقطوعة إلى حد هذه اللحظة.

وحين بدأ التقارب بين المنظمة ومبارك والأردن ثم العراق، بدأ العقيد القذافي يصل في غضبه إلى حد اتهام الجميع بالخيانة، وبتعاوُن غريب مع سوريا رفَض تمامًا كل الحلول التفاوُضية السلمية، وأصبح الحلُّ الأوحد عنده وحده — أبدًا ليس عند سوريا — هو الثورة الفلسطينية المسلحة إلى حد الانتحار لو اقتضى الأمر.

وليس هذا موقفَ العقيد القذافي عربيًّا فقط، إنما هو موقفه في العالم كله؛ فهو يؤيد بالمال والسلاح أيرلندا الشمالية ضد حكم البروتستانت البريطانيين، ويؤيد نيكاراغوا وثُوارَها ضد أمريكا وتدخلاتها، ويؤيد كلَّ الحكومات العسكرية الانقلابية في أفريقيا؛ شرط أن تَتبعه في خطِّه «الثوري» ولو أدى هذا إلى تفسخ منظمة الوَحدة الأفريقية نفسِها، وإلى قيام الحروب بين صومالها وحبشتها، وبين ناميبيا وجارتها العنصرية.

ومن هذا نرى «أن موقفه الثوري يمتدُّ من طرابلس إلى كل بقاع الوطن العربي، ومن الوطن العربي إلى أفريقيا، ومن أفريقيا إلى أمريكا اللاتينية والعالم كلِّه، حتى إنه هدد أخيرًا بإرسال كوماندوز إلى شوارع نيويورك وواشنطن».

ولقد ظل العقيد القذافيُّ يُشكِّل لي، وربما لكثيرين غيري، لغزًا كبيرًا؛ أهو بطل دونكشوت يحلم أن باستطاعته أن يُثير المنطقة العربية كلَّها من العالم ضد أمريكا، ويقود ثورة مسلَّحة تُسقِط الإمبراطورية الأمريكية وحِلْف الأطلنطي وتكتسح إسرائيل، وأنه يؤمن بهذا حقًّا ويَعمل على تنفيذه! أم أن للمسألة أبعادًا أخرى؟ وثَمَّة لغز آخر استعصى عليَّ حلُّه، إذا

كان العقيد القذافي ذلك الثوري الجيفاري المثالي، الذي يُصِر على إسلامية جماهيرية، وعلى أن مصدر حُكمه هو الآيات القرآنية وحدها باعتبار أن كثيرًا من الأحاديث ورواة الأحاديث قد حرَّفوها، ولم يُبقِ مرجعًا إسلاميًّا صحيحًا مائة بالمائة إلا القرآن الكريم، وأن إذاعة ليبيا ووسائل إعلامها قائمة صباح مساء على التبشير بالإسلام الاشتراكي الصحيح الكريم، الذي يُشكِّل العمود الفقري لكتابه الأخضر في فلسفة الحكم، ونظريته المثلى لإصلاح حال الكون وتغيره تغييرًا جذريًّا، نظريته الثالثة.

إذا كان هذا هو ما يقوله ويفعله، فكيف تم التحالفُ بينه وبين دولة عظمى كالاتحاد السوفييتي، لا تؤمن بالطبع لا بالكتاب الأخضر ولا بالنظرية الإسلامية المحمدية، وإنما هي قائمة على أسس ماركسية لينينية مادِّية جدلية؟ تحالف تكتيكي واستراتيجي معًا، بحيث يقوم الاتحاد السوفييتي بمد الجماهيرية الليبية بالسلاح، دفاعيًّا وهجوميًّا، صغيرًا وكبيرًا، ومن أول مسدساته الشخصية للدفاع عن النفس إلى أحدث صواريخ سام «٦» وسام «٥» القادرة على ضرب أي طيران في سماء تونس أو مصر أو المغرب حتى وخليج سرت؟

إذا كان العقيد الليبي «دونكشوتيًّا» كما يصفونه ويُشنِّعون به عليه، فكيف بالاتحاد السوفييتي، ذلك البطيء في اتخاذ قراراته، ذلك الدب القطبي في حركته، ذلك الذي لا يتخذ قرارًا إلا بعد دراسات عِلمية عريضة في المكتب السياسي واللجنة المركزية، بل وأحيانًا داخل مؤتمر الحزب نفسه الذي يضم عشَرات الآلاف من المندوبين؟!

كيف بكل هؤلاء الناس العُقلاء الشديدي التعقُّل، الذين يَزِنون كل خطوة، يَزِنونها بميزان إلكتروني لا يُخطئ، يرتضون هذا التحالف غير المحدود مع العقيد، ويُناصِرونه إلى أقصى مدًى، ويقفون له كالصديق الحارس الأمين بصواريخهم على أرضه، وأساطيلهم بمياهه الإقليمية، على استعداد للاشتباك مع الولايات المتحدة نفسها لو حدثَتها نفسُها بالعدوان على ليبيا.

إذا ظلت ليبيا، وظل العقيد القذافي بالنسبة لي، برغم كلِّ ما قرأتُه عن مجريات الأمور هناك، وعن شخصية العقيد، وعن كل ما قاله عنه أنور السادات وجهاز دعايته، أن يُفسِّر لي ولو هامشًا صغيرًا من هوامش الرجل ونظامه ووضعه على الخريطة العربية، ووضعه على الخريطة العالمية نفسِها، وظل حبُّ الاستطلاع يعمل عمله داخل نفسي، حتى إني ذات مرة كنتُ في زيارة لقبرص، وقابلتُ شخصية ليبية مسئولة، صرت أناقشها في كل هذا الذي ذكَرت، وأناقشها بالذات في الحملات التي يُشِنها راديو «صوت الأمة العربية» ضد النظام المصري مع أنه كان قد تغير تغيرًا كبيرًا منذ أن كان ساداتيًّا إلى أن أصبح مباركيًّا.

وإذا بهذا المسئول الليبي يُفاجِئني بسؤال: ولماذا لا تحاول أن تعرف كلَّ هذا بنفسك؟! قلتُ: كيف؟! قال: لماذا لا تقابل العقيد؟ إني معتقد أنه سيُرحب بتلك المقابلة وبما يدور فيها من نقاش غايةَ الترحيب؛ فهو مثقَّف يحب الحديث إلى المثقفين.

دون تفكير، ولكثرة الأسئلة التي كانت تدور في بالي، قلت: موافق.

وانتهت السهرة، وظننتُ أن الأمور كانت قد انتهَت عند هذا الحد. وإذا بالمسئول يتصل بي في اليوم التالي في هيلتون القدس حيث أَنزِل فيه، وهو نفس الفندق الذي اغتِيل فيه المرحوم يوسف السباعي أثناء انعقاد مؤتمر التضامن، والذي لم أكن أرتاح كثيرًا إلى رَدهاته الطويلة المعزولة، وقِلة القاطنين فيه، إذا به يتصل بي ويقول: وصلَتْني الآن برقية من طرابلس من مكتب العقيد، يدعوك إلى زيارة ليبيا ومقابلته، وإجراء ما شئتَ من حوارات وأحاديث معه.

أعتقد أن قراءً كثيرين يَعرفون القصة وقد تابَعوها بعد أن أصبحَت واحدةً من قصص الحقبة، أثناء تلك الفترة كنتُ أكتب سبعة مقالات للنشر في إحدى الصحف الكويتية اليومية، التي كانت هي الأخرى قد باعت حق نشرها إلى جريدة خليجية تَصدُر في دولة الإمارات. وكان العمود الرئيسي لمقالاتي مرتكزًا على مذكرات محمد إبراهيم كامل وزير الخارجية الذي عينه السادات ليوقع معه معاهدة كامب ديفيد، فإذا به، وهو الذي جاء يوقِّع، يرفض التوقيع ويستقيل ولا يُوقِّعها، ثم بعد أن مات السادات يصدر تلك المذكرات التي هالني ما قرأتُ فيها، فقد كان واضحًا أن السادات يريد عقد الصفقة مع إسرائيل ومع كارتر، مهما كان الثمن الذي ستَدفعه مصر فيها، وإلى الدرجة التي كان كارتر يعترض، كارتر هو الذي يعترض، على بعض البنود التي يريد بيجين والوفد الإسرائيلي إدخالَها لمصلحة إسرائيل في المعاهدة.

وكان السادات يَقبلها، والذي يعترض — ويا للعجب — هو كارتر؛ خوفًا من رد أفعال مثل هذه الفقرات على بقية البلاد العربية الأخرى، فقد كان حُلم كارتر أن يُمرِّر كامب ديفيد ليُوافق عليها العرب جميعًا.

جُنَّ جنوني مع قراءتي لمذكرات محمد إبراهيم كامل، وقابلتُه وعرَفتُ منه حقائقَ أكثر إثارة مما كتبه، جعلَتْني أقرأ كتاب مذكرات كيسنجر، ثم مذكرات سعد الدين الشاذلي، ثم كل الصحف التي صدرَت أيامها، ووصلتُ إلى قرار أن السادات قد فعل بهذه المعاهدة عملًا غيرَ مسبوق في تاريخ الدول والحكومات؛ فقد «سلم» مصر إلى إسرائيل وأمريكا، بل سلَّم القضية كلها، ودون أي مقابل وبمنتهى التَّرحاب! حتى إني تساءلتُ كيف تسنى لهم أن

يَجعلوه يفعل هذا، وهل استعملوا معه أنواعًا من المخدِّرات أو المؤثرات، أو نوَّموه تنويمًا مِغناطيسيًّا؟ إذ إنه عميل الفطرة، أو إنه عميل قديم لهم، صنَعوا حوله هالة من النصر المبدئي والبطولة لِيَستطيعوا أن يأخذوا منه مصر، فإذا الْتهَموها فإنَّ التهام الأمة العربية واحدةً بعد أخرى يُصبِح سهلًا جدًّا، إلى أبعد حدود السهولة، بالضبط كما حدَث بعد هذا حين — بعد أقلَّ من عام من توقيع معاهدة كامب ديفيد — بدءوا بالإعداد لغزو لبنان.

في نفس تلك الأيام التي كنتُ أكتب فيها هذا، كنت في إجازة في قبرص، وقابلتُ في الهيلتون ذلك المسئول الليبي، أول مسئولي ليبي أقابله في حياتي بعد القذافي، الذي كان هيكل قد جمعَنا وإياه مرةً بالأهرام ليدور بيننا، نحن مُفكري مصر ومثقفيها، وبينه نوع من «الحوار الفكري»، وأذكر أنه بعد أن انتهى من إلقاء كل ما عنده حول فكرته عن الثورة العربية، وعن الكتاب الأخضر، والنظرية الثالثة، أن سألتُه: لقد خطبتَ سيادتك ومنذ أربعة أيام (كان يزور أثناءها الخرطوم) وقلتَ في خطابك: لقد سقط اليمين، وسقط اليسار. فما هي في رأيك القوات الباقية، لكي تصنع الثورة العربية التي تُنادي بها؟!

وكان السؤال مفاجئًا، ولكن هيكل — ذلك الذكي الدائم — أسرعَ فشرح الموضوع بطريقة في غاية اللباقة وقال: إن ما قاله «فخامة» الرئيس لم يكن مبدأً سياسيًّا، ولكنه كان ردًّا على الشعارات التي رفعها الحزب الشيوعي السوداني، أثناء زيارة العقيد وأثناء عقد المؤتمر.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أراه فيها في حياتي عام ١٩٧١م، وها أنا ذا لأول مرة أيضًا، وفي عام ١٩٨٢م، أقابل أول مسئول من مسئولي النظام، وتُتاح لي مناقشة رجل من رجال ما بعد الثورة.

المهم لا أريد أن أجعل من الأمر قصة طويلة؛ فقد أوقعني وُرود برقية الدعوة في حيرة. لم أكن قد تبيَّنتُها قبلًا؛ فراديو صوت الأمة العربية يَصِم النظام المصري صباح مساء بأنه نظام خائن، ووسائل الإعلام في مصر ترد على الصاع بصاعَين، ومن وجهة نظري ككاتب مصري لم أكن أجد أو أتبين أي سبب جِدِّي يدعو لهذا التراشق المتبقي من عهد السادات، ومن وجهة نظري أيضًا أُحس أن لأي كاتب وطني مخلص دورَه السياسي الخارجي أيضًا، فباستطاعته باعتباره لا يُمثِّل شخصية رسمية أن يتعرَّف على المشاكل والمصاعب بصراحة أكثر، ويَنقلَها إلى الجانب الآخر، وبهذا يكون — كما يقولون — واسطةَ خير، إذا تحسنَت الظروف نتيجة لها باستطاعة الاتصالات الرسمية بعد هذا أن تأخذ مجراها، وتقوم بالدور المناط بها.

ومغامرةٌ كهذه إلى ليبيا دون إذن من حكومتي، ومغامرة أن يتصوَّر المسئولون الليبيون بما فيهم العقيد القذافي، أني رسولٌ موفَد، أحاول أن أنفيَ الصلة فتزدادَ الْتِصاقًا بي — فاصل من أكثر الفصول الكوميدية التي مرت بي في حياتي — فقد أساء الظنَّ بي كِلا الجانبَين، وظن كل جانب أني إنما أحمل رأي الجانب الآخر، وتمت الوقيعة بحمد الله! ولكني أذكر أني في النهاية الأخيرة استطعتُ أن أُقنع العقيد الليبي أني فعلًا جئتُ ككاتب يُريد أن يُجرِيَ معه حوارًا أنشره في المصور، أو الجمهورية، إن لم يكن في الأهرام نفسِها، وهكذا لأول مرة وبعد ساعة ونصف، استقام الحديث.

وفهمتُ أنَّ اعتراض القذافي على مصر أنها أبرمَت معاهدة كامب ديفيد مع إسرائيل، وهذا شيء أنا معه فيه تمامًا، فقد كنتُ أكتب أيامها ألعنُها، أما الذي اختلفتُ معه فيه فهو إصراره على أن تُلغِيَ مصرُ فورًا معاهدة كامب ديفيد هذه.

وحين ذكرتُ له أن مصر لا يمكن ولا تَستطيع أن تفعل هذا إلا إذا كانت قد بلَغَت من القوة عسكريًّا واقتصاديًّا حدًّا تستطيع أن تتصدى معه لأي عدوان إسرائيلي، تقوم به إسرائيل ردًّا على إلغاء المعاهدة، وأن مصر لا تزال لا تملك هذه القدرة أو القوة، وأننا لهذا — كعرَب — لا بد أن نَلتفَّ حول القاهرة، وندعمَها ونُقوِّيها عسكريًّا واقتصاديًّا — لتستطيع أن تَستغنيَ عن المعونة الأمريكية والتسليح الأمريكي المحدود — وأن هذه الطريقة وحدها هي السبيل الوحيد لخروج مصر من كامب ديفيد، أجابني أن هذا صحيح وأن على العرب أن يُقوُّوا مصر. فقلت: الحمد لله! وصلنا.

ولكنه قال إننا — يقصد هو جبهةَ الصمود والتصدي — يجب أن نكون واثِقين أن تَقْوية مصر ستكون لمساعدتها في هذا الاتجاه، سألته: إذن كيف تتأكد يا سيادة العقيد أن مصر ستكون ماضية في هذا الاتجاه؟ قال: مِن الرئيس مبارك شخصيًّا، قلتُ: كيف؟ قال: نتقابل. قلت: ما أجمل هذا الكلام! أتسمح لي بأن أنقل هذا عنك إلى القاهرة؟ قال: أرجوك.

وهكذا خرجتُ من عنده، وأنا بكل حُسن النية سعيدٌ بما توصلت إليه من نتيجة أريد في لمحة أن أعود إلى القاهرة، لأُبلغ السلطات هناك، وأبلغ الرئيس مبارك شخصيًّا بهذا الانتصار الذي حققتُه، في رأيي، برضاء الأطراف أن تجتمع معًا.

لكني اكتشفتُ أني كنت حسَن النية أكثرَ مما يجب؛ فما بين خروجي من مجلس قيادة الثورة حيث مكتبُ القذافي، ووصولي إلى القاهرة، كانت الأخبار قد وصلَت عن طريق أكثرَ من مخابرات، معظمها مُعاد، إلى القاهرة، ووصلَت معكوسة تُصوِّر لمبارك أني إنما جئتُ مقتنعًا بآراء القذافي ولستُ حاملًا لرسالةِ تَقارُب.

وهكذا تمت الوقيعة وأُحرِقَت المهمة، وقام الهجوم البشع عليَّ من قِبَل الصحافة الساداتية؛ ذلك الذي اتهمني بالخيانة والعمالة وطعن الجيش المصري. إذ إن الحملة ضدي كانت في الحقيقة ردًّا على ما جاء في كتابي «البحث عن السادات» وليس، أبدًا، بسبب المقابلة التي تمت بيني وبين القذافي.

وهكذا فسَدَت المهمة فسادًا لم يَشهد التاريخ له مثيلًا!

ولكنه فشل، عرَفتُ منه أشياء كثيرةً جدًّا، ليس هذا مَجالَ تحديد كيف عرَفتُها، إنما أستطيع أن أَقطع أنا وأُقسِم أن العلاقات بين مصر وليبيا، بل وبين مصر وبقية الدول العربية، بل بين كل دولة عربية وأخرى تَضبِطها وتُحدِّدها خطوطٌ حمراء وخضراء وبيضاء، مرسومةٌ بعناية وبدقة شديدة بين القُوى الكبرى، وبالذات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، وأن جريمتي الكبرى أني — بكل سذاجة — عبَرتُ الخط الأحمر المكهرَب وكِدتُ أُصعَق، وكدتُ أُحدِث ذلك التقاربَ الذي يَعني الدمار لكل السياسة الكونية في الشرق الأوسط.

إذ هو مطلوب أبدًا من كِلا المعسكَرَين، ومن مصلحة كلٍّ منهما أن تظَل ليبيا عدوةً لمصر، وأن تظل سوريا عدوة لمصر، وأن تظل السعودية بعيدةً عن الجزائر، وأن تظل الجزائر عدوَّة للمغرب، وأن تظل ليبيا عدوة لتونس. مطلوبٌ أن يستمر هذا كله، حتى يتخذ كلُّ معسكر من هذا البلد أو تلك مرتكَزًا، ومن مصلحة أمريكا أن تُعارِض مصرُ ليبيا حتى إلى آخر المدى، حتى تَشغَلها عن الجبهة الشرقية الإسرائيلية من ناحية، وحتى تضمنَ خضوعها لأي شروط عسكرية أو اقتصادية تُمليها عليها من ناحية أخرى.

تلك كانت اللعبةَ في بدايتها … ولكن اللعبة اتسعَت وأصبح من مصلحة أمريكا وحدها أن تجعل من ليبيا رأس الذئب الطائر بالنسبة للدول العربية المعتدِلة من ناحية، وبالنسبة لمصر بالذات من ناحية أخرى، فكلَّ يوم هناك تعميق وتركيز للخندق الذي حفرَتْه الولايات المتحدة، ولا تزال تَحفره حول ليبيا لعزلها تمامًا من ناحية، بل وجعلها شبْهَ عدوة للإجماع العربي، وسببًا للتشرذُم العربي من ناحية أخرى، ولتبرير العدوان الإسرائيلي من ناحية ثالثة، باعتبار أن تصور ليبيا وتجسُّدَها وكأنها هي وحدها مصدر الإرهاب في المنطقة، في حين أن الإرهاب الحقيقي، والوحيد هو الإرهاب الإسرائيلي، وبهذا يُغطِّي على الإرهاب الحقيقي بإرهاب عربي مصطنَع تُرتكَب باسمه أبشعُ الجرائم ضد الأمة العربية.

أعتقد أن هذه الحقائق كلَّها إذا استعرَضْنا الأحداث القليلة التي مضَت منذ أسابيع، تُعَد على أصابع اليد الواحدة، كفيلةٌ إذا تعمَّقناها، وإذا تبصرناها، وإذا رأيناها وأعَدْنا الشريط مرة أخرى لأمكَننا أن نرى أن ليبيا يُلعَب بها، وكأنها عروسة من عرائس مسرح العرائس، وأن العرب يُلعَب بهم وكأنهم أيضًا عرائسُ في المسرح، وأننا كلنا يُلعَب بنا لنتصادم ونتضارب ونتقاتل، ونُوصَم بالإرهاب، بل ونُصبِح من أوائل الدول المنادية في العالم بمقاومة الإرهاب الدولي، في حين أننا الموصومون بأننا الإرهابيُّون الدَّوليون، ويحدث هذا كله في الوقت الذي يتخفَّى فيه الإرهاب الدولي حقيقة، ويتجسد ويُدبَّر بدهاء وخبث شديدَين في تلك البقعة المنكَرة من بقع الشرق الأوسط المسمَّاة إسرائيل، والتي عاصمتها في واشنطن، وليس في القدس كما نعتقد.

رسالة أخيرة للعقيد القذافي

أعتقد يا سيادة العقيد، أنك لو قرأتَ كلامي هذا، ولو راجعتَ ما حدث لك، وما يحدث منك، وما يحدث باسمك إن لم تَقتنِع أنك في بعض الأحيان تُنفِّذ سياسةَ قُوًى أكبرَ منك ومنا بكثير، وأنك تُتخَذ أحيانًا ذريعة لفتكٍ يُراد لنا، ويُراد لك؛ فإنك في هذه الحالة، حقيقة، لا تَستحق ما علقَتْه عليك جماهيرُ عربية كبيرة من آمال، وتَستحق بأن تُوصَم بأنك عدو حقيقي لهذه الأمة، وأنا شخصيًّا ما زلت للآن أعتقد أنك لستَ ذلك العدوَّ، ولا يمكن أن تَكونه إلا إذا استمررت تلعب نفس الدور الذي يرسمونه لك.

ألا هل بلَّغتُ، اللهم فاشهد.

إلى الأستاذ خالد محمد خالد

وعَدتُك — يا حبيبَ المؤمنين بالدِّين والحياة — على أثر مقالاتك عن الإسلام والديمقراطية، تلك التي شرَعتَ فيها لتطبيق ديمقراطي، حديثٍ تمامًا وأصيلٍ جدًّا، للشريعة الإسلامية، وعَدتُك أن أكتب لك رسالة مفتوحة أقول لك رأيي فيها عن هذا الموضوع بأكمله. وكان في نيتي أن أكتب لك رسالة مطوَّلة ومُسهبة ولكني، بعد تروٍّ، وجدتُ أن رسالتي إليك إذا طالت ستتحول إلى نوع من «المونولوج» — ولْتَسمح لي باستعمال هذا التعبير الأجنبي الذي يَعني الحديثَ إلى النفس، والتعبير عن النفس — وكان العرب الأقدمون صُنَّاع اللغة لم يكن شائعًا لديهم هذا النوع من التعبير؛ إذ هم دائمًا كانوا يتحدثون عن الآخرين وللآخرين، ونادرًا ما كان الواحد منهم يُحدِّث نفسه أو يُناجيها، فما بالك أن يُحاورَها ويَنقدها، وجدتُ أنها ستتحوَّل إلى مونولوج، مع أن الممتع فيك ومعك أن يكون الأمرُ ليس سِجالًا — مَعاذ الله — لكن حوارًا صادقًا خلَّاقًا لا تأخذ فيه الإنسانَ العزةُ برأيه ونفسه إلى درجةٍ قد تَدفع إلى مُجافاة الحق والعدل. حوار، لأنه ما أكثرَ ما شاع «المونولوج» في حياتنا إلى حدٍّ كِدنا نتحول فيه إلى ما يُشبِه مسرحية الصَّديق الكبير سعد الدين وهبة التي تَصف الناس فيها بأنهم «طرش» لا يسمعون، ولكنهم دائمًا يتكلمون، ونصفهم الآخر خرس يسمعون ولكنهم دائمًا لا يتكلمون.

نحن في حاجة ماسة إذن إلى حوار حقيقي خلَّاق، ليس فقط حول تطبيق الشريعة الإسلامية، بطريقة ديمقراطية أو شمولية، ولكن في كل أمور حياتنا، بحيث يَسمع الجميع، ويَتكلم الجميع، فلا يدفع انعدامُ السمع إلى ثورة الطرش على المتكلمين، ولا تدفع كثرة الكلام الذي لا يسمعه أحد إلى أن يَئوب مجتمعُنا إلى نُعاس، أو تَئوب حياتُه إلى كابوس على أوهن الفروض. نحن في حاجة إلى الحوار، وبالذات حول قضية تطبيق الشريعة؛ لأن السيل قد بلغ الزُّبى كما يقولون، وأصبح الشغلُ الشاغل لصحف الحكومة والمعارضة

«والمعارضة بالذات، وهذا هو وجه العجب» هو تطبيقَ الشريعة الإسلامية، وتطبيقَ الحكم الإسلامي.

وقد قرأتُ كثيرًا من آراء سادتنا علماء الدين الأجلَّاء، حول هذا الموضوع وعن وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية فورًا ودون إبطاء. وكنتُ أَطوي الجريدة أو المقال وأُحدِّث نفسي: أي حكم إسلامي يُريد تطبيقَه هؤلاء الأفاضل؟ هل هو الحكم الإسلامي الخميني؛ أي تحويل المشايخ إلى حُكام كما حوَّل آيةُ الله «المولات» إلى حكومة وحُكام؟ أم هو حكم إسلامي وهَّابي كالسائد في السعودية ودول الخليج؟ أم هو حكم إسلامي قذَّافي كالسائد في ليبيا؟ أم هو حكم كحُكم ضياء الحق في باكستان، حيث أعلَن أن الاستفتاء على رئاسته يَعني الاستفتاء على تطبيق الشريعة الإسلامية، وأنه هو ومَن يَرتضيهم من علماء الدين الذي سيتولى صياغةَ الشريعة مثلما فعل نميري، ويُفكِّر غيره في فعله؟

هل هو تطبيقُ فقه الإمام الشافعي الذي يَعتنق مذهبَه معظمُ المصريين، أو فقهِ الإمام مالك، أو الإمام أبي حنيفة، أو ابن تيميَّة، أو مذهب ابن حنبل؟

وكيف نَشْرَع في تطبيق هذا المذهب أو ذاك إذا اخترناه؟ هل نعتبر أن كلَّ حياتنا المعاصرة التي جدَّت بعد وفاة هؤلاء الأئمة الكبار، وقفل باب الاجتهاد، كل ما جد على حياتنا تلك، مِن ملابسَ مُعاصِرة، و«بِدَل» وراديوهات وساعات وتليفزيونات وسينمات ومسارح وموسيقى وغناء وركوب سيارات والحج بالطائرات والسفر إلى الخارج، ومشاهدة النساء السافرات هناك، والبنوك والمعاملات، والتصنيع والتكنولوجيا، والنظريات الكثيرة في تفسير الكون والحياة، والهندسة البيولوجية، وآلاف غيرها من الأشياء، هل نعتبر كلَّ هذه الأشياء جميعِها خروجًا على الشريعة، باعتبار أنه لم يَرِد بها حديثٌ أو اجتهاد، فنُلْغيها كلَّها، ونعود نَحيا في خيام أو مَساكِنَ من الطين، ونرتدي الجلاليب، ولا يَعود لنا من عمل إلا العبادة في المساجد أو البيوت؛ إذ إن بعضَهم يُفسِّر الأمر هكذا استشهادًا بالآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وفي الحديث الشريف: العمل عبادة؟!

هل يعني تطبيق الشريعة أن نَتبع نظامَ البيعة الذي أَخَذ به المسلمون في صدر الإسلام، فيجتمع ٤٦ مليون مصري، أو بالأصح ١٢٠ مليون عربي في مكان واحد، لِيَختاروا واحدًا يُبايعونه إمامًا للمسلمين جميعًا وحاكمًا مطلقًا، حتى الشورى بالنسبة إليه ليست أمرًا مُلزِمًا؟

كيف يتم اجتماع كهذا، وعلى أي أساس نَعرف نوع الخليفة لِنُبايِعَه، لقد بُويِع أبو بكر لأنه كان صديق النبي وحبيبَه ورفيقَ رحلته العُظمى في إبلاغ الرسالة، وبويع عمر لأنَّ

أبا بكر أوصى ببيعته، وبُويع يزيدُ بن معاوية بسيفِ معاوية وذهَبه وأثناء حياته، فماذا نفعل نحن الآن، وعلى أي أساس نُبايع أمير المؤمنين في عصرنا الحديث؟ أعلى أساس فَصاحته أو قدرته على الخطابة، وأَسْر النفوس أو عدد مرات ظهوره في التليفزيون مثلًا، أم نختار رئيس جمهوريتنا الحاليَّ باستفتاء؟ وما الفارق حينَذاك بين نظام الانتخابات الحديثة ونظام البيعة؟ أم لا بد أن تكون البيعة لفقيه من فقهاء الدين؟ بمعنى أن المسألة في النهاية ليسَت في كيفية الحكم، ولا في تطبيق الشريعة، أو عدم تطبيقها، ولكنها في نهاية الأمر الطريقةُ الوحيدة لكي «يحكم» رجال الدين.

وأنا شخصيًّا لا اعتراض عندي أن يَحكمنا رجلُ دين، بل إني لأحلم بهذا؛ شرط أن يكون هذا الحاكم الدينيُّ في سَعة أفق الإمام محمد عبده، وفي طهارة الشيخ الغزالي، وفي تفتُّح الشيخ خالد محمد خالد، وعُنف الشيخ كشك «في مواجهة الأعداء فقط، وليس في صبٍّ لعناته على مُذيعات التليفزيون» ورِقَّة الشيخ عمر التِّلمساني.

أجَل يا أيها الكاتب الذي قرأتُ له «مِن أين نبدأ» وكنتُ أيامَها أتساءل أنا الآخر: مِن أين نبدأ؟ وهداني تفكيري مثلما هداك تفكيرك إلى أنَّ بدايتنا الحقيقية هي بالترتيب التالي:

أولًا: طرد الاستعمار البريطاني من أرضنا.

ثانيًا: خلع الملِك والملَكية وإقامة نظام جمهوري ديمقراطي حقيقي، يتم فيه كلُّ شيء بالانتخاب المطلَق، من العمدة إلى مأمور المركز، إلى النائب العام، إلى رئيس الجمهورية.

ثالثًا: عن طريق هذا الانتخاب يَختار الشعبُ مُمثِّليه في مجلس تشريعي يُصبِح فيه أعضاؤه أُولي الأمر، وتحت رِقابة الشعب والصحافة أيضًا.

رابعًا: أن تقوم في بلادنا نهضة تعليمية صِناعية نَستعيد بها أسرارَ التقدم العلمي، الذي أخذَتْه منا أوروبا، وطورَته إلى أن استعمَرَتنا وأذلَّتنا بتطويرها لحياتها وأسلحتها به.

خامسًا: أن تبدأ مرحلتنا الحضارية الحقيقية مبنيةً على الأسس السابقة بحيث نتعرَّف على حقيقة ديننا ولغتنا وهُويَّتنا، ونُطوِّر مفهوماتنا إلى درجةٍ تصل بنا إلى أن نُصبِح مُصدِّري فكر وثقافة وحضارة وتَمدْيُن، وليس كما صِرْنا مجردَ مستهلِكين لمواد تمدين نشتريها بالقروض من أمريكا.

سادسًا: أن نَحمي هذا كلَّه بجيش قوي وطني عظيم.

هكذا قرأتُ كتابك إذن: من هنا نبدأ، وآمنت بما جاء فيه لأنه كان يتمشَّى مع معتقداتي الشخصية كطالب وطني يُحب بلدَه وشعبه ودينه، إلى درجة لا يتردد فيها لحظة أن يُضحِّيَ بحياته من أجل هذا الدين وهذا الشعب.

وما زلتُ أحمل عواطفَ ذلك الطالب إلى الآن، ما زلتُ أحلم أننا سنتغلب على كل عقباتنا، وفي النهاية سننتصر.

ولكن …

ولكن يا أستاذ خالد …

لا أريد أن أقول في الوقت الذي يُذبَح فيه المسلمون بأيدٍ مسلمة، وتقوم حربٌ ضَروس بين شعبَين مُسلِمَين، ويبتسم الإسرائيليون في أكمامهم؛ لأن المسلمين والعربَ أنفُسَهم قد كفَوْهم عناءَ إفنائهم، إذ هم يتولَّون الآن وبأيديهم إفناءَ بعضهم البعض!

ألا ترى معي أن هذا الحديث، عن تطبيق الشريعة وقطع يد السارق ورَجْم الزاني، في هذا الوقت بالذات، وعلى صفحات الجرائد المصرية والسعودية بالذات، يُشكِّل في حد ذاته تساؤلًا لا بد أن يَطرأ لأي إنسان لديه ذرةٌ من العقل؛ لقد كان نبيُّنا صلواتُ الله عليه وسلامه «يُبشِّر» بالرسالة، وهي بعدُ في حيِّز عددٍ قليل من المؤمنين، وهو «يُحارب» أعداءَ الإسلام وأعداء الرسالة، لم يكن همُّ المسلمين بقيادة الرسول عليه السلام أن هذا المسلم الفرد قد سرق أو زنى، بقدر ما كان همهم الأوحد أن يَقهَروا أولًا عدوَّ الله وعدوَّهم، ثم يتفرغوا بعد هذا للتشريع والتهذيب والعقاب، لم يكن همُّ المسلمين في ذلك الوقت أن امرأة زنَت وجاءت تَعترف لرسول الله الذي حاول إثناءها عن اعترافها، فأصرَّت؛ تأمَّلوا هذا يا قوم: الرسول الكريم بجلالة قدره يُحاوِل إثناءَ «زانية» لأن نفسَه العظيمة تُدرِك مدى ضعف البشر، وتَعرُّضهم الدائم للخطأ والخطيئة، بمعنى أنه كان يتلمَّس لها العُذر أو البراءة، وأصرَّت، فأُقيمَ عليها الحد. حالة واحدة أو عددٌ قليل من حالات السرقة أو الزنى حدثَت؛ إذ كان همُّ المسلمين الأكبرُ ليس هو «الحكمَ»، ولكنه رفعُ راية الإسلام والمسلمين، إذ تلك هي المهمة العظمى الجديرة حقًّا برسالة النبي الكريم، أما تلك الحوادث التي بالضرورة لا بد أن تكون فرديةً ولا يُمكِن أن تُشكِّل ظاهرة عامة تصبح خطرًا على الإسلام والمسلمين، فإنها ليست هي الخطر، إما الخطر الأكبر يأتي من أعداء الإسلام والمسلمين القابعين في غُرف مكيَّفة، لديهم الإحصاءات والمعلومات والخطط، ويَعرِفون كيف يوقِعون بين الشيعة والسُّنة وبين اللُّبنانيين والفلسطينيين، وبين المصريين والعرب، وبين السودان ومصر، وبين مصر والمغرب، وليبيا وسوريا، وبين إيران والعراق، وبين

أفغانستان وباكستان، كيف يَستقطبون ماليزيا لِتُصبِح إسلامًا نموذجًا وحده، ويوقِعون بين الصومال والحبشة، ويُهرِّبون الفلاشة ويُقنعونهم أنهم يهودٌ أبناءُ يهود، ويَرشون، ويتلمَّسون نقط الضعف ومن خلالها يَنخرون …

هذا هو الخطر الحقيقي على الإسلام والمسلمين يا مولانا الشيخ خالد. وإذا كان البعضُ منا يُريد تطبيق الشريعة فأول بنودها — كما هو واضحٌ لكل ذي عينَين — حماية الإسلام نفسه من أعدائه الخارجيِّين أولًا، أعدائه الحقيقيين، فأعداؤه في الداخل قِلة ممن يُسمَّون فاسِقين أو مارقين أو ماركسيِّين، أمرهم سهل تمامًا، أما الأمر الصعب فهو أن يُواجِه هؤلاء الزاعقون باسم الإسلام أعداءَ الإسلام، ويشيرون إليهم بجماع أيديهم وحناجرهم، ويَحضون المسلمين على التكتُّل لاتقاء شرهم.

إذا لم يكن هذا هو العملَ الأول للمنادي بتطبيق الشريعة، فماذا يكون عمله إذن؟ قطع يد ٢٠٠ سارق كما حدث في السودان، وجلد عشرين زانٍ وزانية، بينما يَموت كلَّ يوم في إيران والعراق ولبنان مئاتٌ من مسلمين أبرياء، تركَهم وُلاتهم وشيوخهم لأنهم مُتفرِّغون لقضية أهمَّ بكثير: تطبيق الشريعة باعتبار أن أعداء الإسلام هم داخل الإسلام نفسه، هم هؤلاء النساء اللاتي لا يُغطِّين كل شعورهن، ومذيعات التليفزيون اللاتي لا يَظهَرن بأشياء شرعية محتشمة؟

اللهم إذا كان أعداء الإسلام هؤلاء، فما أسهلَ قضية المسلمين إذن!

حاضر يا أسيادنا، سنُعيد كلَّ نسائنا إلى البيوت، وسنُغلق التليفزيونات والمسارح والفنادق وسنَرتدي الجلاليب … فهل تَكفُّ إذن الحربُ بين إيران والعراق؟

هل تتوقف بهذا مذابحُ صبرا وشاتيلا الإسلامية ضد الفلسطينيِّين المسلمين بأيدٍ عربية ومسلِمة؟

هل سيَنصرنا الله آنَذاك على «الكفار» القابعين بيننا، أم أننا سنَعصي الله حينئذٍ عِصيانًا لن يَغفره لنا سبحانه؛ إذ سنفعل مثلما فعَلوا في أُحُد، وننشغل بالغنائم الصغيرة عن معركتنا الكبرى؟

معركتنا مع عدو لا يَرحم، ولن يرحمَنا.

الأستاذ العظيم خالد محمد خالد.

لقد قلتَ لنا يومَ كنا نحلم: كيف نبدأ، من أين نبدأ؟ والآن نحن ما زِلنا نخوض معركة البداية الشرسة، ضدَّ أعداء شَرِسين جُدد، دخلتَ أنت الحَلبة لتُساهم في معركة تطبيق الشريعة، أو تطبيقها على الأصح بشكل متحضِّر يَستوعب كلَّ ما آلت إليه حياتنا المعاصرة.

ولكن يبقى السؤال يا أستاذ خالد: ألستَ ترى معي أنهم قد شغَلوكم جميعًا، يا فُضلاءنا وعلماءنا ومشايخنا بقضية داخلية؛ لِيَتفرغوا هُم للإجهاز علينا من الخارج، لِيتفرَّغوا هم «للطوفان» الذي يُريدون به القضاء علينا؟

كتابك أتذكره جيدًا، هذا أو الطوفان، وقد أعطوكم «هذا» وامتلَكوا هم ناصيةَ «الطوفان» يأتون علينا به، فما قولك، دام فضلك، ودام فضلُ أساتذتي وشيوخي وعلمائي الأجلاء؟

رسالتان

يوسفُ أيها الصديق، قد سألتَ وإليك الجواب!

من بين ما حفظتُ من الحِكَم، هذه الحكمة الجليلة التي قالها المفكر الأمريكي العظيم «أمرسون»:

«وليس من شر الأمور أن يُساء فَهمُك؛ قديمًا أُسيء فَهمُ المسيح، ومحمد، وأُسيء فَهم سُقراط، وبوذا، ومِن بين كل عشَرة من الروَّاد الشجعان أُسيء فَهم خمسة على الأقل. فلا تَجعل إساءة الفَهم مُعوِّقة لخُطاك، ولا مُثبِّطة لعزيمتك. ليس ذلك فحسب، بل ولا تَطلب على ولائك للحق، ولا على فعلك الخير أجرًا؛ فإن أكثر الناس جهلًا بقيمتهما هو أعلاهم صوتًا في طلب الأجر عليهما!»

راودَتْني هذه الحكمة البالغة، وأنا أُطالِع — في حب وتقدير — رسالةَ أخي وصديقي الدكتور يوسف إدريس، التي ناداني من محرابه الفكريِّ بجريدة الأهرام الغرَّاء يوم الإثنين ١٧ يونيو.

ولم أكَد أبلغ نهاية المقال، أو الرسالة، حتى حَمِدتُ للذاكرة استدعاءها هذه الحكمةَ التي وجَدتُها خيرَ كلمات، أُصدِّر بها رسالتي هذه إلى الدكتور الصديق.

وكان الدكتور يوسف إدريس قد وعَدني وأوْعَدني بأنه سيُوجِّه إليَّ خطابًا مفتوحًا على صفحات الأهرام، ولقد فهمتُ بواعثَ وعده، أما دوافع إيعاده ووَعيده فلم تُسعِفني القريحة بتبيُّنِها.

وحين خايَلَتني حكمة أمرسون — ليس مِن شر الأمور أن يُساء فَهمُك — وحين اخترتُها استهلالًا لهذه الرسالة، لم يكن ذلك لإحساسٍ بأن الكاتب الكبير قد أساء في رسالته فَهمي؛ فيوسف إدريس وأنا منذ التقينا، والعهد بهذا اللقاء الأول بعيد، ومنذ راح كلٌّ منا يُتابِع صاحبَه في بحثه النبيل عن الحقيقية، والثقة بيننا في رقَّة الشوق بحرارته.

لم يكن الدكتور يوسف إذن، هو الذي خَشيتُ على نفسي سوء فَهمه لي؛ إنما أولئك الآخَرون الذين ستُفضي رسالتُه المنشورة بهم إلى إساءة فهمي! سواءٌ منهم الضاغِنون على تطبيق الشريعة، أو الهاتفون بتطبيقها …!

وفي ظني، وربما في يقيني، أن الدكتور إدريس لا يُوجِّه رسالته إليَّ — فهو يَعرف تمامًا رأيي في القضية التي طرَحها، بل ويَحمد هذا الرأي — إنما يُوجِّهها عن طريقي إلى آخَرين، لا يُريد أن يَحمل عبء مُواجهتهم، أو مُجابهتهم؛ استجابةً لنصيحة الشعر العربي القديم:

وإن حاذَرْتَ أن تَلْقى هُذيلًا فيَمِّم بالحديث بَني تَميمِ
فإنَّك واجدٌ فيهم سماحًا وإصغاءَ الكريم إلى الكريمِ

ولقد وجَّه الدكتور يوسف بِضْعة أسئلة إلى هُذيل عن طريق بني تَميم! ونيابةً عن التميميِّين أتقدَّم بالجواب.

- إنه يتساءل: أية شريعة هذه التي يُنادي بها المنادون؟ هل هي شريعة الخميني في إيران؟ أم شريعة القذَّافي في ليبيا؟ أم الوهَّابية في السعودية؟ أم حُكم ضياء الحق في باكستان؟ أم شريعة النميري قبل أن يَبتلِعَه الطوفان؟
- ويتساءل: هل يَعني تطبيقُ الشريعة أن نَتبع نظامَ البيعة الذي أَخَذ به المسلمون في صدر الإسلام، فيجتمع ستةٌ وأربعون مليونًا من المصريِّين، أو مائة وعشرون مليونًا من العرب، لِيَختاروا إمامًا يَحكم حكمًا مطلقًا، حتى الشورى لا تكون بالنسبة إليه أمرًا ملزِمًا!
- ويتساءل: أهذا هو الوقت المناسب لِنَجعل من تطبيق الشريعة قضيتَنا الأولى، بينما الساحة العربية والإسلامية تَمتلئ بالأشلاء والدماء؛ نتيجةً لحروب طائشة وآثمة، بين العربي والعربي، وبين المسلم والمسلم؟ وأيضًا فهناك تلك الأطماع اللاهثة، والمؤامرات البَشعة التي يُطارِد بها الإسلامَ أعداؤه في الخارج؟

- ويتساءل: هل قطعُ أيدي مائتَي سارق، كما حدث في السودان، وجَلد عِشرين من الزُّناة والزانيات سيُوقِف سيلَ الدماء التي تُراق من آلاف الضحايا في حرب إيران والعراق؟ وهل سيُنهي ذلك مذابحَ صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة، التي يَقوم بها مسلمون ضد الفلسطينيين؟
- وأخيرًا يتساءل: أليس أعداءُ الإسلام وأعداء شعوبه وأوطانه قد أفلَحوا في أن يَشغَلونا بقضية الشريعة عما يُبيِّتونه لنا من غدر وعدوان؟

هذه تساؤلاتُ الأخ والصديق، وإذا كان قد اختارني مشكورًا ومقدورًا للإجابة عنها، فسأُجيب. بَيْد أني أُقدِّم بين يدَيْ إجابتي ملحوظتَين:

الأولى: أنني أجبتُ عن هذه التساؤلات، وعن كثيرٍ سواها من خلال عشَرات المقالات، والأحاديث الصحفية، التي نُشِرَت على أوسع نطاق.

الثانية: أن إجابتي لن تتضمَّنَ آراء الآخَرين، ولا فَهمهم للقضية، ولا منهجَهم في الهتاف بها والدفاعِ عنها؛ إنما ستَحكي رؤيتي الخاصة، وهي رؤية تَستمد صِدقَها من أصول الشريعة، ومبادئها، وروحها.

ثم إني لن أُجيب عن الأسئلة كما أورَدتُها — تِباعًا — بل سأَعرض وجهة نظري واقتناعي في ضَميمةٍ واحدة بحيث تُغطِّي جميع الأسئلة المثارة وغيرَها معها، دون أن يَنفرد كلُّ سؤال بجواب.

ووجهة نظري التي لا يَنقصها الفَهم والصدق تتمثل في:

أولًا: مصر مِن خير بلاد الله إسلامًا، ولشعبها دائمًا في ساحة الدين والتديُّن قدَمُ صِدق، وسابقةُ فضل، وحَسْبُ جموعِ هذه الأمة وصفُ الرسول عليه السلام إياهم بأنهم «خير أجناد أهل الأرض»؛ لأنهم وأَهْليهم في رِباط إلى يوم القيامة.

ولقد صدَق فينا قولُ الرسول الكريم؛ فآباؤنا المرابطون قهَروا التتار الذين كنَسوا الأرض كالوباء، وأجهَزوا على المتاجرين بالمسيحية وبالصليب، وخاضوا معهم قرابة مائتَي عام حروبًا لم تكن تُريد أن تُؤذِن بانتهاء، ثم فطَموا — أخيرًا — ملوك الحروب الصليبية، وآباء الكنيسة في أوروبا عن غرورهم وطيشهم وضلالهم، وها نحن أولاء نَجد أنفُسَنا في رِباط جديد أمام عدوٍّ رجيم؛ هو إسرائيل.

وإذا كانت مصرُ بهذه المثابة، فإن أيَّ محاولة لاستكمال ما يَنقص قوانينَها من مبادئ الشريعة الإسلامية وتطبيقاتها، يجب أن يُشار إليها بأسلوب الدعوة والإصلاح، وليس بالعنف والطفرة.

ولهذا، فإني أشجب كلَّ مظاهر التطرُّف الديني، الذي أقل ما يوصف به أن إثمه أكبرُ من نفعه.

وبالتالي، فأنا أشجب محاولة إخراج الألوف من الشباب حامِلين المصاحفَ في مظاهرة استفزازية بكل مقاييس الاستفزاز! إن هذه الخطيئة لم تَحدُث في تاريخ الإسلام، وخلال أربعة عشَرَ قرنًا، سوى مرةٍ واحدة، حين شقَّ الخوارجُ عصا الطاعة على الإمام عليٍّ كرَّم الله وجهه، وكرمَ به وجه الإسلام، فذهبوا إليه حامِلين المصاحف وصائحين: لا حكم إلا الله! فصاح الإمامُ العظيم في وجوههم بكلمته الخالدة قائلًا: كلمة حق، أُريدَ بها باطل!

إنَّ حمل المصاحف في مُظاهرة دينية مغامرةٌ غيرُ محسوبةٍ نتائجها، وإن دلالتها لخطيرة، وإن نتائجها لمُخيفة.

وأهوَنُ هذه الدلالات أن الخوارج يَعودون! وأهونُ هذه النتائج ماثلٌ فيما لو اصطدَمَت الشرطة بالمتظاهرين؛ إذن لسقَطَت المصاحف من أيمانهم على الأرض ودِيسَت — والعياذ بالله — بالأقدام!

قلتُ: إن مصر من خير بلاد المسلمين إسلامًا … وكانت هذه هي النقطةَ الأولى من نِقاط إجابتي.

ثانيًا: الشريعة حين تُطبَّق في بلادنا لن تكون كما تساءلتَ شريعةَ الخميني، ولا شريعةَ نميري، ولا شريعةَ القذافي … ذلك أن الحقَّ يا صديقي لا يُعرَف بالرجال، إنما يُعرَف الرجالُ بالحق … وكلُّ انحراف في تطبيقِ مذهب ما، أو نظام ما، فإنه لا يَعني فَسادهما، وبالتالي لا يَعني رفضهما، وإلا لم يَبق في الدنيا كلِّها مذهب، ولا نظام!

وإن قضية تطبيق الشريعة قضيةٌ كثر فيها اللغَط، وقَلَّ الفَهم الصحيح.

ولقد أفلحَ بعض دُعاة التيار الإسلامي وقادته، أن يَجعلوا قضية التطبيق مصدرَ خوفٍ وإزعاج حين حاوَلوا — ولا يَزالون يُحاولون — تقديمها بوجهٍ متجهِّم يَئوس وعَبوس، مُعرِضين — لماذا؟ لستُ أدري — عن تقديم إشراقها الباهر، وعطائها الزاخر في مجال الحرية والمعاصَرة، والتقدُّم والارتقاء!

ثالثًا: لماذا الشريعة؟ لا بد من الاتفاق على أن الإسلام دينٌ ودولة.

كذلك حين يَملَئون وِجدان الشباب المتديِّن بالعنف، والنار والحريق!

ولا أدعوك — يا أخي يوسف — إلى مُساءلة نصوص الإسلام وفِقهه لكي تتأكَّد من أنه دولة، بل حَسبُك أن تَسأل التاريخ.

وإذا كان الإسلامُ دولة فلا بد أن تَكون له شريعة، وقوانينُه النابعة منه كدين.

إنك — يا صديقي — لن تجد فيما حولنا من مجتمعات ودول، دولةً اشتراكية تُطبِّق الرأسمالية، ولا دولة رأسمالية تَتخذ من رأس المال لماركس دستورًا لها ومصدرًا لقوانينها، ولن تَجد دولة علمانية بالمفهوم السياسي للعلمانية — كالهند مثلًا — تَستلهِم في تشريعاتها دينَ الهندوس، أو المسلمين، أو السِّيخ!

إذن، فالإسلام الدولة صاحبُ حق مطلَق في أن يَستدعيَ شرائعَه وقوانينه من الإسلام «الدين»!

مَن الذي سيُضارُّ بتطبيق الشريعة؟ لا أحد، لا أحدَ على الإطلاق؛ لا مِن المسلمين، ولا من المسيحيين، ولا مِن الأجانب داخلَ البلاد وخارجَها، ولو أن المقام يَسمح بالإفاضة، إذن لرأيتَ — يا صديقي — عجبًا من عدالة هذا الإسلام، وسماحته، وإنسانياته، ونُبله العظيم!

رابعًا: ماذا يَعني تطبيقُ الشريعة؟

إنه لن يَعنيَ بحالٍ إحداثَ انقلاب في حياتنا نُحاذِره ونخشاه؛ إن الشريعة تتَّجِه إلى إحقاق العدل والحرية والفضيلة، في القانون وفي المجتمع.

أما القانون — عقوبات، ومدني، وتجاري — فتِسعة أعشاره مُسايِرة للمنطق الإسلامي، ولن يَحتاج قانونُ العقوبات إلا إلى إضافة الحدود التي لو عرَفْنا فلسفة الإسلام فيها، والشروطَ التي اشترطَها لإقامتها لما أثارَت في أفئدة الجهلاء، فضلًا عن العقلاء، أدنى قدرٍ من التهيُّب والخوف!

والقانونان، المدني والتجاري، لن يَحتاجا إلا إلى إضافةٍ تَستبعِد الربا، وما ذلك كما نظن بعَسير؛ فقد تخلَّصَت باكستان من المعاملات الرِّبَوية بكل أنواعها، وتحولَت جميعُ المصارف والبنوك، بما فيها الأجنبية، إلى المعاملات الإسلامية.

هذا عن القانون، أما عن المجتمع، فهنا تقول الشريعة: الزمن جزءٌ من العلاج، ومنهج الإسلام مائلٌ في إقناع الناس بالفضيلة، وليس في إكراههم عليها!

والأناة، والصبر الجميل والطويل وسيلَتاه إلى تهذيب المجتمع وتَعْلية سلوكياته، وحَسْبنا أن نَعلم أن الخمر — وهي أمُّ الكبائر — لم تُحرَّم إلا بعد ثمانيةَ عشَر عامًا من بزوغ الإسلام!

فالسير خطوةً خطوة، هو الطريقة المثلى لتعلية المجتمع وتهذيب سلوكياته.

وتطبيق الشريعة الإسلامية لا يَعني بحالٍ — شاء دُعاة التطبيق أم أبَوْا — أيَّ رجعةٍ إلى الوراء، ولا أيَّ تَقهقُر؛ فأعظمُ مزايا الإسلام احترامُه المعاصَرة.

ومعنى المعاصرة قدرتُه بمبادئه وبروحه وبتَجرِبته على التفاعل الذكيِّ مع التطور المستمر لأشكال الحياة، واحتياجات الناس. والذين يُجرِّدون الإسلامَ من مَزيَّة المعاصرة، إنما يَسلبونه حقه في أن يكون دينًا عامًّا وخالدًا.

كذلك، فإن تطبيق الشريعة لا يَعني الحياةَ خارج أسوار الحضارة؛ إذ الإسلام رائدٌ من أعظم رُوَّادها. وإذا قُلنا: الحضارة، فإنما نَعني بها الحضارةَ العِلمية، والفنية والفكرية والروحية، والاجتماعية. ولو أن الإسلام نأى بجانبه، ولَوى عِطْفَه عن هذا الالتزام الحضاري في الوقت الذي هو فيه خاتَم الأديان، لكان معنى ذلك أنه يَحجر على مستقبل البشر، ويضَع الحياة في جهاز التبريد، ويدفعها إلى غسَق الليل وظُلماته!

وهنا يَجيء تساؤلك عن مصير الفنِّ ومؤسساته؛ من مسرح، وسينما، وتليفزيون، وإذاعة، وموسيقى ... فأقول لك يا صديقي العزيز: إن هذه قضية لها حديث طويل.

بَيْد أني أضع أمامك نقطة البدء، فيما يتَّصِل بموقف الشريعة من هذا كلِّه؟ فأقول:

سُئل الإمام الشافعي رضي الله عنه عن الشعر، فقال: حسَنُه حسن، وقبيحه قبيح!

وهذا ما تقوله شريعةُ الإسلام عن الفن في شتى مجالاته؛ فحسَنه حسَن، وقبيحه قبيح.

وأَسمعُك تسألني: ومَن الذي يُحدِّد معاييرَ الحُسن والقُبح؟ وأجيبك: إنه الذَّوق العامُّ للمجتمع في ظل القيم الخالدة التي يَدور في فلَكها الجنسُ البشري كلُّه، وليس المسلمون وحدهم.

خامسًا: كيف ستَحكم الشريعةُ المجتمع؟ وهذا أخطر جوانب القضية كلها!

فاعلم — يا أخي — وليعلم جميعُ الداعين إلى تطبيقها أن نظام الحكم في الإسلام هو الشورى.

وما الشورى؟ إنها الديمقراطية التي نراها اليوم في بلاد الديمقراطيات.

وللمرة العشرين أُفصِّل مقوماتِها وأركانَها وعناصرها:

(أ) الأمة مصدر السلطات.

(ب) حتمية الفصل بين السلطات!

(ج) الأمة صاحبة الحق المطلق في اختيار رئيسها.

(د) وصاحبة الحق المطلق في اختيار ممثِّليها ونوَّابها.
(هـ) قيام معارضة برلمانية حرة وشجاعة، تستطيع إسقاط الحكومة حين انحرافها.
(و) تعدُّد الأحزاب ضرورة من ضرورات الشورى والديمقراطية.
(ز) الصِّحافة الحرة — كل الحرية — هي «الرئة» الثانية التي يتنفس بها المجتمع! ومِن ثَم فلا بد من إعلاء شأنها وصَون حقوقها.

هذا — يا أخي — هو نظام الحكم في الإسلام بلا تحريف فيه، ولا انتقاصٍ منه. ومَن حاول في هذا تحريفًا أو انتقاصًا فهو مُتفيقِه، لا فقيه!

سادسًا: ولماذا الشريعة الآن؟

وأجيبك: هناك سبب عام، وهو أن جميع المسئولين اعترَفوا بحتمية هذا التطبيق واعترَفوا — بما فيهم نواب الحزب الحاكم — بأن التطبيق مَطلب شعبي ... وإن كان هؤلاء وأولئك لم يُحدِّدوا وقتًا عاجلًا لإنجازه.

وهذا يَصِلني فورًا بسبب خاص أقنعَني بأن اليوم لا غدًا، وغدًا لا بعد غد، هو أنسبُ الأوقات لهذا التطبيق الذي ظفر بالدعوة الملحَّة من كثيرين.

إذ إن الإرجاء — في نظري — سيَعني اتِّساع الفجوة بين التيار الإسلامي المتنامي، وبين الحاكِمين مما يُتيح الفرصة للقوى الأجنبية الضاغنة علينا — وما أكثرَها! — أن تشق الصف وتَزيد الأمر صعوبة.

هذا أولًا ... وأما ثانيًا، فإن هذا التيار المتماديَ سيَجد فرصته دائمًا في تحويل دعوته إلى تجهيلٍ صارخ للحُكم وللمجتمع، قد يُفضي به — بل سيُفضي به — إلى كل ما يقدر عليه من وسائل العنف، ثم ما دام هناك احتمال بأن يصل هذا التيار يومًا — قَرُب أو بَعُد — إلى الحكم أو إلى المشاركة فيه، فنحن إذن أمام فرصة عظيمة لنبدأ تقنين الشريعة بتقنين نظام الحكم على النحو الذي أسلَفْناه. وهنا يبدأ التزام التيار الإسلامي بهذا النظام، ويَقضي الشعب كلُّه زمنًا طويلًا في معايشته باعتباره نظامًا إسلاميًّا، لا يَسمح لأحد ولا لفئة أن تخرج عليه، بل إني أقترح عندما نبدأ تقنين الشريعة — بادئين حتمًا — بتقنين نظام الحكم، أن يُعرَض هذا النظام في استفتاء عام؛ ليصبح وثيقةً ترفض المروق منها والخروجَ عليها في يوم من الأيام.

ولن نحتاج — يا صديقي — إلى حكومة دينية تَحكمنا بالشريعة، بل سنظل دائمًا في ظل «حكم قومي» خالص ومتكامل.

إنه من الخطر الأكيد أن نُعالِج قضايا المجتمع — لا سيما الكبيرةَ منها — على طريقة «أفتح الشباك، والَّا أقفل الشباك!»

إذن الحسم هنا هو الوسيلة وهو الطريق، أما حديثك — يا أخي — عن كارثة الأمور التي مزقَت العرب والمسلمين شرَّ ممزَّق فتلك قضية أخرى، لا أجد وصفًا لها غير قول الصوفي الحكيم «أبي حازم» رضي الله عنه:

«لا أعرف يقينًا لا شك فيه، أشبه بشك لا يقين فيه، من هذا الذي نحن فيه!»

وسلام الله عليك ورحمته وبركاته.

خالد محمد خالد

تعليق سريع

هذا هو الرد الذي تفضل الأستاذ الكبير خالد محمد خالد بإرساله كجواب على التساؤلات التي آثرتُ طرحها عليه هو بالذات، ليس لأنه من بني تميم كما تفضل وقال، ولا خوفًا من هُزَيل، أيِّ هذيل؛ فوالله الذي نفسي بيده أنا لا أخاف في الحق لومةَ لائم، وكل كلمة أكتبها، أكتبها استشهادًا، وليس أبدًا بديلًا عن استشهاد؛ فرسالة الكاتب ليس أن يَكتب وإنما أن «يَصدُق» فيما يكتب، حتى لو كلَّفَه صدقُه مع نفسه حياتَه ذاتَها. فماذا تكون قيمة حياته إذا عاشها أو كتبها كذبًا على نفسه وعلى الناس؟!

القضية أوفَيتَها حقًّا في ردك عليها، وهذه الطريقة في «الحكم الإسلامي» هي الطريقة الجديرة بإسلام له أربعةَ عشَر قرنًا، يُعلِّم الناس علم التفكير وقيمة العقل والأخذ بأسباب التحضر، ولو كان الحكم الإسلامي سيُطبَّق بالطريقة التي أوجزتَها لكان شيئًا أعظمَ بكثير من كل المذاهب الدنيوية المعاصرة، لكان الجنةَ على الأرض، لكان «اليوتيوبيا» أو المدينة الفاضلة التي يحلم بها البشر منذ أفلاطون إلى الآن، ولكن أبدًا لن يُطبَّق كما ذكَرتَ تطبيقًا يُراد به رُقيَّنا خلقيًّا وإيمانيًّا، وعِلميًّا وفكريًّا، وفنيًّا واقتصاديًّا، إن السائد الآن — والذي ذكرتَ أنه أصبح مطلبًا «شعبيًّا» — هو تطبيق لإسلام الميكروفونات أيها الصديق العزيز، إسلام الإرهاب الفكري، واتهام أيٍّ ممن يجرؤ على معارضته بالكفر والإلحاد! نوع غريب لم نعرفه عن الإسلام أبدًا؛ فهو لا يدعو إلى حِكمة، ولا إلى موعظة حسَنة، وإنما يدعو إلى إطلاق الرَّصاص على المشايخ في عيونهم اليسرى، وإلى الانقضاض على الأمة بقوة السلاح، والفتك بالمواطنين الآمنين والعساكر الغلابة! وعلى هذا البحرِ من

الدم يصعد «الدعاة» ليتسلَّموا زِمام حكم يَذبح أولَ ما يذبح المسلمين أنفسَهم، بدعوى تقصيرهم في عبادتهم أو إيمانهم، أو شقِّ عصا الطاعة على يد هذا الراعي أو ذاك.

هذا هو شكل الإسلام الذي «سينتصر» إذا نجَح دُعاة الميكروفونات في قيادة الشعب وتنظيمه، والاستيلاء على حكمه، وليس إسلامَك أبدًا يا مولانا، ولا إسلام الإمام محمد عبده ولا جمال الدين الأفغاني، ولا أيٍّ من الأئمة الأربعة، وتلك الجماعات وُلِدَت في ظل الإرهاب الجسدي الذي قاومَت به ثورة ٢٣ يوليو جماعةَ الإخوان المسلمين، وفي ظل رعاية بعض الدول النفطية لمن لجَئوا إليها من قيادة الجماعة، جماعات كان مفروضًا أن تُحاوَر وتُرشَد، وتُدفَع لها بأمهات الكتب الإسلامية تقرؤها؛ فلا عقيدة أبدًا تُصفَّى بالكرابيج، أو حتى بالمشانق. لقد كان من رأيي المتواضع أن نَسمح بإقامة حزب إسلامي سياسي، يدعو إلى ما يَشاء من حكم إسلامي، وتطبيقٍ للشريعة، بحيث ينضَوي تحت لوائه كلُّ تلك الآلاف من الشباب الوطني المخلص، المتَّقِد حماسًا لبلاده وعقيدته، حزب نَستطيع «مناقشتَه» في برامجه، بل ونعمل معه كما كنا نُقاتِل القوات البريطانية في قنال السويس جنبًا إلى جنب مع الإخوان المسلمين، وعلى رأسهم صديقي وزميلي الشهيد طالب الطب عمر شاهين. أما حُجتك في أن نُسارِع لقطع الطريق على هذا الاتجاه الدموي في تطبيق الحكم الإسلامي، بالإسراع الآنَ واليومَ وليس غدًا في تطبيق الشريعة، فإنها نفس الحُجة التي استنَد إليها جمال عبد الناصر، ثم مِن بعده — ولأسباب مختلفة تمامًا — أنور السادات، بتملُّق هذا التيار، وإشاعة نوع من «الجو» الإسلامي في وسائل الإعلام، حتى يُقنِع قواعد الإخوان والجماعات الإسلامية أن الدولة فعلًا في طريقها إلى الحكم الإسلامي، أو أن حُكمها هو فعلًا حكم إسلامي. وكانت النتيجةُ أن زادت النارُ اشتعالًا؛ إذ كانا كأنما يُطفِيان النارَ بمزيد من البنزين «لإخماد» الدعوة، فلا يفعل كلُّ هذا إلا أن يَزيدها اشتعالًا.

إني قادم من الإسكندرية حيث ذهبتُ في إجازة ليومَين، لم أنم في الليلتَين لحظة؛ لأن الميكروفونات الزاعقة من العشاء إلى الصباح خمسة ميكروفونات في بقعة لا تتجاوز مساحتُها قرية، تزعق في وقت واحد، وتتداخل أصواتها، وتتنافر، وتؤذي الأرِقَ والمريض، ومَن هو في حاجة إلى النوم، ليبدأ عملًا في الغد ينفع به المسلمين، في أي مصدر إسلامي ذُكِرَت حكاية إزعاج الكادحين العاملين طول الليل بالميكروفونات تلك؟!

لا يا سيدي، نحن في حاجة إلى حوار مع هذا التيار، الذي لا أشك لحظةً واحدة في سلامة مقصد قواعده الشبابية الغضَّة، ولا في إيمان بعض قياداته بأن هذا هو الحلُّ كل الحل لمشاكل مصر والمسلمين، ولكني أعود بك مرة أخرى إلى الحاضر لترى كيف

يَذبح المسلمون المسلمين، وكل منهم لا يَحمل المصحف الشريف على سيفه فقط، ولكن باسم الإسلام يَطعن قلب زميله المسلم؛ إيمانًا منه بأنه هو الذي على حق، وأن الآخر كافرٌ ومارق. نفس الشيء يَحدث هنا، كل ما في الأمر أنه لا يزال في مستوى الاتهامات، ولكن الطعن بالسيف قادم، ألستَ ترى معي الفارق الهائل بين ما كان حادثًا في الستينيَّات وبيننا الآن، حين كنا عربًا ومسلمين في صف، والاستعمار هو العدو في الجانب الآخر، وحين أدرك الاستعمارُ ذلك قام بدهائه الشديد بتحويل مواجهة الإسلام ضد الاستعمار إلى الإسلام ضد الإسلام، والعرب ضد العرب، فكسَب معركتَه دون إراقة قطرة دم، إنما هي البحور من دماء المسلمين بأيدي المسلمين باسم الإسلام هي التي أبقت.

ملحوظة أخيرة أضيفها تقول: لا بد أن يُعرَض نظام الحكم الإسلامي في استفتاء عام لِيَصير وثيقة تَرفض المروق منها، والخروجَ عليها في يوم من الأيام.

ثم تضيف: لن نَحتاج يا صديقي إلى حكومة دينية تَحكمنا بالشريعة، بل سنظل دائمًا في ظل نظام «حكم قومي» خالص ومتكامل.

كيف يتأتى هذا يا أستاذنا الكبير؟ وماذا نفعل بملايين إخواننا الأقباط المصريين إذا هم أصرُّوا هم الآخَرون على تطبيق الشريعة المسيحية؟ هل نَقسِم مصرَ حينذاك، أم نتحول إلى لبنان أخرى؟

يا أيها الرجل الملهَم المسلم، إن الحفرة التي يَحفرونها لمصر واضحةٌ لكل ذي عينَين، وإسرائيل لن تَأمن على بقائها وبجوارها شعبٌ مصري وصَل إلى الخمسين مليون مصري، متَّحِد، متكاتف، ولا سبيل إلى «فك» مصر وإيقاع الفتنة بأهلها إلا بأن تَزأر وتَجأر هذه النُّعرة التي تَستنكرها وتَزداد خوفًا من غُلوِّها، وتُزوِّدها بأن تُسلِّم لها مفتاح الفتنة.

ألا ترى معي أيها الصديق الأستاذ، أن المسألة أبعدُ بكثير من مجرد تطبيق الشريعة أو عدم تطبيقها؟ إنْ هذه إلا الخطوة الأولى في المؤامرة الكبير على مصر، أمِّ العرب ومُوحِّدتهم، وحامية حِمى الإسلام وقِبلته الفكرية، حتى قَبل أن تُختَرَع الميكروفونات.

أين عقلكِ وحِكمتك، وكُتَّابكِ وعلماؤك ومُفكِّروك يا مصر؟ أين أنتم يا ملايينَ المتعلمين والمتنورين، وهذي بلادكم تُعِد لها جهنمَ حقيقة أمام أعينكم وأنتم تنظرون في «توَلُّه» وكأنَّ الأمر لا يَعْنيكم، وكأن جهنم تُعَد لقوم آخرين؟!

خطأ الإعلام

أحب بادئ ذي بدء — وردًّا على كثير من الخطابات التي جاءتني تتَّهِمني وتُشكِّك في نياتي حين أرسلتُ تلك الرسالة إلى الكاتب الإسلامي الكبير خالد محمد خالد — أن أشرح للقراء حقيقة الموقف، وأقول: إن تلك الرسالة التي أرسلتُها لم تكن لها أدنى علاقة بمسيرة خضراء أو بيضاء، يُزمِع البعضُ القيامَ بها، ولكني كنت قد قابلتُ الأستاذ خالد في حفل إفطار في رمضان، ومعنا بعض الصفوة من مشايخ المسلمين والمثقفين المصريين، وأن الحوار دار بالطبع حول فكرة الدولة الإسلامية التي أصبح الأستاذ خالد محمد خالد ينادي بها، خلافًا لما بدأ به في أوائل الخمسينيات في كتاب «من هنا نبدأ» وكان وقتَها يؤكد أنه لا طريق للخلاص إلا بفصل الدين عن الدولة، ثم إذا به الآن يُنادي بأن الإسلام دين ودولة معًا، ولا سبيل إلى دين إسلامي إلا بدولة إسلامية.

وإذا كانت تلك الدعوة قد أخذَت هذا الشكل عند الأستاذ خالد محمد خالد، فإنها أخذت شكلًا بل أشكالًا أخرى، أحدُها بلا شك هو: أنْ لا حل لمشاكل مصر — أمةً ودولة وشعبًا — إلا بتطبيق الشريعة الإسلامية فورًا ودون إبطاء، هنا ثار السؤال عندي عن رأي الأستاذ خالد في هذا، وعن رأيه في كيفية تطبيق الشريعة وإقامة الدولة الإسلامية، ووعدتُه بأن أُرسِل له رسالة مفتوحة أسأله فيها عن هذا كله، وأقول له أيضًا رأيي الخاص في مشكلة مصر والمصريين والعرب والمسلمين، باعتبار أن سببها الأول والأوحد هو مُعاداة الاستعمار بقديمه وحديثه وإسرائيلِه لنا، ومؤامراته المتصلة علينا، وأن الدين الإسلامي عندي هو دين جهاد أعداء الإسلام الذين أسماهم القرآن الكريم «الكفار» فلم تكن كلمة الاستعمار مستعملة في تلك الأيام.

المهم أن هذا حدث كله في النصف الأول من رمضان المعظم، ولكنْ حال دوني ودون كتابة الرسالة أنه كان لا بد عليَّ أن أنتهيَ من سلسلة المقالات التي كتبتُها عن زيارتي

الأخيرة لبعض البلاد الأوروبية والأمريكية، لم يكن في ذهني إذن مَسيرة ولا مقاومةُ مسيرة، إني كنت وما زلت أؤمن برأيي الذي أوضحته في الرسالة، ولكن ظروف النشر جاء توقيتها بحيث اقترنَت بقُرب المسيرة، ليس هذا فقط، بل إني كنتُ قد كتبتها يوم الأربعاء لِتُنشَر يوم الاثنين، وفُوجِئتُ بزميلة صباحية تُصدِر يوم السبت، وتتناول الموضوعَ برؤية وطريقة مختلفة تمامًا عما في ذهني.

ولم يَفُتَّ هذا في عضدي، بل أقنعني بأننا أصبحنا في حالة حياة أو موت، إلى جدل جاد عميق حول الموضوع، وهكذا نشَرته، والحق إنني فوجئتُ برد الفعل المحبِّذ لمناقشة الموضوع وفتحه على مِصراعَيه، وكأنما كانت أغلبية المصريين الصامتة تنتظر أن تَخفَّ موجة الإرهاب الفكري الذي يحاصرك، بين إما أن تكون مع الدعوى العاجلة لتطبيق قطع اليد ورجم الزناة، وتحريم كافة أشكال التطوُّر والتحضر، وإما أنك زنديق وملحد ومرتد، ولا بد من نَسْفك نسفًا.

أحس المواطنون العقلاء الذين لا يحكمهم ولا يقودهم الهوس والتعصب الأعمى أنني لا أهاجم أحدًا، ولا أريد النَّيل من دعوة، ولكني مصرٌّ على المناقشة والاقتناع، فلا شيء يُثير غضبي — مثلي مثل أي مواطن — إلا أن يُفرَض عليَّ الرأي فرضًا وبدكتاتورية عصبية لا تَقبل الجدل، وأُفضِّل لو جاء داعٍ ديني مسلم أو مسيحي، وخيرَني بين اعتناق هذا الدين أو ذاك بالقهر والقوة أو أن يقطع رقبتي، لفَضلتُ أن أموت على أن أؤمن خوفًا أو نفاقًا، أو تمشِّيًا مع رأي لا أؤمن حقًّا به، ولا أقتنع به عن إيمان حقيقي، فالأديان إن لم تَصدُر عن إيمان صادق فقدَت رسالتها كدين؛ إذ الدين هو الإيمان الصادق المصفَّى الخالص لوجه الله، وليس الإيمانَ عن خوف من حاكم أو تيار أو إيذاء.

والحقيقة إني حين قرأتُ الزميلة الصباحية اليوم «السبت»، ورأيت الطريقة التي بدأَت تعالج بها الموضوع، أحسستُ أنها طريقة أرفضها تمامًا؛ لأنها تندفع إلى تسخيف بعض الآراء. طريقتي أنا مختلفة تمامًا، فهي تؤمن بأن المطالِبين بتطبيق الشريعة قوم في مُجمَلهم فُضلاء وشرفاء وطاهرو النية، ويريدون لهذا البلد ولهذا الشعب الصلاح، وهو بالضبط نفسُ ما أريده، ويريده كلُّ وطني ومؤمن في هذا الشعب، ولكن خلافنا ليس اختلافًا على الأهداف، إنما هو سعي حثيث وجدل علمي وعقلي وإيماني حول أي السبل يوصلنا إلى النهضة العربية الإسلامية، ولكن الغريب أنه يُمثِّل سوء الأسلوب الذي يتبعه البعض في مقاومة تطبيق الشريعة، هناك أسلوب لا يقل سوءًا، يتبعه أولئك المطالبون بتطبيقها. وسآخذ نموذجًا لهذا ليس من خطابات التأييد والتحبيذ للحوار الذي دار بيني

وبين الأستاذ خالد محمد خالد، ولكن اقرَءوا معي لِمُواطن وقَّع خطابه باسم عزت علي أحمد يقول فيه: قرأتُ تعليقك على رد الأستاذ خالد محمد خالد عليك، وكنتُ أتمنى أن تخرص وتقف عند حدك؛ لأنك أصغرُ وأجهل من أن ترد على الكاتب خالد؛ لأنك لا تساوي صفرًا على الشمال بالنسبة لهذا الكاتب العظيم، وكذلك إن مسألة تطبيق الشريعة أكبرُ من أنك تكتب أو تتكلم فيها؛ لأنك معروف! أليس أنت اليساري الكلب والناصري؟ أليس أنت عدو كل مسلم، وذيل حكم الديكتاتور المهزوم عبد الناصر وعصابته الحرامية واللصوص؟

ويَمضي المواطن «المدافع عن شريعة الله السمحة المسلمة، المتحدث باسم الإسلام» في سلسلةٍ من البذاءات لا علاقة لها إطلاقًا لا بالموضوع ولا بالشريعة ولا بديننا الحنيف.

والغريب إنه ليس الخطابَ الوحيد الحافل بالقبح والبشاعة؛ مما جعلَني أتساءل: أليس مِن حق المتخوفين ليس مِن تطبيق الشريعة وحكم الإسلام، ولكن «ممن» سيُطبِّقون الشريعة، ويحكمون باسم الإسلام أن يَجزعوا من أن يكون القائمون على هذه الدعوة — وهم بعدُ لم يَصِلوا إلى حكم، ولم يُمسِكوا سيفًا أو صولجانًا — بهذه الدرجة من البذاءة والسفالة، وأن يَرتكبوا هذا جميعًا باسم أسْمى شريعة؟

ولكني — بعد تفكير غير غاضب أو ساخط، بل في الحقيقة مُتروٍّ ومتأمِّل — وجدتُ أن خطأ هؤلاء ليس خطأَهم أبدًا إنما هو خطأُ إعلامنا الذي وضَع على ألسنتهم تلك الكلماتِ والصفات، إنها النوبة من هجمة السفالة والاتهامات والبذاءات التي سادت حياتَنا في فترة ليست ببعيدة، وليس هذا هو الخطأَ الوحيد لإعلامنا. إنني كما ذكرتُ في تعليقي على مقالة الأستاذ خالد، قلت إننا حشَدْنا في أجهزة إعلامنا أشد التفسيرات الإسلامية رجعيةً وتخلفًا، لم نجعلها منابرَ للتعاليم الإسلامية الحقة؛ الرحمة والحب والتواصل، والعفو والمغفرة، إنما جعلناها منابرَ لتكفير الآخرين، ولإرهابهم، لحض الناس على التعصب، مع أن الإسلام مفروض أنه يحتوي على حب الجنس البشري كله؛ ذميين، وغير ذميين، الإسلام هو البشر في أرقى حالاتهم الروحية، وليس أبدًا هو الإسلامَ الذي جلستُ أمام التليفزيون مرة لأشاهد بَرنامجًا كان اسمه قضاء حاجات المسلمين، وتصورتُ أن الشيخ الجليل سيَحثُّنا على مساعدة بعضنا البعض، فإذا به يتحدث عن قضاء الحاجة بمعنى دخول المراحيض، وكيف على المسلم أن يدخل المرحاض بقدَمه اليسرى وأن يتجه في جلسته بعيدًا عن القبلة ... و... و... إلى آخر هذه الأشياء التي قتلَت فينا روح الإسلام الحقيقية؛ فالإسلام دينُ كفاح ونضالٍ وثورة. جاء ثورةً على العالم القديم كلِّه وروحه محشودة

بالآيات التي تحضُّ على قتال الأعداء، وكأنها أوامرُ عسكرية يومية كان يُصدِرها المولى سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين؛ كي يُحارِبوا أعداءهم المفسدين، الذين كانوا يُمثِّلون قمة الجشع والإجرام، والوثنية والجاهلية؛ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ أليس هذا أمرًا عسكريًّا واضحًا، كل ما في الأمر أننا حين حوَّلناه إلى أنغام يقرؤها قارئون ويتمايَلون على وقعها فقدَ مضمونه الحق، واستحال إلى شكلٍ قرآني غنائي لا يمكن أن يتبيَّن معه المؤمنُ المقصودَ بمعناه ومحتواه. نحن أطلقنا من خلال إعلامنا كلِّه صِحافة وإذاعة وتليفزيون أنواعًا غريبة من إسلام لا علاقة بينه وبين روح الإسلام، إسلام لا يريد إدخال الناس فيه زمرة ووحدانا، ولكن يريد أن يبعد الناسَ عنه بل ويحرمه عليهم ويكفرهم، ولا يجذبهم أبدًا إلى ساحته، إسلام لا يَعرف لغةً يصف بها مَن يعتقد أنه أخطأ إلا بقوله: الكلب أو الكافر، أو اللص أو الزِّنديق …

إن أجهزة الإعلام هي أجهزة صياغة العقول واللغة، وأسلوبِ التعامل في عصرنا الحديث، وبعد أن ترَكْنا أناسًا يَعيثون فسادًا في ديننا ولغتنا، وأذواقنا وعقولنا لفترة طويلة جدًّا، نعود الآن ونحصد ما زرَعناه. وما أبشعَ ما نحصد!

إن الحوار متصل أيها الإخوة حتى مَن لا يعرف فيكم إلا السباب لغة وطريقة، فأنتم مجنيٌّ عليكم جنايةً كبرى، وتمامًا ضحايا. ولا وسيلةَ لتصحيح كل تلك الجرائم والأخطاء إلا بأن نتعلَّم كيف نتحاور ونتجادل بالتي هي أحسن، فالإسلام دينُ الموعظة الحسنة، وليس دينَ الحقد المبيَّت. إن بلادًا تطمع في دفع مصر عن قمة الأمة الإسلامية والعربية، تَعيث فسادًا في إعلامنا وأقلامنا، أو تدفع بسَخاء، ويُهمها تمامًا أن تَفقد مصرُ عقلها وقلبها وإسلامها الحنيف الذي وقف وحده، بأزهره، يرفع الراية الإسلامية لأكثرَ من ألف عام متواصلة إلى الآن.

وتكفي هذه الإشارة الآن، فما خفي أعظمُ وأدهى!

وسلام عليك يا مصر، وليحفظك الله من الآبِقين.

رد هادئ على أستاذ جليل

حين قرأتُ رد الأستاذ خالد محمد خالد على الدكتور يوسف إدريس أحسستُ بأن أستاذنا الجليل قد شحذ من أسلحته أسلوبًا هو السهل الممتنع، وأملًا رائعًا يملأ عليه وجدانه وخياله، وإن كان لا يَزيد على كونه حلمًا لا يَرتبط بالواقع بسبب، ولا يؤيده من التاريخ سنَد، وهو حلم الدولة الإسلامية، تلك التي حاول أستاذنا الكبير إقناعَنا بقَبولها، مؤكدًا على أن الإسلام دين ودولة، ولعله وهو العاشق للديمقراطية أبدًا تعمَّد ألا يُكمِل العبارة، فلم يذكر أنه مصحف وسيف، ربما لعِلمه وهو العالم الجليل، بما فعل السيفُ — سيف المسلمين — برقاب المسلمين، تأكيدًا لجَور الحاكمين باسم الإسلام على مدى قرون طويلة، يصعب أن تتمثَّل فيها بأكثرَ من فترة حكم الرسول والعُمرَين، وأنى لنا بأمثالهم!

إن الأستاذ خالد يرى أن مصر من خير بلاد الله إسلامًا، وأنا له مؤيد، بل إنني أتزيَّد وأقول إنها خير بلاد الله إسلامًا، وهو يرفض كل مظاهر التطرف الديني، وأنا أنحني لمقولته إعجابًا، وأؤكد له أنني لم أتوقع منه غير ذلك، وهو الذي عاش عمره مدافعًا أصيلًا عن الديمقراطية مجاهدًا، يسعى جاهدًا لربطها بحلم رائع لدولة إسلامية تتبنى مفاهيمها العصرية، وهي دولة ألْتفتُ للخلف في صحائف التاريخ فلا أرى لها أثرًا، وأنظر حولي متأثرًا بالإعلان الشهير إلى دولة ترفع الراية فلا أجد لها محلًّا، وأقرأ وأسمع للمتشدقين بحديث الدولة الإسلامية في مصر، فلا أرى في أعينهم إلا شرًّا مستطيرًا، ولا أسمع منهم إلا توعُّدًا ونذيرًا، ولا أرى في الأفق إلا نُكوصًا عن رَكْب الحضارة، وفتنة تُمزِّق وحدة الوطن الآمن، وظلامًا يُسدِل أستاره على الفن والفكر والثقافة، ولا أحسب إلا أن ذلك كلَّه أو بعضه هو ما جال في خاطره، وهو يستدرك في الفقرة التالية بقوله: إن الشريعة حين تُطبَّق في بلادنا لن تكون شريعةَ الخميني ولا شريعةَ النميري ولا شريعةَ القذافي؛ ذلك أن الحق لا يُعرَف بالرجال، وإنما يُعرَف الرجال بالحق، وهو قول عظيم وصادق وأمين، لولا

أنه يَدفع إلى تساؤل يُراوِد أذهاننا عن ذلك الحق الذي لم يُصادِف رجلًا يُعرَف به منذ ألف عام، ألا يَدفع ذلك إلى التروِّي في أحسن الأحوال، ولا أحسب أن وصف حالنا بالحسَن جائز، أو إلى الرفض في أسوأ الأحوال، ولا أحسب أن سوء حالنا يَخفى على أستاذنا الأريب.

إن أستاذنا يتساءل: لماذا الشريعة؟ وهو يُجيب: لأن الإسلام دين ودولة، بمعنى أن قَبولنا بالدين يترتب عليه قَبولنا بالدولة الإسلامية. ولا أظن أن صياغة العبارة بصورة عكسية يمكن أن تؤدِّيَ إلى نتيجة صحيحة، بل إني لا أحسب أن واحدًا يمكن أن يتحمل وزر القول بأن عدم القَبول بالدولة الإسلامية يُخرِج مسلمًا عن دينه، وحُجتي في ذلك أنني لا أعتقد أن ثلاثة ممن يتصدرون مجال الدعوة للدولة الإسلامية يمكن أن يجتمعوا حول مفهوم موحَّد لها. والأستاذ خالد يعلم أكثر مني أن أغلبية الفقهاء يُجمِعون على أن الحاكم مُلزَم بأن يستشير، لكنه غير مُلزَم بأن يأخذ برأي الأغلبية أو حتى برأي الإجماع، وهو عكس ما يُنادي به الأستاذ خالد، وهو أيضًا عكس ما تُؤكِّده روح الديمقراطية وجوهرها، وهو أيضًا ما يدفع إلى أن نتساءل: هل الدولة الإسلامية جزءٌ من العقيدة، فيصبح أحدُ الطرفَين خارجًا على صحيح الدين والعياذ بالله، أم أنها لزومُ ما لا يلزم فنتردد أمام مقولة الدين والدولة؟

والأستاذ خالد يعلم أيضًا أكثر مني أن اختيار أبي بكر في السَّقيفة بإجماع أغلبية المسلمين مناقِض لأسلوب اختيار أبي بكر لعمر، مُناقض لأسلوب اختيار عثمان على مرحلتَين؛ أُولاهما اختيار أهل الحَل والعَقد لعثمان وعلي، وثانيتهما ترجيح عبد الرحمن بن عوف لاختيار عثمان، مُناقض لأسلوب اختيار عليٍّ ببيعة أهل المدينة، مناقض لتولية معاوية بحد السيف، مناقض لتولية يَزيد بالوراثة، مناقض لتولية الرشيد للأمين، ثم أخيه المأمون، ثم أخيه القاسم! ومَعاذ الله أن يكون أسلوبُ اختيار الحاكم — وهو أحدُ أهم الأركان السياسية للدولة — جزءًا من عقيدة الإسلام وإلا كان الاختلاف خروجًا على صحيح الدين، والعياذ بالله، والله أكبرُ مِن أن يُفرِّط في الكتاب من شيء إلا أن تكون رحمتُه قد علَتْ بالعقيدة على السياسة، ونزهَت الدينَ عن الدولة.

والأستاذ خالد يعلم أن مَن استندوا إلى القرآن والسُّنة في تبرير المنحى الرأسمالي للإسلام لم يَخرجوا على قاعدة في الدين، ولم يتعسَّفوا في تفسير نصوصه، وأن مَن استندوا إلى القرآن والسُّنة في تبرير المنحى الاشتراكي للإسلام لم يَخرجوا على قاعدة في الدين، ولم يتعسفوا في تفسير نصوصه، وإنما وجَد كلٌّ ضالتَه في الإسلام؛ لأنه دين الرحمة الذي يسَع متغيرات الزمان والمكان، ولا يَضيق لكي يرتبط بشكل من أشكال الدولة أو نظُمها

الاقتصادية والسياسية، وإنما يتَّسِع لها جميعًا رحمةً بالعباد وتأكيدًا على أن الدين أشملُ من الدولة، وأن العقيدة أكثرُ اتساعًا وشمولًا من المفهوم الضيِّق لنظام الحكم. وأصِل إلى تساؤلِ أستاذنا الجليل، ماذا يَعني تطبيق الشريعة؟ وبدون أن أدخل في متاهة الشريعة والفقه، أو أن أتساءل كما يتساءل الكثيرون عن ماهيَّة الحدود، وهل هي مقصورة على ما ورد في القرآن نصًّا؟ أم أنها تشمل أيضًا ما طبقه الرسول، أو تتسع أكثرَ لكي تشمل تطبيقات الخلفاء الراشدين، أو تزداد اتساعًا لكي تشمل اجتهاداتِ الفقهاء في مرحلة زمنية تالية؟ تلك قضية فقهية لا أتوقف عندها؛ لأن ما يَعنيني هو الجانب السياسي للقضية، ذلك الجانب الذي يدفعني إلى إجابة أستاذنا الجليل عن تساؤله بأن تطبيق الشريعة سوف يجعل المواطن المسيحي مواطنًا من الدرجة الثانية لا تُقبَل له شهادة، ويَزداد البعض تطرفًا بالقول بأن لا ولاية له. وسوف يُصبح غناء المطربات دعوةً للزنى لا تَستقيم مع إقامة حدِّه، وسوف يصبح الرقص مُجونًا، والتمثيلُ فسقًا، وتَزيُّن المرأة تبرجًا من الجاهلية الأولى، ونحتُ التماثيل كفرًا إلا إذا دمَّرنا موقع القلب فيها أو الكبد. والله وحده يَعلم مصير تماثيل الفراعنة التي تُصوِّر آلهة المصريين القدماء، وهي معلومة غابَت عن حكام الدول الإسلامية المتعاقبة رحمةً من الله بالتاريخ، وشاءت إرادتُه جل شأنه أن يَطْمرها الترابُ فتبقى لنا صامدة إلا مِن نَقْب المأمون للهرم، أو تشويه أحد الزُّهاد لوجه أبي الهول العظيم!

أما إجابة أستاذنا الكبير عن تساؤله: كيف ستَحكم الشريعةُ المجتمع؟ والتي سرَد فيها أروع ما أتت به الديمقراطياتُ الحديثة، من كون الأمة مصدرًا للسلطات، وحرية تعدُّد الأحزاب، وإصدار الصحُف، واختيار أعضاء البرلمان وحق نوَّابه في المعارضة وإسقاط الحكومة، فهي إجابة تَحتمِل القليل من التعجُّب والكثيرَ من الإعجاب، أما الإعجاب فبالرجل، وأما التعجُّب فمَصدره أنه لا يُوجَد نصٌّ ديني واحد في قرآن أو سُنة، يؤكد صراحةً على بند واحد من البنود السابقة، غير أن الأقرب إلى المنطق أن نقول: إنها روح الإسلام وليست شريعتَه، تلك الروح التي لا تُناقض عدلًا ولا تَنقض حقًّا، غير أن طرح الأمر بهذه الصورة ينشئ مأزقًا، ويطرح تساؤلًا، ويدفع إلى دعاء؛ أما المأزق فيتمثَّل في خروج نظُم حكم «إسلامية» مجاورة وغير مجاورة من دائرة روح الإسلام، كما أتصور، وشريعته كما يتصور أستاذنا الجليل. وأما التساؤل فمن الإصرار على نعت المبادئ السابقة بمسمًّى إسلامي، وهي مبادئُ وإن الْتقَت مع روح الإسلام وجوهره، فإنها بالقطع نشأَت في غير دياره وتسمَّت بغير مسمَّياته. وأما الدعاء فلأستاذنا العظيم بأن يحفظه الله من

ألْسِنةٍ وأقلام وربما حناجر مَن يرفعون راية الإسلام، ولا يرَون فيه إلا حزبًا لله قائمًا وحزبًا للشيطان مقضيًّا عليه، ولا يَعترفون للإنسان بحقٍّ في التشريع. ويتزيَّد بعضهم فيُنكر عليه حقَّ الاجتهاد أو حتى حرية الفكر والعقيدة، ويَشغلهم حديثُ الذبابة في عالم منشغِل بحرب النجوم، ويُلهون مواطنيهم بالحديث عن الطين الأرمني في وقت يُنشئ فيه الآخرون متاحفَ لصخور القمر.

وأصِلُ إلى التساؤل الأخير لأستاذنا الجليل. وأستميحه العذر ألا يُنكِر عليَّ عجبي، وأنا الذي قضيتُ عمري كله معجَبًا به، أليس عجيبًا يا أستاذنا الفاضل أن تكون إجابتك عن سؤالك لماذا الشريعة الآن؟ موجزةً في أنه ما دام هناك احتمالٌ لأنْ يصل هذا التيار يومًا — قَرُب أو بَعُد — إلى الحكم فلنبدأ بتقنين الشريعة ونِظام الحكم الآن، ولنطرحه الآن في استفتاءٍ عام حتى لا يَخرج عليه أحدٌ بعد. ألا يُشبِه ذلك لجوءَ صاحب المنزل القديم إلى إحراقه بأكمله تخوُّفًا أو توهمًا لسقوطه على رأسه يومًا ما؟ أما قولك بأن الشريعة مطلبٌ شعبي، فإنه يَفتح عليَّ بابًا من أبواب الهمِّ لا لكونها كذلك، ولا لرفض ذلك، بل لأنني موقن بأنها تبدو بهذه الصورة لكونها طُرِحَت على الرأي العامِّ كقضية دينية، وأمام الدِّين لا يَملك أحد، ولا أملك أنا، أن يختلف أو يَعترض، بينما لو عُرِض الأمر على وجهه الصحيح، وهي أنها قضية سياسة ودنيا وحكم، لاخْتَلف الأمر، وليس هذا مَبعثَ الهمِّ الوحيد، وإنما مَبعثُه إفلاس الساسة حين يتوسَّلون إلى صوت هنا أو هناك بالمزايدة على أمن الوطن ومستقبله.

ما علينا أيها الأستاذ العظيم، بل رُب ضارة نافعة، فقد استمتَعنا بما ذكرتَ وسَعِدنا بالحوار معك.

والله والوطن من وراء القصد!

د. فرج فودة

انطباعات قطرية

لا يهمني كثيرًا ناطحات السحاب والعمارات والمنشآت؛ الإنسان عندي هو المقياس.
الشباب القطَري الجديد استوعب التقدُّم في منطقتنا، وربما في العالم كله.
فجأة وجدت وكأنما مدينةٌ أخرى قد انتصبَت بقوةِ مارد رهيب.

بيني وبين قُراء «الدَّوحة» قضية معلقة؛ ذلك أني كنت منذ شهرَين قد بدأتُ أكتب انطباعات عن زيارتي لقطر في أواخر شتاء هذا العام، ويبدو أن هناك سببَين لتوقفي عن إكمال هذه الانطباعات؛ السبب الأول في رأيي أني كنت قد بدأتُ أكتبها بسرعة بعد عودتي إلى القاهرة مباشرة — ربما مِن فرط الحماس — والسبب الثاني هو أن أمورًا عاجلة دفعَتني إلى أن أقطع الكتابة التي قد تَصلح لكل وقت لأكتب عن أشياء لا بد أن أكتبها في حينها.

وأيضًا هناك سبب ثالث لا يتعلق بي، ولكنه يتعلق بمجلتنا «الدوحة»؛ ذلك هو صدورها شهرية، والمجلة الشهرية في رأيي أقرب ما تكون إلى كتاب منها إلى مجلة؛ فنحن في عالم تتلاحق فيه الأحداث إلى درجة مُخيفة، وتتسارع فيه الأشياء بطريقة أصبح الشهر فيها شيئًا حافلًا ممتدًّا طويلًا، وكأنه أكثرُ من عام من أعوام زمان. ولقد قرأتُ في مجلة علمية أخيرًا هذا الإحصاءَ الغريب عن «تسارع» المعرفة عبر التاريخ، فقد وُجِد بالبحث أن كمية المعلومات التي حصَل عليها الإنسان من عام ١٩٠٠م إلى عام ١٩٥٠م تعادل كمية المعلومات التي حصل عليها الإنسان منذ فجر التاريخ إلى عام ١٩٠٠م، وأن كمية المعلومات التي حصلَت عليها البشرية من عام ١٩٥٠م إلى عام ١٩٧٥م تعادل كمية المعلومات التي حصل عليها الإنسان منذ فجر التاريخ إلى عام ١٩٥٠م، بمعنى أننا نعيش في عصر تتسارع فيه المعرفة، ويتسارع فيه الحصولُ عليها، وكذلك تتسارع

أحداثه، وبالتالي يتسارع تكدُّسها إلى درجة أنك ما تكاد تبدأ تُعلق على حدث، حتى تكون ثَمة أحداث أخرى قد تراكمَت بحيث تُلهيك تمامًا عما كنتَ بسبيلك للتعليق عليه؛ ولهذا أصبحَت المجلات التي كانت شهريةً هي إلى الكتاب السنويِّ أقرب، والمجلات الأسبوعية هي إلى المجلات الشهرية أقرب، بل إن الصحف اليومية إذا قِيسَت بسرعة تَغطية الإذاعة والتليفزيون للأحداث أصبحَت إلى المجلات الأسبوعية أقرب. من أجل هذا أُريد أن أرفع صوتي مُطالِبًا وزارة الإعلام القطرية وعلى رأسها الأستاذ عيسى الكواري أن يَعمل على إصدار الدوحة أسبوعية؛ فالأحداث في عالمنا العربي «قلب الأحداث في العالم كله» كثيرةٌ ومتلاحقة، حتى المعرفة فيه متشعِّبة ومتلاحقة بشكلٍ يَكاد الإنسانُ يلهث يوميًّا لملاحقتها، ولا أقول: أسبوعيًّا أو شهريًّا.

المهم. كنت كما قلت قد بدأتُ كتابة انطباعاتي عن زيارتي لقطر وقطع حبل الانطباعات، تُرى هل أتمكَّن الآن، وقد بَعُدَت الرؤيا قليلًا، وأصبح ليس عالقًا بالذهن إلا الشهيرُ من الانطباعات والعميقُ من الانفعالات، أن أوصل الحبل؟

لم أكَد أُصدِّق عيني والطائرة تحوم بنا فوق مدينة حديثة جدًّا. وتقول المضيفة بصوتها التِّجاري: نحن على استعدادٍ للهبوط في مطار الدوحة، الرجاء ربطُ الأحزمة والامتناعُ عن التدخين. لم تكن هذه المرةَ الأولى التي رأيتُ فيها الدوحة، فمنذ أكثرَ من سبع سنوات توقفتُ فيها في طريقي إلى الهند، وكنت شَغوفًا جدًّا أن أرى ماذا فعَلَته سبعُ سنوات طِوال من التغيرات في الدوحة.

والحقيقة لم أكن أتوقع هذا أبدًا.

في الغرب هناك تعبير يُسمُّونه «انفجار» المدينة، وهو تعبير أُطلِقَ بالذات على بعض المدن الأمريكية حين كان يُكتشَف الذهب أو البترول قريبًا منها، وتنفجر المدينة سُكانًا وتِجارة ومحلات وفنادقَ وحركةً هائلة دائبة. هذا التعبير وجَدتُه قاصرًا عن وصف ما حدث للدوحة أثناء هذه السنوات، أو ربما أثناء بعضها القليل الأخير، فما رأيتُه لم يكن «انفجار» مدينة، ولكنك بالضبط وكأنك رأيتَ ابنك رضيعًا، ثم ذهبتَ بعد سنوات لتراه، فإذا به رجلٌ مكتمِل الرجولة، عريض الشوارب والمناكب، يكاد يهدُّ الدنيا بقبضتَيه إذا أراد.

فجأة وجدتُ وكأنما مدينة أخرى قد انتصبَت بقوةِ مارد رهيب، من أخرى صغيرةٍ تقليدية يكاد يَعبر بها الخاطر دون أن يَعلق به الكثير من مَعالمها. وأنا — في الحقيقة —

لا يُهِمني كثيرًا ناطحات السحاب والعمارات والمنشآت، يُهمني في الحقيقة أكثرَ أن أرى ما حدَث للإنسان، فالإنسانُ عندي هو المقياس، ولا مقياس سواه.

وهذا هو الشيء العجيب.

فما أذهلَني أن وجدتُ الإنسان القطَري نفسه قد تغير تغيرًا من الصعب تصديقُه. وأنا لا ألوم قُراء قطر أو الخليج إذا لم يَكونوا قد رأَوا مثلما رأيت؛ فهم قد رأَوُا الناس والأشياء، وهي تنمو قليلًا قليلًا، وبطريقة ينزلق فوقها البصرُ والإدراك، بحيث لا يُمكن أن يُدرِك في النهاية جِماعَ ما حدث. أنا الذي فوجئت؛ لأن الفرق بين نظرتي الأولى والثانية كانت سبع سنوات.

أروع مَن قابلتُ في قطر هو الشباب القطري الجديد. الذي بسرعة مذهلة استوعب التقدم في منطقتنا، وربما في العالم كلِّه، ثم بدأ يرسخ أقدامه في أرض الواقع القطري ويَشمخ برأسه إلى السماء.

كنتُ جالسًا في ضيافة سمو الشيخ عبد العزيز وزير المالية والبترول حول فنجان قهوة. وكنتُ وأنا أتحدث معه عن كل ما يَشغل العالم، وعن هموم الإنسان العربي المثَّقف، يكاد رأسي ينشطر شطرَين؛ شطر يرى الصورة المزرية التي تُصوِّر بها الصحافةُ الغربية، بل والعالمية كلُّها، الإنسانَ العربي في صورة ذلك الجشع الذي لا هم له سوى إشباع غرائزه السفلى وشراء الذمم والأعراض، تلك الصورة التي نجحَت الدعاية الصِّهيَونية في تلقينها للرأي العام العالمي، والصورة الواقعية أمامي لشاب من شباب العرب، شاب مثقَّف حديث بكل ما تحمل هذه الكلمةُ من معنًى ومضمون، شاب تأنس بالحديث إليه وتُحس به جالسًا فوق تراث عربي متين، ولكنه يرى بنظرٍ ثاقب وهَّاج كلَّ ما يدور في منطقته وفي العالم كله، ويُدرِكه ويَعيه، ويستخلص منه الخطَّ الأمثل الذي يجب أن يَسير عليه ويلتمس فيه سبيل الخلاص من عالم شائك رهيب محشوٍّ بالأزمات والعُقَد والأشواك، وليسمح لي الشيخ الصديق أني ضربتُ به المثل، فلا أعتقد أن هذا سوف يُسعِده، فلم أرَ إنسانًا أكثرَ تواضعًا منه، ووجدتُ أنه أسرع الأمثلة إلى ذاكرتي؛ فقد خرجتُ من زيارتي له وحديثي معه بانطباع لا يُمحى.

وليس كثيرًا من المسئولين هم على هذا النحو من التحدث والوعي، والثقافة والإدراك، إنما تعالوا معي إلى سائق العربة التي خُصِّصَت لي، ذلك الإنسان الذي — ها أنا ذا أشهد أني —

تعلمتُ منه الكثير. وأول شيء تعلمتُه مثلًا أن أسمع نشرة الأخبار من كل محطَّات الراديو، ذلك أنني منذ مدة طويلة بدأت أكفر بما تقوله كل محطات إذاعاتنا، بل وإذاعات العالم، وكادت الحقيقة أن تَضيع مني تمامًا وسط هذه الغابة من عواميد «الإيريال» المسمَّرة في كل عاصمة وكل مكان، ولكن سائقي كان يَسمع بأذن أخرى، كان له على كل خبر تعليق؛ تعليق إما يمحو الخبرَ تمامًا، وإما يُردِّد عكسه، وإما يَضبِطه على الوتر الصحيح. علمَني سائقي العزيز كيف أستمع لأغاني الخليج؛ فهو «سمِّيع» من الدرجة الأولى، بل إنه علمَني كيف أستمع إلى بعض مقاطع لعبد الوهاب وأم كلثوم. علمَني تاريخ كل شبر من الدوحة وكل مبنًى، من أيام الإنجليز إلى يومنا هذا، علمَني الكثير عن السمك في سواحل قطر، وأحسن الطرق لطَهْوه وأكله، علمني هذا الرجل العظيم كيف أن الإنسان العربي باستطاعته — لا أن يَسحقه التطور، ولكن أن يمتطيَ هو بثقة لا حدَّ لها ذلك التطور، كما كان رغدان يَمتطي صَهْوة العربة البويك وينطلق بها، يُحرِّكها ويوقفها ويُلجِمها في دقةٍ ونظام وانضباط، كما يَفعل أبرعُ سائقي العالم.

تفاؤل لا حدَّ له أحسستُ به ورغدان يَطوف في أنحاء قطر والدوحة، يُعرِّفني على كل شبر فيها، لم يكن صدفة أبدًا أن يكون العربُ من قديم الزمان «قصَّاصي أثَر»؛ ففيهم الفِراسة، وفيهم دقة الملاحظة وفيهم الذكاء، وفيهم القدرة، حتى إن سَكِروا بعض الوقت بخَمر النصر أو الثروة، أن يَستعيدوا التوازن بسرعة، وبسرعة أكبر بكثير مما يتصورها الأعداء والأصدقاء، على حدٍّ سواء.

انطباعات عن الدوحة.

ولكن الانطباعات المبعثرة كثيرة جدًّا.

وجميعها يحتاج لكتاب.

وفي نيتي قطعًا أن أكتب ذلك الكتابَ ذات يوم؛ فسوف يكون جزءًا من الفخر بعروبتي.

عن السقوط قالوا لي

حسن جدًّا! لنواصِل ما انقطع من حديث ولكن كيف؟! إن الكاتب كاتب أولًا وأساسًا لأنه إنسان مُرهَف الحس إلى درجة تكون مرضية. بل أَجسُر وأقول: إنه حسَّاس إلى درجة مرضية فعلًا. ولولا أنه بكتابته تلك يُنتِج فنًّا، أي أروع وأجمل وأصح ما في الوجود من إنتاج بعد إعجاز الخلق الأعظم والحياة، لولا هذا لكان على البشرية أن تُودِّع كلَّ إنسان تَظهر عليه علامات الكتابة أو الفن، تودعه في مستشفى لعلاج الأمراض النفسية، كما تودع الخطرين على الحياة. بل إننا لو راجعنا تاريخ الفن لوجَدنا أن البشرية قد فعَلَت هذا في كثير من الأحيان، وأدَّت شدةُ الحساسية ببعضٍ من الفنانين والكُتَّاب إلى أن يَدخلوا مِصحَّات نفسية، وأحيانًا عقلية؛ ذلك أن البشرية ليست في كافة عصورها تلك الأمَّ الرَّءوم التي تَحْنو على أبنائها جميعًا وتَستجيب وتربت عليهم وتستجيب لصرخاتهم وآهاتهم، وتكون البلسم الشافيَ لأيٍّ وكلٍّ ما يُعانونه. البشرية في معظم أحوالها ومجتمعاتها غليظةُ القلب لا تَرحم، تدوس، كالقطيع المذعور الأهوج، على أقدام بعضها البعض بل أحيانًا على رقاب بعضِها البعض، وهي تَمضي خائفةً مرعوبة تَلهث وراء لقمة العيش والوجود. وجود إنسان حساس من المحتَّم عليه أن يَعيش وسط هذا القطيع الحيواني المهرول، كارثة، ليست كارثة البشرية ومجتمعاتها وقطيعها المهرول، ولكنها كارثة هذا الكائن؛ ولهذا فعلى الإنسان إذا خلق حساسًا أن يَدفع ثمن حساسيته تلك. ومثلما ذكاء المرء محسوبٌ عليه وليس محسوبًا له، فأيضًا حساسيته محسوبة عليه، لا بد أن يَدفع ثمنها كلَّ يوم من عمره، وربما دفَع عمره كله ثمنًا لها دون أن يوفي بالثمن!

وطوال الأسابيع الماضية وأنا أحسُّ أن بعض كُتَّابنا وشعرائنا العرب مستهدفون، وأنا لا أتحدث عن نفسي هنا باعتبارها نفسي؛ فالحديث عن النفس دائمًا شيء مكروه لقائله ولسامعه على حدٍّ سواء. ولكن إذا أصبحَت تلك النفس نموذجًا و«عيِّنة» لبشر

يَحيَون بيننا، ونَدوسهم ونحن نُهرول في طريقنا لتحقيق الوجود الأحمق التائه، أحمق وأتفه وأحط لون من ألوان الوجود؛ فإنه لا يُصبِح حديثًا عن النفس بقدر ما يُصبِح حديثًا عن النوع كلِّه، وحينَذاك يَنتفي الحرَج، فالموضوع عام، والقضية خطيرة، ولا بد مِن حل.

أقول مستهدفًا، وأتوقف عمدًا عن الإفصاح؛ فقد كانت الطعنات تأتي من أكثرَ مِن جهة، ومن الأصدقاء والأعداء على حد سواء. بل ويحدث، ويا للغرابة، أن يتفق هدف الأعداء مع هدف الأصدقاء، ويلتقون جميعًا للنَّيل منك! وإلا فبربِّك فسِّر لي هذه الحملة الضارية التي تأتيني من صحفي وكاتب إسرائيلي، يَنشر في جريدة عالمية كبرى، ويُحاول أن يُشكِّك في ولاء العربي؛ لأنني في نفس الوقت الذي تُحاوِل فيه أقلامٌ وصحف عربية، لا أشكُّ لحظةً في أنها قومية وخالصةُ القوميةِ والاتجاه والهدف، تحاول هي الأخرى أن تُشكِّك في مقدرتك الفنية!

أما أن يُهاجمك الأعداء فهذا شيء طبيعي، لا بد أن تتوقعه باستمرار ولا تتوقفَ عنده، بل تتوقف عنده فقط إذا كفَّ هجومهم عليك؛ لأنك بموقفك أو بحُسن نيتك لا بد حينذاك أن تكون قد خدَمت قضيتهم.

هجوم الأعداء هذا شيء طبيعي، محاولاتهم المستمرة للتشكيك في قويمة بعض الكتاب العرب وبالذات بعض الكتاب المصريين، مسألةٌ كما يقولون واردة. وكان الردُّ عليها مفروضًا أن يَكون تلقائيًّا، كان مفروضًا أن يُدرِك القارئُ الذكي، سواءٌ في مشرقنا العربي أو مَغربهم الأوروبيِّ الأمريكي، أنه لولا أن هذا الكاتبَ ما زال يُقاوِم، وبشدة، أن يَحنِيَ للعاصفة رأسَه؛ ولهذا فهُم يَلْوون ذراعه، وبطريقة في غاية الذكاء والأحكام، ويحاولون أن يُظهِروه بمظهر أنه صديقهم، وأنه لا يُعاديهم، لما تعمَّدوا التشكيك في مواقفه، بل ولفعلوا العكس تمامًا، وحاولوا أن يُظهروه في نظر قومه على أنه قوي ووطني وعنيد لتغطية موقفه. هكذا يَفعلون مع كتاب غيره، يعرفون تمامًا ميولهم وكُنْه معسكرهم الحقيقي، وتظهرهم الدعاية الصهيونية بمظهر البطل الرافض الصِّنديد، بل وأحيانًا يُهاجِمونه لِنَزداد نحن تقديرًا له، وإيمانًا به.

أي قارئ ذكيٍّ كان باستطاعته أن يُدرِك هذا؟!

ولكن ما لا يَستطيع أن يُدرِكه أبدًا ذكاءُ أي قارئ فهو أن يحدث، وفي نفس الوقت أن تتولَّى أقلامٌ عربية قومية التشكيكَ في انتماء هذا الكاتب، وإن لم يكن في انتمائه، فالتشكيك في موقفه وإهالة التراب على رأسه وتصويره على أنه قد «سقط» أخيرًا هو الآخر، وتحس من لهجتهم أنهم سعداءُ تمامًا بهذا «السقوط» وكأنهم كانوا يَستعجِلونه

أو بالأصح يتمنَّون. فالإنسان المخلِص حقًّا يَحزن لكل رجل في المعركة يَسقط، أو لكل قلم صادق يَسقط، أو حتى يتعثَّر؛ ذلك أنهم جميعًا في النهاية قوَّاته التي تُدافع عنه والتي يُشكل كلٌّ فرد منها درعًا لا بد أن يحزن الإنسان حقًّا إذا سقط، أما أن يفرح ويُهلل ويزعق قائلًا: انظروا ... هاهاها! ها هو ذا أخيرًا قد سقط.

إنهم بسرعة يريدون أن يُلحِقوك بطابور الذين سقَطوا فعلًا؛ ربما لكي تخلوَ لهم الساحة، ويَمرحون كتابةً ووجودًا باعتبارهم هم «الأشراف» وهم «الأطهار» وهم «الذين لا يُنافقون» وهم في النهاية العظماء وحدهم.

وليت سقوطَ كل الكتاب — حتى إذا كلُّ الكتاب سقَطوا — يصنع من غير الكاتب — كاتبًا، أو يُعطي للتَّافه منهم — مهما كان شريفًا أو خُيِّل إليه أنه شريف — يعطي له مقامًا وقُدرة؛ فقدرة الكتَّاب ومبلغ عطائهم مسألة لا يُحدِّدها حتى الكاتب نفسه؛ إنها خاصية فيه يُعطيها له الله سبحانه وتعالى يوم يَخلقه ويُدرِجه في سجلات الوجود. وكما يقول الكاتب المسرحي «بريخت» في مسرحيته عن جاليليو: إن سقوط نملة من فوق ناطحة سحاب لا يقتلها أو حتى يصيبها بكسر أو جرح، ولكن سقوط جَواد من الطابق الثاني فقط يقتله.

وهذا عن سقوط «جواد» فما بالك والذي يَسقط «كاتب».

لقد انتقلَت العدوى، وكان لا بد أن تَنتقل من بعض السياسيين العرب إلى بعض الكتَّاب العرب، وأصبح الحديث عن سقوط فلان الكاتب أو خيانته أو نهايته هكذا، وبجرة قلم، مسألة نضعها بمنتهى البساطة، وفي أي مجلس شراب أو جلسة قهوة. مع أن سقطة الكاتب شيء مُدوٍّ تمامًا، وخطير جدًّا إذ وكأنها أمَّة بأسرها هي التي تسقط. إن موقف «إزراباوند» من النازية لم ولن تَغتفره له البشرية بأية حال، والأمثلة على سقوط الكتَّاب الأوروبيين أو الأمريكيين أو الروس المعروفين ليست كثيرة؛ لأنها لا تَحدث، وليست أبدًا القاعدة، بل هي الشاذُّ الخارج على كل عُرف؛ فالكاتب ليس كالسياسي يَحترف مبادئه. الكاتب هو مبادئه، وسقوطه يعني تخلِّيَه عن أي مبدأ وعقيدة، بل وأكاد أقول إنه يعني أنه لم يكن موهوبًا أبدًا، مشهورًا ممكن، أما موهوبًا وفعلًا جاءت موهبته تعبيرًا عن إخلاصه وحرارة صدقه، فسقوطه مسألةٌ تكاد تكون مستحيلة.

وحين تذكر كلمة سقوط تَعني عند المتحضِّرين كافة أن إنسانًا «خان» مواقفه أو مبادئه أو أمتَه. أما أن نقولها لأن هذا الإنسان تحمس لقائد أو لحاكم، مجرد تحمُّس فهو أمر لا يحدث إلا في بلادنا العربية دونًا عن بلاد الدنيا. فكان، وبالضرورة لا بد أن يكون،

موقف الكاتب هو موقفَ المعارض الدائم لأي نوع من الحكم، ولكن هذا هو بعينه موقف الطفل المريض، أما موقف الإنسان والرجل العاقل فهو أن يقول للمحسن أحسنت، مثلما يقول للمجرم أجرَمت. أجل لقد تحمستُ للرجل حسني مبارك — ولا أزال — لأني اعتبرته آخر عرَبة نظيفة في آخر قطار يحمل أماني مصر الوطنية في التحرير الوطني والاجتماعي والحياة الدستورية. ولقد قلتها يومَ لم يكن للرجل، أو بالأصح قبل أن يكون للرجل، مواقفُ تؤكد هذا المعنى وتدعمه، وحمدًا لله أن جاءت مَواقفه وخطواته وإجراءاته تؤكد كلُّها أن حماسي كان في محله تمامًا. كل ما في الأمر أن الناس كلهم لم يكونوا قد الْتقَوا به أو عرَفوه، وأني أردتُ لا أن أفعل مثلما يفعل قضاة العفة الثورية في وطننا العربي، وما أكثرَهم أولئك الذين لا يَعملون أبدًا للتغيير إلى الأصلح، أو حتى للثورة على الفاسد، إنما هدفهم الدائم الدائب هو انتظار الناس لكي يَسقطوا، أو لكي يُسقِطوهم هم في النهاية؛ زهقًا من انتظار سقوطهم ليُهلِّلوا ويرقصوا، ويقولوا: أخيرًا ... ها ها ها ... ها هو ذا يسقط. أردت ألا أنتظر سقوط التجرِبة مرة أخرى، لأهتف أو أحكم، وألا أترك للشياطين الحرباويين المغيِّرين لألوانهم دومًا، مجالًا أن يَفرُغ المسرح لهم، ويلعبوا لعبتهم المفضلة من تغمية وتعمية، ونفاقٍ وتهديم داخلي، حتى فعلا في معسكرهم، تسقط التجرِبة. أردتُ أن أهتف بكل الشجعان، وبكل المخلصين أن نتحرك ونُغيِّر نحن بأيدينا، وأن نمنع، ليس بقلوبنا فقط، وإنما بأقلامنا وبكلماتنا، نمنع الزيغ ونُغيِّر إلى الأحسن والأكثر صدقًا ووطنية، وديمقراطية وشعبية، ومن هنا، من هنا فقط، أخذَت كلماتي «شكل» الحماس الزائد الذي لا تستطيع أن تُفرِّقه عن أي نفاق إلا إذا، مرة أخرى أقول: إلا إذا استعملتَ المقياس الحقيقي الوحيد لمعرفة الصدق من الكذب، والحماس النابع عن الإخلاص، من كلمات النفاق النابعة عن زيفٍ وعن رغبة ذاتية جشعة، تستعمل الكلماتِ والأقلامَ وسيلةً لتحقيقها. ذلك القياس الوحيد هو: تاريخ القلم الذي كتب الكلمة، وتاريخ الكلمات التي قالها الرجل. نعم، حين تتشابه علينا الرؤيا، وما أكثرَ ما تتشابه علينا، في عالمنا العربي، الرؤيا! فليس سوى التاريخ ملجَأ يَقينا شرَّ أن نخطئ؛ أن نخطئ في الحكم على شهادة الشاهد، وأن نُخطئ بالتالي في الحكم على شخص المشهود له أو ضده؛ فليس كل الحكام «فلانًا» وليس كل الكتاب «علانًا» وكلمة الشرف تَستعملها أي امرأة لا شرف لها أكثرَ مما تستعملها المرأة الشريفة فعلًا، والتي تعتبر مسألة شرفها مسألةً لا تستحق أبدًا أن تُباهي بها، وإنما هي مجرد سلوكها العادي الذي لا حاجة لها أن تفخر بأنه سلوك شريف؛ لأنها لا تعرف سلوكًا آخر، أو تدرك أن لسلوكها هذا في سوق التوصيف والتوظيف قيمةً.

والمنظر بالمناسبة، في قاهرتنا العزيزة هذه الأيام حقًّا يدعو للتفرج، فما أكثر المقالات التي تُكتَب الآن مُطالِبة الناسَ بالالتزام بالشرف وضرورة القدوة الحسنة، وحتمية «النظافة»! هل يَذكر بعض القراء مقالة كتبتها ذات يوم عام ١٩٧٧م عن ضرورة أن «ننظف» مصر؟ الآن، هم، أولئك الذين طلبتُ ذات يوم أن ننظف مصر منهم، هم الذين الآن يدعون لتنظيف مصر، وفي يقيني أنهم يدعون لتنظيفها من كل نظيف فعلًا، بحيث لا يبقى سِواهم نظيفين، وما أروعَها آنَذاك من نظافة! المنظر مضحك فعلًا، وليتصوَّرْه معي أولئك الذين يحيَوْن في لندن أو باريس حين تقوم مظاهرة من محترفات «سوهو» مثلًا يطالبن الإنجليزيات بأن يتصرفن بشرف وبنظافة، يُطالبن ربَّات البيوت الطيبات، والزوجات المحبات الوفيات المتفانيات، يطالبنهن بأن يُصبِحن مثلهن شريفات، ويَضربن من أنفسهن مثلًا للشرف والقدوة!

قد نَضحك والمنظر مضحك فعلًا، لكنه ليس كذلك هنا، إنه حقيقةٌ نحياها ونقرؤها كلَّ صباح ونضحك.

مرة أخرى أعود فأقول: سامح الله أولئك الذين أرادوا بسوء أو بحُسن نية، وعفا الله عما سلف، وليساعدنا الله أن نكون عند حُسن ظنِّ مَن أحسنوا الظن بنا، وأن يُخيب الله أصحاب النيات الخبيثة، ولا يحقق لهم ذلك الهدف الذي تمنَّوه طويلًا: أن نسقط.

وأنا لا أدعي أن الكُتَّاب منزَّهون أو أني شخصيًّا منزَّه. بل إني لأُرجع الأمر كلَّه إلى مواقفَ شديدة التهافت والتخاذل، اتخذَها نفر من كُتاب القمة في مصر وفي بعض البلاد الأخرى. ولكني أؤكد لهم أن قاهرتنا على طول تاريخها لم يكن السقوط فيها هو «المودة»، وإنما كانت وستظل دائمًا وأبدًا هي الصمود، بل وما أستطيع قوله أنني شخصيًّا، وإلى الآن على الأقل، لم أسقط بعدُ، وفي نيتي ألَّا أسقط، بإرادة الله سبحانه طبعًا؛ إذ لو تخلَّت عني إرادته، أو عن أحد، لسقطنا جميعًا، ولأصبحنا والعياذ بالله مثل تجار النظافة.

نميمة عربية

كنا جالسين وجاءت سيرة سين من الناس، وبدأ أحدهم بالثناء عليه، وبحماس فاترٍ ردَّ آخرُ بمقولة أخرى طيبة عنه. الرجل عالم وعميد إحدى الكليات الهامة في جامعة هامة من جامعاتنا، ورغم صغر سنِّه فقد تبوأ منصب العميد عن جدارة، وأصبح اسمه من الأسماء الثقات على مستوى العالم في تخصصه، أي بلد لا بد أن تفخر به، أي جامعة في الخارج كانت ترصد له ولأبحاثه الميزانيات الضخمة، وتجد في كل فرصة تُتاح مناسَبةً لتكريمه. هكذا جرى الحديث عنه أول الأمر، غير أن أحد الحاضرين ما لبث أن قال: ولكن ... وآه من لكن هذه التي أصبحت لا بد أن تعقب أي مديح في أي جلسة وعلى أي مستوى في مجتمعنا. ولكن ... وذكر الرجل قصة توحي بأنه ليس عالمًا ولا شيئًا من هذا القبيل، وإنما هو متخصص في «العلاقات العامة» وفي الإلحاح على الجرائد والمجلات أن تنشر أخباره وأخبار سفرياته وأبحاثه المزعومة. وانبرت سيدةٌ من الحاضرات تتحدث عن معاملته المخجِلة لزوجته ... وردت عليها أخرى بقصة سمعتها. وهكذا وجدت المنديل الأبيض الناصع الذي أخرَجه المتحدث الأول من جعبته ليذكر للحاضرين نموذجًا طيبًا يعرفه، بدأت نقط من الحبر السميك الأسود تلتصق بأركان المناديل ثم تزحف من كل الجهات ... كرامته وشرفه ... أولاده وزواجه ... علاقته بالناس ... عمله ... وحتى لم تسلم عائلته، وإذا بالمنديل في النهاية يستحيل إلى مربع أسود غامق السواد، صاره الرجل العالم المرموق وآل إليه.

ولم يكن هذا أول منديل أبيض يخرج من جَعبة في جلستنا، فقد لاحظت أن ما من منديل خرج، إلا وعاد إلى جيب صاحبه بقعة حالكة السواد. وأيضًا لم تكن جلستنا أول جلسة، ولا نحن وحدنا الذين نجلس وتأتي على ألسنتِنا سِيرُ الناس، إنما، في السنوات الأخيرة، لاحظت أيضًا كثرة هذه الجلسات، ونُدرة من يخرج سالمًا، إذا مرَّت سيرته، مجردَ

مرور، على لسانٍ من الألسنة، بل حتى أصبح الأمر لعبة يبدأها أحدهم أو تبدأها إحداهن بقولها: ما تيجي ننم؛ إذ قد تعلَّمْنا في صِغَرنا أن هذه نميمة، وأنها من طبع النساء الحاقدات الثرثارات، ولكن يبدو أنها لم تعد مجرد نميمة، بل لم تعد تقتصر على النساء، برع فيها الرجال أيضًا وبَزُّوا النساء!

نحن مجتمع لا يؤمن بالحركة (أي الفعل) أو «الأكشن»، نميل أكثر إلى الحديث، حتى عن «الأكشن» أو مَن يقومون «بالفعل»، وكنتُ أعتقد أن عدد القادرين على الكلام يكاد يُوازي عدد القادرين على الفعل في بلادنا، لولا أنني لاحظتُ أيضًا في السنين الأخيرة أن الكثيرين قد بدَءوا يُفضِّلون تمامًا أن يَستحيلوا إلى متفرجين على مَن يقومون بالفعل. ولأن «من خاف سلم» والذي يُعرِّض نفسه للقيام بفعلٍ ما، هناك احتمال كبير أن يُخطئ أو يَكْبوَ فليس أروعَ من الكف عن الإقدام على أي فعل، والتحول إلى صفوف المتفرجين الذين يضَعون أنفسهم في موقف الحكام أو القضاة منزَّهين عن أي فعل أو خطأ، يَحكمون على الناس، وأبدًا لا يَحكم عليهم أحد، فهُم والحمد لله لا يَقومون بأي حركة تَستدعي أي حكم، هم لا يقومون إلا فقط بدور الفرجة، والفرجة في أي شكل من أشكالها مأمونة العواقب، ولا يَجرُؤ أحد على الحكم عليها. وتكاثر جمهور المتفرجين حتى أصبح بعشَرات الآلاف والمئات والملايين، يتفرجون على «اللعيبة» في الملعب الكبير. اللعيبة فرادى، وقليلون تمامًا، وملعونون في كل حال من جمهور المتفرجين العريض، حتى لو كانت المباراة هامة و«حساسة»، وحتى لو كانت أحيانًا تدور حول أخطر القضايا والمصائر. ليس أسهلَ من الجلوس على مقعدٍ مريح في نادٍ أو مقهًى، وإصدار الأحكام على المتحركين؛ أحكام رهيبة، مانعة قاطعة، تُقال وتُكال بكل بساطة وبلا أي انفعال، ويُحِس الجالس المستريح أنه، بهذا الحكم، أو بتلك النميمة، أو بهذا الذي رواه عن «لعيب» ومزَّق به شرفه، قد أراح ضميرَه وقام بكل «الفعل» المطلوب منه، وكفى الله المؤمنين شر أي قتال.

أنا لا يُهمني الآن بحثُ الأسباب التي أدَّت لهذه الظاهرة، هناك فلاسفة عظماء متخصصون في بحث «الأسباب» أي أسباب لأي شيء، وستجد مَن يقول إن عدم إشراك الجماهير في الحكم والمسئولية أحدثَ نوعًا من السلبية أدت إلى هذه الأوضاع، ومِن قائلٍ إن انعدام الديمقراطية في الزمن «الغابر» أدى إلى تعود الناس على عدم الجهر بآرائهم أو التصدي «للأفعال»، وهكذا آب الناس إلى الهمس نميمةً، وإلى الاكتفاء بدور المتفرج حتى لو كانت الرواية التي تُعرَض أو المباراة المقامة تمس صميم حياته. ستجد مفسرين عظامًا لهذه الحالة، ولكني هنا لا أسوقها كي نجد لها سببًا، إني إنما أفعل لأني قد بدأتُ

أدرك أنها خطرٌ ماحِق علينا جميعًا، وإني في محاولتي لأدركَ ذلك الخطر إنما أدافع عن النفس، بادئًا حتى بنفسي، فالحامض الكاوي يَهري القلوب والصدور من حولي، ويُحدِق بي، ومن المستحيل أن أتركه يهريني أو يهري غيري.

إن هذه الحالة الغريبة في جانب من جوانبها، ليست مجردَ رد فعل سلبي لخطر العلَنية أو القيام بفعل، ولكن بعض العقول غير الواعية، تقوم بها وبخبث شديد، بهدف تبرير موقف المتفرج، بل واستمرائه.

فما مِن شك أن لدى كلِّ إنسان ضميرًا، وأن لا وسيلة لقتل هذا الضمير إلا بقتل الإنسان نفسِه. وما من شك في أن كل مَن يقف موقف المتفرج يؤرقه، فإن لم يكن أرَق الضمير، فهو الثورة الداخلية على النفس وعلى الموقف المخزي الذي تقفه. لكي يريح المتفرجُ ضميره ويُخمِدَ ثورته على نفسه لا بد من مبرر قوي جدًّا يسوقه للآخرين ولِذاته، هذا المبرر هو وَصْم كل من «يلعب» أو «يتحرك» أو ماضٍ في القيام بأي «عمل» بأنه مطعون فيه أو في انتمائه أو في أهدافه. وحبذا لو كان جميع المتحركين (الفاعلين) هكذا؛ إذ ما دام المتحركون كلهم قذرين، فكيف تريد مني أن أتحرك أو أفعل؟! وما دامت كل حركة محلَّ ريبة أو لا بد وراءها غرض خبيث فلا أروع من التفرج إذن! ومن البقاء هناك في أعلى المدرج «نظيفًا» غيرَ ملوَّث الثياب أو السيرة. لنفتش إذن لكل متحرك عن نقطة سوداء في حاضره أو في تاريخه، وإذا حتى عجزنا فلنُفتش في مستقبله أو بمعنًى آخر في هدفه. وما دامت مجموعةٌ من الناس قد اتفقَت أن تُسوِّد سيرةً ما، فمن المحال أن تعجز، وما دام الكلام يُقال وليس مطلوبًا منك إثباتٌ أو إقامة الدليل عليه، فأنت لن تخسر شيئًا إذا قلت كل ما «سمعت» أو حتى كل ما «تتمنى» حدوثه! ومجلس ينقل عن مجلس، وراوٍ ينقل عن راوٍ، لا بد أن تسود أكبر صفحة بيضاء إذا أردت لها أن تسود. وما دمنا كلنا أصبحنا سود الطوايا فلا فضل لعربي حينئذٍ على أعجمي ولا لصاحب الفعل على صاحب القول ولا للاعب على متفرج. باختصار أشد ينعدم «البطل».

والناس تتحرك إلى أمام لأن أمامها نماذجَ رائعة بيضاء للحركة إلى أمام؛ ولهذا فالبطل في أي مجتمع ظاهرة اجتماعية، وليست فردية، ظاهرة يُفرِزها المجتمع نفسه ليضع بها نماذجَ حية لمثُل عليا يضعها الناس أمام أعينهم، ويحتذونها كلما دعت الحاجة للحركة أو للتصرف.

ولم يحدث في تاريخ أي شعب أن سُوِّدَت كلُّ مثُله العليا أبدًا، فهذا معناه التوقف التام، معناه سيادة السكون والتفرج، معناه نهاية الحركة والإبداع، وحتى مجرد أداء

الحياة. بل حتى معناه — وهذا هو البشع — انعدام القدرة للثورة عليه وخلق مجتمع جديد بنماذج جديدة بأبطال جدد؛ لأن هذه الثورة نفسَها لا تحدث ولا يمكن أن تحدث لا بنماذجَ من هذا المجتمع المريض نفسه تثور عليه، ويحتذيها تلامذةٌ وتابعون، يُشكِّلون في النهاية قوةَ تغيير تعيد تشكيل المجتمع وصياغة حياته.

فإذا قضينا بألْسِنتنا على كل النماذج وعلى كل أنواع الحركة، وفي أي اتجاه، فإننا، دون أن نَدري، نقضي على الحياة الكائنة والحياة التي لا بد أن تكون. نقضي على يأس الحاضر ونَقضي على أمل المستقبل، نقضي على جيل عائش وموجود، وجيلٍ جديد قادم، وقد طمسنا معالم مُثله العليا التي لا بد أن تكون قائمةً اليوم ليحتذيَها الشباب اليوم وغدًا.

حين نقضي على «كل» الفاعلية، نقضي على «كل» الفعل و«كل» الحركة بما فيها الحركة إلى أمام.

المجتمَعات الصحيحة (وليس مُهمًّا أن تكون من عالم أول أو ثالث، وليس مهمًّا أن تكون متخلفة أو متقدمة، المهم أن تكون غير مَريضة) تقضي فعلًا بألسنتها وبأقلامها وأحيانًا بأفعالها ومخالبها، وقضائها على «بعض» الفعل أو الفعل الضار، و«بعض» الفاعلين المتحركين في اتجاه ضار، بعضهم وليس كلهم، وبعضهم السيِّئ أيضًا؛ كي تُفسِح المجال أمام الفاعلين المتحركين إلى أمام، فليست كلُّ حركة مرضًا أو ضررًا، وليس كل الفاعلين سيِّئين وخُبثاء، وبالطريقة التي رأيناها ونراها، وما دام الطمس والتسويد والهدم الجارح يحدث بلا تمييز — أو من أجل التسويد للتسويد — فالأمر يحدث قطعًا بلا تمييز، فالتمييز يَحتاج لتفكير أيضًا أو «إعمال» الفكر، وهذا «فعل»، والقائمون بالتسويد ليسوا من أهل ذلك، إنما هم من أهل الفرجة والسلبية الكاملة المطلقة، فإعمال الفكر بالنسبة لهم عمل، وعمل شاقٌّ أيضًا، وسوف يُوضَعون من أجله لو فعَلوا في قائمة «الفاعلين» ويُعرَّضون للتلويث، فما الداعي والأمر لن يُكلِّفَنا أكثرَ من شخص آخر أو بِضعة أشخاص نُضيفهم إلى قائمة الملوثين؟

أصحيح أن الأمر لا يُكلِّفنا سوى شخص أو بضعة أشخاص؟

ألم نفكر أبدًا أنه قد يُكلِّفنا حياتنا نفسها، بل ربما حياة أبرياء تمامًا، كأولادنا من بعدنا؟

إنني معك تمامًا أيها المتحدث الوقور في أن السيد فلانًا أو الصحفي فلانًا أو الطبيب فلانًا أو رئيس هذا أو ذاك قد يكون سيئًا، ولكن لستُ معك أبدًا في أن كل مَن تأتي سيرته

على ألسنتنا وألسنة غيرنا، كل مَن تأتي له سيرةٌ في أي زمان أو مكان أو مجلس هو بالضرورة سيئ إلى أن يَثبت العكس. والكارثة أن هذا العكس لا يثبت أبدًا، فأولًا لا أحدَ يهتم بأن يُثبِتَه، ولا أنت تُواجِه صاحب السيرة بما تقوله عنك، لتُحاكِمَه بعدل وتُعطِيَه فرصةَ إثبات العكس، وإنما كل هذا يتم خلف ظهره، بل إن سيرة سيادتك نفسها لو فقط تزحزحَت عن مجلسك الوقور هذا معطِيًا لنا ظهرك، لن تَسلم، وستُحاكَم أنت الآخر محاكمة غيابية مليئة بشهود الإثبات ولا شاهد نفي واحد، والتهم خطيرة وكثيرة وبشعة والحكم بالإجماع.

أتصوَّر أن معجزة حدثَت وقلبَت الوضع؛ بمعنى أننا قررنا ذات يوم مشهود أن نَقلِب الآية تمامًا. وبدلًا من أن نَطعن في كل مخلوق من وراء ظهره. نمدح فيه حتى لو كان المديح كذبًا، حتى لو اقتضى الأمر أن يُفلِت بعضُ المجرمين من مُحاكَماتنا؟

صحيحٌ أن شيئًا كهذا يتَعارض تمامًا مع «الصورة الموضوعية» للموقف وقد نَجْني على الحقيقة في أحيان. ولكن، سيكون أثره هو أنه ما دام الناس كلُّهم نَظيفين هكذا أو أبرياء، فلِم لا أفكر أنا الآخر أن أكون جيدًا وبريئًا، وأن أنزل أنا الآخر إلى الساحة وأعمل وأنا ضامنٌ أني سأبقى نظيفًا أنا الآخر؟

وهل هذا أمر سيئ؟

وهل هذا أمر مضر؟

وحتى ولو كانت طريقة مثالية للتفكير والحكم على الناس، ولكنها على الأقل ستجعلني أنا وملايين المواطنين أؤمن أن الدنيا لا تزال بخير، وأن النظافة هي القاعدة وأن الحركة بركة وخير، والتفرج نُكوص وجُبن، حتى لو كان الأمر هكذا، أفي هذا خَسارة أيُّ خسارة، أم فيها الكسب لي وللمجتمع ولكل الناس، كلُّ الكسب؟!

حقًّا، لماذا لا «نجن» ونفعلها؟

ما دمنا قد جرَّبنا «التعقُّل» وآبَت بنا التجرِبة إلى مليون متفرج بائس وعشَرة لاعبين ملعونين كما حادث الآن، لماذا لا نُجرِّب «الجنون» الذي قد يَقلِبنا بين يوم ولية، وأقسم أن الأمر لن يَستغرق أكثرَ من يوم وليلة، يقلبنا إلى مليون فاعل نشط قادر مخلص، وعشَرة متفرجين بائسين لا يَمنعهم من الاشتراك لا الجنونُ الحقيقي أو النزع الأخير؟

إن طاقتنا على العطاء لا حد لها، والإنسان العربي ما أعظم ما يَحتويه صدره! ما أروع ما يحفل به عقله من طاقات وقدرات! ما أجمله حين يفعل ويعمل ويقفز ويغني، ويَكيل للعدوِّ — حتى لو كان وضعًا أو قرارًا أو مشكلة — ضرباته، ويوجه طاقاته في

هدم معوقاته ومعوقيه، بدل أن ترتدَّ طاقات عدوانه الخلَّاقة إلى الداخل تهدم ذاته، وكلَّ مواهبه العظمى داخل ذاته، غيرَ عارف أنه حتى وهو يهدم زميله أو جاره أو أحيانًا محبوبَه أنه في الحقيقة يهدم ذاته؛ فذاتي أيها الهادم من ذاتك، وأي جناية عليَّ بالدرجة الأولى جنايةٌ عليك أولًا؛ إذ أنت حين تَخسَرني تخسَر نفسك، وحين أخسَرك أخسر أولًا نفسي، أَلَسْنا نفس الذات، نفس الإنسان، وَحْدة بشرية اسمها العرب، أم أن بلدنا هي العزيزة الغالية التي نشدو بها كلنا وكأنها نقطة مجردةٌ في الفضاء بينما بلادنا هي، ولا شيء آخر، لا الأرض ولا السماء، ولا التاريخ، وإنما أنت وأنا، نحن الوجود العربي الدائم والخالد، نحن الكنز وصاحب الكنز، نحن أنا وأنت وليس أي شيء خرافي آخر؟! اصْحُ، فز، اخرس أيها الأنا؛ فأنا حين أشوهك، حتى لو كنت مشوهًا، التصرف التلقائي حِيالَك أن أدير وجهي عنك، حين أشوهك فإنما هي نفسي الأمَّارة بالسوء تُريد تشويهي أنا، تريد مسخي أنا بمسخ كل ما أتصوره من نماذجَ وبطولات، عدوتي لدودتي حينئذٍ لا بد من كبحها.

لا بد قبل أن أفتح فمي لأقول رأيي أو حكايتي عن فلان أن أسأل نفسي أولًا: لماذا يا نفسي لماذا؟ أنا عارفٌ تمامًا أنها ليست غَيرةً على الحق والحقيقة، فإذا كان الأمر كذلك فالطريق ليست حديثًا جبانًا من وراء الظهر. ما دمت غيورًا على الحق والحقيقة إلى هذه الدرجة لتواجهه قُل رأيك هذا أمامه، فإذا لم تستطع، إذا آثرتَ السلامة، إذا سكتَّ عن الحق فأنت حينئذٍ شيطانٌ أخرس، وما دمتَ بقولك الخلفي هذا شيطانًا أخرس فجُرمك يصبح أكبرَ من كل جرائمه حتى لو كانت جريمته الخيانة، فأن يخون الإنسان مبدأً جريمةٌ، ولكن سكوتك أنت على خيانته جريمة أبشعُ ألفَ مرة؛ لأنها الجريمة المحرضة على الجريمة، المحرضة على استمرار الخيانة، المحرضة على مواصلة الشر، وليس أبشعَ منها جريمة.

طبعًا أنا لا أُلِح في طلب التصرف «بجنون» على نحو ما ذكَرت، فيبدو أننا أصبحنا أعقلَ بكثير من أن نُجَن، ولكنا، إذا كنا عُقلاء فعلًا، فلا بد أن نصل بعقلنا إلى هذا السؤال: لماذا إذن يعيش الإنسان؟ لكي يأكل ويشرب ويتناسل؟ ولكن هذه ليست شطارة؛ فأي حيوان باستطاعته أن يفعل هذا! أَلِكَي نعيش أطولَ عدد ممكن من السنين نستمتع بالوجود أحياءً؟ فليكن، فلتكن متعة العيش نفسها دافعًا للبقاء، ولكن السؤال هو: أي متعة؟ إن الطعام والشراب والتناسل متع مكررة، إذا زاوَل الإنسانُ الحياةَ من أجلها فقط فلا بد

أن يمجَّها بعد فترة، فهي مجرد تكرار لمتع معروفة محفوظة، تَكْرار لِمُتع تَفقد، بمجرد تَكرارها، القدرةَ على الإمتاع.

لا بد إذن من شيء ممتع آخر هو الذي يجعلنا نتمسك بالبقاء أحياء؛ تلك المتعة لا بد أن تكون هي الوجودَ بمتعة أو الحياةَ بمتعة. ومتعةُ الحياة هي الإحساس بالحياة، ولكي تُحِس بالحياة لا بد أن تكون لحياتك فاعلية ما. إذن أنت تحيا وتُحِس أنك تحيا. وتستمتع بأنك تحيا بمقدار ما تُحس لحياتك بفاعليةٍ ما.

والطريقة التي وصَلْنا إليها لا بد أن تدفعَنا بعد حينٍ إلى أن نَفقد فاعليتنا تمامًا، حين نتحول إلى مجرد متفرجين على أحداث ممجوجة. إننا نقوم في منتصف الرواية إذا تراكم إحساسُنا بالملل منها حين لا تُعجِبنا. وبالطريقة الآنفة وبأحداث ممجوجة يقوم بها فاعلون ممجوجون يتسرَّب المللُ إلى أنفسنا ثم الضيق، ثم السخط ونبدأ نفكر في القيام ومغادرة دار العرض.

ولكن دار العرض التي نحن بصددها هي الدنيا، والأحداث الممجوجة هي كل حياتنا.

ومغادرة الدار يعني أن نموت أو نفنى.

سيوصلنا عقلنا إذن إلى أن فكرة الحياة رغم أنها حياتنا فكرة كل الحياة. وإذا تمسكنا «بتعقُّلنا» العميق وتشبَّثْنا بالحياة رغم كُرهِنا لها، فالنتيجة أن نَمرض، والمرض ليس سوى الباب يُفتَح للموت وللعدم، ونتيجته المحتمة رغم كل عقلنا أن نموت استمساكًا بالحياة، هذا النوع من الحياة.

أو ليس هذا هو الجنون الحقيقي؟!

ليس أن نقوم بعمل «مجنون» لتغيير طعم حياتنا، وإنما أن نظل نحتسيها بمُرِّها ومرارتها حتى نموت غمًّا؟

وما دام الأمر جنونًا بجنون، فلماذا لا نختار الجنون الشافي، أو الجنون في محاولة الشفاء، بدلًا من الجنون استمساكًا بالحياة مرضًا، والمرض حياة؟

وقد يَهُز أحدنا كتفه ويقول: لسه بدري.

لا تزال الحياة حلوة، ونحن لا نزال نحيا. حتى لو كان هذا الأمر هو الذي سيحدث فأوانه لم يأت بعد.

وإني لآسف إذ أقول: إن الأمر ليس كذلك مطلقًا؛ فنحن بهذه الحياة مَرْضى! والباب الوحيد المفتوح أمامنا هو باب الموت. كل ما في الأمر أننا من فرط عقلنا لا ندركه، ومن فرط ما أفقدنا المرض إحساسنا لم نَعُد نُحِس المرض، ولا نُقدِّر أنه مرض خطير فادح، مرض الموت.

ألم يشك أحد في أننا مرضى؟ لا أعتقد أن أحدًا سيشك؛ فالشك أيضًا نوع من التفكير، والتفكير أيضًا نوع من الفعل، ونحن قد قرَّرنا أن نتفرَّج على شكه، وربما نصل إلى أنه مُلْتاث أو أن له سوابقَ في الأقسام وغدرَ بفلان وفلان، وبشِفاة مُمصمِصة مقلوبة، وبملامحَ استرخَت على مضض، وقلوب مثقلة نترك المجلس إلى مجلس، والمجالس إلى الفراش مُنهَكين بلا تعب، مطحونين بلا كفاح، تضاغطَت أرواحنا إلى الحَلاقيم، وماذا نفعل؟ وهل سنُصلح وحدنا الكون. نم لها على جنبك الأيمن عساها تفرج، فإن لم تفرج نم على جنبك الأيسر، فإن لم يحدث، فالأمر يومئذٍ لله.

أريد أن أقف فوق قاعدة التمثال العالية الأنيقة بلا تمثال، «وكأننا نستخسر أن نمنحها تقديرًا لأحد، مهما يكون قد فعل» فوق أعلى قاعدة تمثال في أوسع مَيدان في أي بلد عربي، أريد أن أقف وأصرخ بأعلى صوتي: أجل أيها الناس! يمكن أن نُصلِح وحدنا الكون. أي منا، بمفرده حتى، لو أراد، يستطيع، لو أراد بقوة، بكل ما لديه من قوة، يستطيع.

الذين يأكلون أمهم

ثاني مرة

أنا سعيد جدًّا وتعس جدًّا هذا اليوم، فبالأمس انتهى في مصر عصر بناء البيوت على حساب الأرض الطيبة المعطاءة التي نأكل منها ونعيش عليها، سعيد جدًّا لأنه أخيرًا جدًّا جدًّا تحركَت الآلة الحكومية المصرية، وأوقفَت جريمةَ تجريف الأرض الزراعية وإحالتها إلى قَمائن طوب أحمر، تعس جدًّا لأن هذا الإجراء تأخَّر كثيرًا وطويلًا وسبَّب لنا خسائرَ جسيمة لا تُعوَّض، فمنذ أكثرَ من ستِّ سنوات كتبتُ في هذا المكان عن «الذين يأكلون أمهم» وكنت أَلِفت نظر السلطات بشدة إلى الجريمة التي استشرَت في كل أنحاء المنطقة المزروعة من مصر، جريمة تجريف الأرض وإحالتها إلى بِرَك ومستنقَعات، أي حرمان المصريِّين من آلة الإنتاج الطبيعية التي منحَها الله لهم، عن طريق قشرة طَمْي النيل التي عليها يَحيَون ومنها يأكلون، وطالبتُ بإيقاف تلك الجريمة، وكانت تلك الكلمةُ أولى — أو مِن أوليات — الاستغاثات المكتوبة الموجَّهة للحكومة في ذلك الوقت، والتي تُنادي بسَنِّ قانون عاجل يحكم بالسجن ولو المؤبد على هؤلاء الذين يقتلون أمهم الأرض، ويخونون شعبنا ومستقبل أجيالنا القادمة. أقول الاستغاثات المكتوبة؛ لأن الاستغاثات بدأت شفوية وكنتُ أسمعها من أفواه فلاحي قريتنا، والغريب أنها أفواه المزارعين الذين لا يمتلكون أرضًا، ولكنهم أحرص على «الأرض» من أولئك الذين يمتلكونها بناء على عقد أو ميراث، هؤلاء كانوا يستغيثون في صمت وإذا رأوا «أفنديًّا» مثلي انفجرت صدورهم مما تحمل من غيظ تجاه الجريمة التي تُرتكَب أمام أعينهم، ولا يَملِكون لها دفعًا. ولم أفعل أنا أكثر من أني ترجمت هذه الصرخات إلى لغة مكتوبة نشرتُها في الأهرام — أهم جريدة —

وكنتُ أتصور أني بنشرها سأُقيم الدنيا وأقعدها، ولكن مِن الغريب أن شيئًا مِن هذا لم يَحدث، فما جاءني رد من وزير أو مسئول، ولا تحركَت قوات المسطحات المائية ولا البرية ولا السمائية ولا الداخلية ولا الزراعية. وكأنَّ الحكومة وظيفتها أن تَحكم الشعب فقط ولا علاقة لها بالدفاع عن «أمنه» الترابيِّ أو الغذائي، وقد كانت قلة الأمن الغذائي في ذلك الزمن منذ ستِّ سنوات عالية النبرة يُتاجِر باسمها في أقوات الشعب، ويُثري البعض ثراء فاحشًا حرامًا مجرَّمًا.

وكنتُ كلما سافرت عبر الدلتا ورأيت «جبال» الطمي الشامخات مكوَّمةً أُحِس كأنها كومة من لحمي ولحمك، كُشِطَت من أجسادنا، وكُوِّمَت هكذا ليربح منها أناسٌ بلا وازع أو ضمير.

ومضت سنوات وسنوات والأرض تُجرَف نهارًا وليلًا جهارًا وخفية، ويَبلغ الربح من الفدان الواحد المجرف أكثرُ من ستين ألف جنيه والمسطحات المائية والبرية ومجلس الشعب ووزارة الزراعة ووزارة الداخلية «ولا هي هنا».

وأخيرًا جدًّا حين جاء فلاح فيومي حقيقي هو الدكتور يوسف والي على رأس وزارة الزراعة تحرك الموضوع، وبدأت الآلة الحكومية البالية تتمطَّع وتتمطى، وتُلملِم مَفاصلها المخلَّعة وصدَر القانون، وحدد الأمس موعدًا نهائيًّا «لمصادرة» أي طوب أحمر أو قمائن من الطمي، ومصادرة أي آلات تُستعمَل وغرامة، لستُ أدري كم، على مَن يرتكب هذه الجريمة القصوى، لا أعرف لماذا هذه الرقة في معاملة أناس أكثر إجرامًا من مهربي المخدِّرات؟! لماذا لا تجعل السجن المؤبد عقوبة مَن يمد يده على طَمْينا المقدَّس، جريمة خيانة لأرض أمنا، تخريب الاقتصاد القومي، حياتنا، لقد قرأتُ في تصريحات قائد شرطة المسطحات المائية الحالي: إن بلادنا فقدَت بتأخُّر صدور القانون أكثرَ من مليار من الجنيهات، ذهبَت حرامًا مجرمًا إلى جيوب بضع عشرات من الخونة المصريين، وأعتقد أن تقدير قائد الشرطة غير حقيقي، فمقدار التخريب الذي حدَث للتربة الزراعية ليس مقتصرًا على حساب ثمن الأرض التي اغتِيلَت، أي لا بد أن نَحسب أيضًا ثمنَ ما كانت ستُنتج تلك الأرضُ خلال السنين التي مضَت، والسنين الطوال القادمة التي ستَبقى فيها بُورًا بلا زراعة، وهنا سيتعدى الرقمُ عشرات المليارات من الجنيهات.

مَن أطالبه بتسديد هذه المليارات التي لو كان قد اتخذ إجراءً منذ ستِّ سنوات لما كانت قد ضاعت أبدًا؟

من أطالب؟

وكيف نُحاسِب المسئولين عن التباطؤ المتعمَّد أو غيرِ المتعمد في اتخاذ الإجراء وسَنِّ القانون؟

وإذا وجَدْنا المسئولين سواءٌ أكانوا شرطة أم زراعة أم أعضاء مجلس الشعب، أو بالذات أعضاء اللجنة الزراعية في مجلس الشعب السابق، هل نحبسهم «مصاريف» مدى الحياة استيفاءً لحق الأرض والشعب؟

أم ماذا نفعل بهم؟

إن مشكلة الحكومة المصرية أنها درَجَت خلال رُبع القرن الأخير في إهمال محاسبة المقصِّرين والمخطئين والمجرِمين في حق الشعب وحق الوطن والمواطن؛ ولهذا فإن أحدًا لا يُهِمه أن يتَّخِذ إجراءً ضد شيء إذ سيجرُّ على نفسه المشاكلَ دون داعٍ، والمهم أن أحدًا لن يُحاسبه إذا تقاعس أو قصَّر …

وإن مشكلتنا أننا ظنَنَّا أن الحكومة المصرية هي صاحبة مصر، ونمنا على هذا التصور طويلًا، وآنَ لنا أن نستيقظ على الإدراك أننا — نحن الشعبَ — أصحابُ مصر، وأنه لا بد لنا نحن «أن نحاسب كل مُقصِّر في حقها» صح النوم يا «مجلس الشعب».

مَن يخشى الله؟

ثلاثة أيام على شاطئ البحر الفسيح الممتدِّ عِشتُها في حيز لا يتعدى حجمُه الواحد على المليون من الملليمتر المكعب. كنتُ قد اصطحبتُ معي كتابًا أَهدانيه الأستاذ عبد الحميد غريب الناشر اسمه «في الهندسة الوراثية، صناعة الحياة ومن يحكم في البيوتكنولوجيا؟» وهو مِن تأليف العلامة إدوارد بوكسين، وقام بترجمته عالمٌ مصري آخَر هو الدكتور أحمد مستجير الأستاذ بكلية الزراعة جامعة القاهرة، ترجمة ماذا أقول أروع كتاب علمي قرأتُه مترجمًا إلى العربية، وكأنما هو مؤلَّف بها أصلًا، ليس هذا غريبًا؛ فمن أول نظرة ألقيتها على مقدمة المترجم ووجدتُه يستشهد بأبياتٍ لشاعرنا الكبير المرحوم صلاح عبد الصبور أحسستُ أني أمام عالم شاعر.

وأقبلتُ على الكتاب!

كنت قد قرأتُ بضع مقالات متناثِرة عن ثورة الهندسة الوراثية أو القدرة التي أحدثَها التقدمُ الهائل في هندسة الوراثة، وذلك في الملاحق العلمية لبعض الجرائد والمجلات الأوروبية والأمريكية. وعرَفتُ أن الإنسان بعدما انتهى من تشكيل، أو بالأصح إعادة تشكيل، المادة أو الجماد الموجود على سطح الأرض، بدأ وبذكاءٍ خارق يَسبُر غَوْر التركيب الخلوي للكائنات الحية، ويفك كثيرًا من الغموض المحيط بمكونات الخلية الحية، وعلى رأسها نواة الخلية، أو «عقلها وجهازها العصبي والتكاثري»، وبالذات الكروموزومات الموجودة داخل النواة، والمسئولة عن برمجة الصفات الوراثية التي تحمل كل خصائص الكائن الحي، وإيصالها إلى الأجيال التالية من هذا الكائن. قراءات عامة جدًّا وعلم جديد غامض، وجوائز نوبل تَتْرى على علماء الهندسة الوراثية بالذات، إلى درجة أني بدأتُ أشعر أنه إذا كنا نحيا في عصر الكومبيوتر المعتمِد على استغلال القدرات الإلكترونية داخل الذرات في الطبيعة، فنحن في مجال الحياة وليس في مجال الجماد، والأهم نحيا في عصر

الهندسة الوراثية، بداية تحكم الإنسان وتغييره في تركيبات الخلية الحية في النبات أو الحيوان أو حتى الإنسان.

ولكني لم أكن أعرف على وجه الدقة ماذا فعَل هؤلاء العلماء، وكيف يصلون إلى التدخل الدقيق هذا في تركيب الكروموزومات، بل حتى في التركيب الجزيئي، أي الوصول إلى حدِّ بلوغ التدخل في تركيب الجُزَيئات وبالذات جُزَيء حامض الـ «د. ن. أ» الذي تُبْنى منه هذه الكروموزومات. وقد أجابني هذا الكتابُ على ما أردتُه تمامًا. وأُقسِم أن لي سنواتٍ وسنوات لم يَشغَل خيالي كتابٌ كهذا الكتاب طوال الأيام الثلاثة التي قرأتُه فيها، وأنا ألهث وكأني كنتُ في حفرة، وشدَّني ما قرأتُ إلى حيث رحتُ أرقب الكون والكائنات والحياةَ من فوق ربوة في وضوحٍ غريب غرابةَ الأحلام، نَشْوة لم أُحِسَّها منذ أن كان عمري أربعة عشر عامًا، ووقع في يدي وأنا طالب ثانوي كتابٌ عن الفلَك أو علم الأكوان الحديث الذي أسسه أينشتين، وبهرت للكون الذي وجدتُه في الكتاب، وذلك الكون الكبير، نفسَ انبهاري بالكون الصغير الذي وجدتُه في كتاب الهندسة الوراثية؛ ذلك أن هذا الكون الصغير ليس صغيرًا بالمرة إنه فعلًا «كونٌ» آخر، ولكنه هذه المرةَ ليس مكوَّنًا من نجوم ومجرَّات وأقمار، ولكنه مكوَّن من جزيئات «حية»، ومعنى أنها حية أنها قادرة على التوالد والاندماج والانقسام وصناعة نفسِها بنفسها. والأهم من هذا هو قدرتها على «فك» كل ما هو غيرُ حي، وإعادة تركيبه وترتيبه بحيث يصبح مادة حية.

دلج العلماء إلى هذا الكون لِيَبهَرهم تلك الدقةُ الشديدة التي تُزاوِل بها الخلية الحية صَنعة نفسها، والعملياتُ الغريبة التي تقوم بها لتنقسم وتتكاثر …

إنه الإعجاز المطلق.

إعجاز الخالق الأول ... الله سبحانه

طوال قراءتي للكتاب وثَمة آيةٌ قرآنية كريمة تدور في رأسي وتدور؛ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾؛ ذلك أن العلم كلما تقدَّم بنا، وكلما تقدمنا فيه أدرَكْنا كم نجهل، وقد شبَّهتُه مرةً بأن التقدم العلمي مثلُه مثل أن تُضيء شمعة في غرفة كاملة الإظلام فلا تفعل الشمعة إلا أن تُرِيَك مقدارَ الكم الهائل من الظلام المستبقي أمامك، وهكذا كنتُ أقرأ الكتاب وكأنما أحج إلى حيث معجزةُ الخلق، معجزةُ تجميع الذرات في جزيئات، والجزيئات في مركَّبات جَمادية، فجأة يُعاد ترتيبها، وتَنشأ بينها علاقات، ويدب فيها شيء غريب اسمه الحياة. وعدتُ إلى النقاش العميق الذي دار بيني وبين الكاتب السويسري العظيم دورينمات حول العشوائية والحتمية، لا يمكن أن يكون هذا كله قد حدث بما يُشبِه الصدفة واللاهدف؛ فإن تأمُّل أبسط الكائنات الحية، البكتريا، تلك التي تعتبر «الخميرة» مستعمراتها الكبرى، يلهث علماء الأرض جميعهم ويتَنافسون، وجائزة نوبل تُلهِب ظهورهم، والإغراء المادي والأدبي يُقِضُّ مضاجعَهم فقط ليتعرفوا — مجرد أن يتعرفوا — على الطرق التي يقوم بها تبادل المواد داخل الخلية الحية.

وإذا كان الإنسان أرقى الكائنات الحية قد بدأ يمرُّ خياله وأصابعه ووعيه داخل الخلايا، ويغير من تركيبها؛ ليجعلها أكثرَ خصوبة، ويجعل النباتات أكثرَ وفرة في مَحاصيلها وأسرعَ في نُضجها، بل وليبتكر أنواعًا جديدة من الخَضْروات مثل البطاطم! «شكرًا للدكتور مستجير» على هذا التعريف؛ إذ إن هذا النبات يغل بطاطس تحت الأرض من جذوره، وطماطم فوق الأرض من سيقانه، إذا كان الإنسان نتيجةَ التقدم العلمي والتكنولوجي الخطير الذي حدث في السنوات الأخيرة، وبعد تأمله الطويل قد بدأ يُغيِّر من شكل ونوع الكائنات الحية الدنيا بل والراقية، ويستعملها في إثراء حياته، فليس هذا تدخلًا في عمل الخالق سبحانه، إنما هو إعمالٌ للقدرات التي وهبَها الله للإنسان، ومنها

القدرات العقلية في تغيير شكل الأرض وما عليها، أو بمعنًى آخر هو «عبارة» عن نوع آخر، بل هو اقترابٌ من الله، وتبيُّنٌ لإعجازه، وانبهارٌ بصَنعته ربما أكثر بكثير من اقتراب مَن يُجعجِعون بالميكروفونات، ويَفرِضون وَصاياهم وآفاقهم المحدودة على الآخرين، لقد حدَث لي ما يُشبِه الزلزال التأملي والعقائدي، وأنا أرفع بصري عن الكتاب وأرنو إلى الكون الآخر، وكيف نُظِّم ثم أغوص في الكتاب لأرى الكون الأصغر، وكيف دُقِّق، وما بين الكونَين أنا الإنسان أنا المخلوق الوحيد على سطح الأرض المدرِك للكونَين، الواعي بالكونَين، المبهور بالكونَين، العابد لخالق الكونَين.

إني أنصح وأرجو مَن يقرَءون هذه الكلمات بالذات من الطلاب الراسبين في القسم العلمي بالثانوية العامة، وبشكل عام من طلاب الكليات العِلمية وأولياء أمورهم بقراءة هذا الكتاب؛ فأولادنا يَدرُسون العلم عن «واجب» وليس عن «حُب»، وهذا الكتاب سيُحبِّبهم في العلم ويجعلهم يتفوقون فيه وينجحون. سيَنفُث فيهم الرغبة في الحياة وفي الطموح من جديد، سيَجعلهم يَعشقون المعرفة حتى لو دخَلوا كلية الزراعة، تلك الكليةَ التي كانت على أيامنا ذاتَ سمعة مَجيدة. الآن أصبحَت تستقر عند منحدر الهبوط في مجموع القَبول بالثانوية العامة، مع أن معظم العلماء الحاصلين على جائزة نوبل في السنوات الأخيرة كانوا مِن علماء النبات، بل إنني — وقُبَيل كتابة هذه الكلمات بقليل — وصلني من الدكتور أحمد شوقي حسن أستاذ الوراثة بكلية الزراعة بجامعة الزقازيق كُتيِّب عن الندوة التي أقامتها الجمعية المصرية للعلوم الوراثية عن الهندسة الوراثية، والتي اشترك فيها الدكتور محمد كامل رئيس أكاديمية البحث العلمي، ونخبة من أساتذة الزراعة والطب الأجلَّاء، والتي عُقِدَت بالمركز القومي للبحوث، ووضعَت تقريرًا استردَدتُ معه أنفاسي؛ فطوال قراءتي للكتاب وأنا أتساءل: أين نحن مِن هذا التقدم المذهل الذي يحدث في العالم؟ وجاء التقرير بَلسمًا وردَّ اعتبارٍ؛ فلقد أدهشني وجودُ هذه الطاقات العلمية الكبيرة التي تَعرف وتستطيع أن تُنشِئ معاملَ كاملة للهندسة الوراثية التي نحن — باعتبارنا بلدًا زراعيًّا — أشدُّ ما نكون في حاجة إليها، ولو حتى لإنتاج نوع من القطن يُقاوِم الدودة والآفات، ويوفر مليارات الجنيهات.

شكرًا للقائمين على الجمعية وعاقِدي الندوة؛ فلقد جعَلوني أعود أفخر بمِصريتي وانتمائي إلى العقل المصري المؤمن المبدِع مرة أخرى، أقول لمن يهمهم الأمر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، ولم يَقُل سبحانه: الجهلاء، أو الذين يتخلَّوْن بإرادتهم عن نعمة العقل وإعماله في العلم وبالعلم من أجل البشرية أقصى درجات العبادة.


هنداوي